أول الكلام

العواصم الثقافية العربية والإسلامية

حلب . أصبهان . تمبكتو

رئيس التحرير

كنت قد كتبت في العدد السابق من مجلة التراث مقالة موجزة عن الظروف الدولية التي رافقت نشوء فكرة (العواصم الثقافية) منذ أن صدعت بها وزيرة الثقافة اليونانية (ميلينا ميركوري) في مؤتمر وزراء الثقافة في المجموعة الأوربية، عام 1985، واستحسن وزراء الثقافة في هذه المجموعة الفكرة نظرياً وراحوا يطبقونها عملياً دولياً وإقليمياً، كما لاقت الفكرة قبولاً عند وزراء الثقافة العرب، فنشط وزيرا الثقافة في مصر وتونس فراحا يقنعان منظمة (اليونسكو) لتبنيها في البلاد العربية، وكان لهما تحقيق ذلك، وكان الهدف الأول من تسمية مدينة ما عاصمة للثقافة هو إعطاء تلك المدينة فرصة عام لتطوير مستوياتها الثقافية وتنميتها. .

وفي المؤتمر الذي عقد في المكسيك تبنى المشاركون آنذاك استراتيجية للثقافة في إطار ما أطلق عليه: "عقد عالمي للتنمية الثقافية" وانطلاقاً من هذا تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذا العقد العالمي؛ ليشمل الفترة الواقعة بين عام 1988 وعام 1997 كبرنامج مشترك للأمم المتحدة، وأوكل لليونسكو أن تقوم بدور المنظمة الرائدة التي ترتكز مهمتها على ضرورة الترابط بين الثقافة والتنمية، إلى جانب القيام بإجراء حوار ثقافي بين الأمم والشعوب يقوم على احترام خصوصيات الهوية الثقافية الوطنية، ويراعي التنوع بين الحضارات وما أفرزته من ثقافات. ثم تبنّت (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) استراتيجية تنفيذ المشاريع الثقافية القومية، وحرصت على رفع مستوى العمل الثقافي في دول وعواصم الوطن العربي لمواكبة الحضارة العالمية، ومن هنا بادرت هذه المنظمة بالعمل على إعداد وثيقة تتضمن خطة عربية شاملة لتطبيق هذه الاستراتيجية، ثم عُرضت عام 1985 على وزراء الثقافة العرب، فانطلقت تجربة العواصم الثقافية العربية بالبدء بإعلان القاهرة عاصمة للثقافة العربية عام 1986 وتبعتها تونس عام

1997 وتوالت العواصم الثقافية المتخيّرة في الوطن العربي عاماً بعد عام ــ كما بينّا في حديث سابق.

ثم جاء المؤتمر الإسلامي لوزراء الثقافة في ختام دورته الرابعة التي عقدت في الجزائر العاصمة في عام 2004 ليؤكد التمسك بالذاتية الثقافية والهوية الحضارية للعالم الإسلامي والدفاع عنهما، في إطار التفاعل مع الثقافات والحضارات الأخرى، وعلى مراجعة أسس النظرة إلى الآخر، والابتعاد عن الصور النمطية للشعوب وثقافاتها وحضاراتها، من منطلق أن الحوار المتكافئ بين الأمم والشعوب يتطلب الجرأة لمراجعة النفس، دون التنكر للهوية الدينية والثقافية، وأنه من دون الثبات على القيم الذاتية والمشتركة لن يتأتى فهم قيم الآخر وثقافته بشكل صحيح. "وجدّد المؤتمر اقتناعه بأن الإقرار بالتنوع الثقافي والعمل على صيانته في إطار سياسة دولية مبنية على أسس الحوار والسلم، ونبذ منطق الهيمنة والقوة، يتضمن في الوقت نفسه إدانة العنف والإرهاب بشتى أشكالهما ومصادرهما، إضافة إلى احترام الحياة والكرامة والحرية وحق المقاومة بالنسبة للشعوب المحتلة وحقها في الدفاع عن كيانها وثقافتها، والتمييز بين ما هو من قبيل الإرهاب وما هو مقاومة مشروعة."

ويحلو لي أن استمر في عرض المبادئ التي نادى بها إعلان الجزائر، فمنها: أنه يعلن أن التنوع الثقافي عامل أساس من عوامل التنمية والفهم المتبادل، والتعايش السلمي، والسير نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي، وتصحيح التباينات والاختلالات في النظام الدولي، واحترام البيئة وحمايتها، وحماية التراث، المادي وغير المادي لجميع الشعوب التي يتعرض تراثها الثقافي والحضاري لمحاولات التشويه والتزوير والطمس والتدمير والمصادرة. ومحاربة الفقر والرفع من مستوى النمو والإنتاج، وتوطيد الديمقراطية، والتوسيع من المشاركة الشعبية في اتخاذ القرار في كل القطاعات الإدارية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وتشجيع الاجتهادات الفكرية والإبداعية، ويقر المؤتمر بأن مسار العولمة يقتضي اعتبار التنوع الثقافي والتعدد الحضاري دافعاً إيجابياً للتفاعل والتبادل، لا عائقاً دونهما في إطار الخصوصيات الثقافية والحضارية واحترامها، وفي ظل عالم تحول إلى قرية كونية بفضل الثورة المعلوماتية والاتصالية، وأصبح ينحو نحو التجانس"[1].

ثم جاء تقرير المدير العام للإيسيسكو، وجهود المنظمة في متابعة تنفيذ برنامج عواصم الثقافة الإسلامية. فقال: "استناداً إلى قرار المؤتمر الإسلامي الثالث لوزراء الثقافة المنعقد في الدوحة سنة 2001 بشأن اعتماد مشروع برنامج عواصم الثقافة الإسلامية الذي تقدمت به المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، والذي دعا الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر

[1] مقتطفات من إعلان الجزائر حول التنوع الثقافي والمحافظة على هويات الشعوب وتراثها.

الإسلامي إلى ترشيح مدن تختار (الإيسيسكو) منها كل سنة ثلاث عواصم للثقافة الإسلامية، تمثل: المنظمة العربية، والآسيوية، والإفريقية، وحيث أن المؤتمر المذكور قرر تعيين (مكة المكرمة) أول عاصمة للثقافة الإسلامية لسنة 2005، من جهة أخرى فقد عملت المنظمة الإسلامية على النظر في الترشيحات الوافدة عليها من الدول الإسلامية للاستعانة بها في وضع جدول في اختيار العواصم للثقافة الإسلامية.. فأعدت الإيسيسكو تصوراً متكاملاً لبرنامج عواصم الثقافة الإسلامية، تقترح فيه عشر عواصم للثقافة الإسلامية خلال السنوات العشر المقبلة بعد أن يتم الاحتفاء سنة 2005 بمكة المكرمة أول عاصمة للثقافة الإسلامية ـ تمثل دول العالم الإسلامي بمختلف مناطقه، ويتضمن التصور المذكور المعايير المقترحة لاختيار العواصم، والخطوط العريضة، والتوجهات العامة للأنشطة المقترحة للاحتفاء بالعاصمة المذكورة، فكان البرنامج الذي اعتمدته الإيسيسكو ابتداءً من سنة 2005 إلى سنة 2014 على النحو التالي:

السنوات	المنطقة العربية	المنطقة الآسيوية	المنطقة الإفريقية
2005 مكة المكرمة (المملكة العربية السعودية).			
2006	حلب (الجمهورية العربية السورية)	أصفهان (الجمهورية الإسلامية الإيرانية)	تمبكتو (جمهورية مالي)
2007	فاس (المملكة المغربية)	طشقند (جمهورية أوزباكستان)	داكار (جمهورية السنغال)
2008	الأسكندرية (جمهورية مصر العربية)	لاهور (الجمهورية الإسلامية الباكستانية)	جيبوتي (جمهورية جيبوتي)
2009	القيروان (الجمهورية التونسية)	كوالالمبور (ماليزيا)	انجامينا (جمهورية تشاد)
2010	تريم (الجمهورية اليمنية)	دوشنبه (تاجيكستان)	موروني (جمهورية القمر المتحدة)
2011	نواكشوط (الجمهورية الإسلامية الموريتانية)	جاكرتا (جمهورية أندونيسيا)	كوناكري (جمهورية غينيا)

2012	بغداد (الجمهورية العراقية)	داكا (جمهورية بنغلاديش الشعبية)	نيامي (جمهورية النيجر
2013	طرابلس (الجمهورية اللبنانية)	باكو (جمهورية أذربيجان)	كانو (جمهورية نيجيريا)
2014	تلمسان (الجمهورية الجزائرية	بيشكيك (جمهورية قير غزستان)	وأقادوغو (بوركينا فاسو)

واتبعت هـذا البرنامج المعتمد بمعايير اختيار عواصم الثقافة الإسلامية، والخطوط العريضة لبرنامج الاحتفاء بعاصمة الثقافة الإسلامية، سنطل عليهما في مناسبة قادمة.

وكـان فـي ذهني أن أضع القارئ في صورة العاصمتين المختارتين في هذا العام مع مدينة حلب: أصبهان من القارة الآسيوية، وتمبكتو من القارة الإفريقية بشيء من التفصيل، ولكن طبيعة هذه (الافتتاحية) والحجم المتطلب منها لا يسمحان بمثل هذا التفصيل، ولي وقفة مفصلة مع هاتين العاصمتين ــ بعد أن أسهمت في العاصمة الأولى حلب ــ في قادمات الأيام.

صورة القوة والإرادة
في
شعر المتنبي

أ. د.حسين جمعة

1. حدود وأبعاد:

***قبل** أن أدخل في صميم البحث؛ أبيّن أن لكل صورة فلسفة خاصة بها، علماً أن مفهوم الفلسفة بقسميه النظري والعملي قديم، وهو متعلق بالمعارف والفنون والعلوم والحقائق... ولذا عرف ابن سينا الفلسفة بقوله: "إنها الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الإنسان أن يقف عليه"[1]. ولهذا تصبح الكلمة في الأدب مادة للصورة (الهيئة) باعتبارها الحامل الحقيقي لعالم الوجدان والعقل، ومن ثم تأخذ الصورة الشعرية طبيعتها ووظائفها وأهدافها من خلال الحواس أو ما يعرف بالحسّ المشترك وامتزاجه بمضمون عقلي ومن ثم فقيمة كل شيء تكمن في وجوده وإدراكه في النفس..*

وفي ضوء ذلك فالكلمة (لفظاً وتركيباً) تمدنا بدلالات رمزية تواضع عليها الناس في كل زمان ومكان بما يتوافق وحياتهم وفلسفتهم للحقائق والأشياء والفنون والآداب و .. أي إن الدلالة بكل أنماطها الذهنية والنفسية والاجتماعية و ... تصبح حالة تصورية خاصة بالإنسان وعلاقته بالوسط المحيط به. " ولا يمكن للشاعر المبدع أن يستخدم في شعره اللغة كما يستخدمها الناس في حياتهم المعاشية العادية، فالمفروض في لغة الشعر أن تكون ذات طاقة تعبيرية مصفّاة ومكثّفة"[2]

(1) المعجم الفلسفي 160/2.

(2) د. عز الدين اسماعيل ــ قضايا الشعر المعاصر 178 ــ 179.

وهـنا يصبح للمبدع مزية خاصة على بقية الناس باعتبار ما وهب من ملكات التذوق والإدراك، ممّـا يجعلـه يجدد في صورة الكلمة، ويفتق في أساليبها وأنواعها. إنها الرؤية الخاصة التي توجب تصـوراً خاصــاً لا يملكــه الآخر ولا يتساوى فيه معه؛ وكذلك لا يتساوى معه في التعبير عنه، فإذا كانت اللغة مشتركة بين الناس فإنّ أساليب استخدام المبدعين لها ليست مشتركة ولا متطابقة.

أما القوة فهي تؤسس للخصائص الذاتية والموضوعية للمبدع والإبداع، بما تمتاز به من الشمول والوحـدة الجامعــة لمخـتلف الصفات. والقوة ضد الضّعف؛ وهي القدرة والشدّة والثبات والعزيمة، سـواء كـان هذا كله في الجسم والغريزة؛ أم العقل والتفكير، ومن ثم فمبدأ القوة المادية أو المعنوية اسـتناده إلى الشعور والإرادة في القيام بفعل ما، وهو ما يطلق عليه الفعل المتهيئ للحدوث، باعتباره موجوداً بالقوة؛ فإذا صار في حيّز الإمكان فهو موجود بالفعل[3].

فــالقوة مصــدر النشــاط والحــركة، ومــبدأ الخَلْق والفعل، وهي منبع الإرادة والعزيمة جسداً وعقــلاً.والقوي من يتصف بامتلاك القدرة والتحمل والصبر، بما في ذلك قوة الذكاء والحافظة، وقوة التخيـيل والــتحريك والتغيـير؛ وقديماً قيل: من استولى على الشيء أسَر. وغَلَب الإنسان أو الشيء غيره إذا تغلّب عليه، وقهره من غير رضى.

ومــن ثــم فــالإرادة قــوة نفسية تتوق إلى الفعل وتشتاق إليه فطرة ومخيلة وعقلاً؛ مهما كانت أشكالها جزئية أم كلية؛ خاصة أم عامة؛ فردية أم جماعية مشتركة.

ولهـذا قيل: إرادة الشعور؛ وإرادة القوة، وإرادة الحياة، فإرادة الشعور نزعة ذاتية أساسية تؤثر فــي حـياة صاحبها وحياة المجتمع؛ وإرادة القوة نزعة تؤكد الثبات في الوجود الحر الذي لا يعرفه الضــعفاء ــ ويستعين المبدعون في هذا الاتجاه بقوة المخيّلة لتجاوز المألوف ــ وإرادة الحياة ــ كما انتهى إليها شوبنهاور ــ مبدأ للقوة الشهوية الغريزية لاستبقاء العنصر الوجودي في الحياة، بصورته الخاصة[4].

وعلـيه؛ كــان لــزاماً علينا أن نشير إلى أنماط القوة وفلسفتها في شعر المتنبي أسلوباً وتخييلاً وأفكاراً، على اعتبار أن الأسلوب هو الإنسان وهو الذي يرسم خصال المرء وسجاياه[5] وأن التخيّل أو التخيـيل قــوة مصــورة تـريك صورة الأشياء الغائبة حتى يُخَيّل إلينا أنها حاضرة وتسمى القوة المصوّرة[6]، وأن الأفكار تجيء وفق أحوال النفس والأحداث والثقافة التي تحيط بها سواء كانت وفق

(3) (المعجم الفلسفي 2/201-202).
(4) (انظر المعجم الفلسفي 1/57-61)
(5) (المعجم الفلسفي ــ 1/80-81)
(6) (المعجم الفلسفي 1/261)

مبدأ تداعي الأفكار، أم مبدأ الاقتران والاقتراض والخبرات؛ ممّا يؤدي إلى حصول معنى ما في الذهن يصـاغ بلغة حقيقية أو رمزية أو مجازية أو إشارية لتدل على فكرة صاحبها ومشاعره[7] ، فالمعنى ((هـو الصورة الذهنية من حيث وضع بازائها اللفظ))[8] في إطار الجوهر اللغوي الذي يعيشه الذهن في ضوء تصوره لكل ما يريد التعبير عنه. ويرى الدكتور اليافي أن الفكرة تشتمل على الصورة وبهما يحصل الإبداع فيقول: " وإنما تحصل الجودة والإبداع حين تشتمل الفكرة الفنية على صورة تلونها، أو صـنعة خفـية تخدمهـا وتؤديها" [9] فاللغة صلة الوصل بين الإنسان والمحيط، وهي المكونة للمعنى باعتبارها وعاء الفكر. وعليه فإن " النشاط الذهني ينتج أفكاراً وإشارات حرفية ذات دلالات محددة، والنشـاط الخيالي ينتج الأشكال الفنية، وعن طريق التعارض أو التقابل بين الصورة"[10] وهذا يشي بالحصول على التشكيل الجمالي المؤلف من عناصر عدة تؤسس لمفهوم المتعة واللذة والفائدة؛ أي ((لا يوجد في الواقع فن معتمد على نوع واحد من الإحساسات مثل التصوير الخالص أو النحت الخالص؛ ففي التصوير قيم ليست كلها مستمدة من اللون كما يلاحظ (برنسون Berenson)))[11].

ومـن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى صياغة مكونات صورة القوة والإرادة وتجلياتها التي انتهجها المتنبـي للكشـف عن قيمتها باعتبارها صفة من صفات الإبداع ومن ثم الكشف عن موهبته وفرادته فـي شـعره الذي يعدّ شاهداً حياً عن شخصيته التي ملأت الدنيا وشغلت الناس. فالمتنبي يمارس في إبداعـه أنماط الإرادة التي أشرنا إليها، وقد انتقلت من إطار الذات إلى الموضوع، وهي ذات عارفة بقـيمة مـا يملك وبقيمة أشكال القوة في تموضعها الخارجي. لهذا كانت تشغله كينونة وجوده قبل أن تشـغله كيـنونة الآخريـن؛ ممّا جعل فنه ينمو ويتطور إضافة واستمراراً، ليصبح وجوده الإبداعي علامة للفن الأصيل الموسوم بالعلاقات الجمالية العديدة.

ولهـذا كلـه نجـد أنفسنا مبهورين بقوة الإرادة التي كان المتنبي قد تميّز بها ووسم بها مواقفه وإنـتاجه الأدبـي الـذي خلده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ممّا يجعلنا نبدأ بالكشف عن البعد الحقيقي لمكونات صورة القوة عند المتنبي باعتبارها الجامع للإرادات الثلاث التي تحدثنا عنها، وهو الأمر نفسه الذي جعلنا نختار عنوان (صورة القوة والإرادة في شعر المتنبي).

2. مكونات صورة القوة والإرادة:

---

(7) انظر المعجم الفلسفي 263/1 و398/2)

(8) المعجم الفلسفي 398/2)

(9) دراسات فنية في الأدب العربي ــ ص 245 ــ ط 1 ــ 1963م.

(10) تطور الصورة الفنية 13 ــ نعيم اليافي.

(11) مقدمة في علم الجمال، 35 د. أميرة حلمي مطر ــ دار الثقافة للنشر والتوزيع ــ القاهرة.

نحـــاول في هذا الاتجاه الكشف عن الذاتية الفردية باعتبارها البعد الحقيقي لمكونات صورة القوة نفسياً واجتماعياً وثقافياً وفنياً على فَرَض أن المتنبي ينطلق منها إلى تشكيل فلسفته ومعانيه، وهو بُعد يتعانق فيه النفسي بالاجتماعي والثقافي والإنساني إلى درجة التعالق العضوي. هذا هو المكون الأول أمـــا المكـــون الثاني لصورة القوة والإرادة فإنه يكمن في قوة المُصَوِّرة (المخيّلة) التي تميز بها دون غيره من الشعراء. وسنبدأ حديثنا ببيان الذاتية الفردية.

أ. الذاتية الفردية:

قـــد يـــتوهم كثير من الناس أن الذاتية لا تختلف عن الفردية، بيد أن الفرق بينهما كبير وشاسع. فالفـــردية تعـــبر عـــن بروز (الأنا) مقابل الآخر فرداً أم جماعة... وقد تتضخم الفردية على حساب الآخر...

أمـــا الذاتـــية فهي العنصر العاطفي الجوهري الممزوج بالاجتماعي والإنساني والثقافي والفني للتعبـــير عن رؤية مستقلة ومتميزة للكون والناس والأحداث... ومن ثم فالشاعر يرصد أحداث حياته وحياة مجتمعه وتجاربهما وفق رؤية خاصة تحقق له مجموعة من الوظائف والأغراض.

وفـــي ضوء ذلك فالذاتية الفردية وفق ما يشي بها شعر المتنبي تنطلق من الطبع المؤاتي للفردية المتماهـــية في المجتمع على الرغم من الحس الفردي العالي لديه، على اعتبار أنه يتوق دائماً إلى أن تكـــون شخصيته موضوعاً عاماً، ما يعني أنه لم يستطع أن يعيش منفرداً على الرغم مما يتّصف به مـــن نـــزوع فـــردي متعالٍ وبارز في فنه؛ بيد أن هذا النزوع لا يمكن أن يبرز إلا بوجود الآخر ما يجعلـــه علـــى اتصال فاعل بأغلب الأوساط المحيطة به. فالشاعر مرتبط بجملة من العوامل التربوية والثقافية التي أسهمت في تكوين شخصيته الإبداعية المتفردة، إذ يقدّم رؤاه النفسية بأسلوب يدل عليه، وكأنه البصمة الخاصة به وفق ما يتضح للعالم بالشعر.

مـــن هـــنا نجد أن فلسفة القوة والتفاخر لديه ذات أشكال ومظاهر عديدة ترجع إلى الانطباعات دون أن نعـــدم وجـــود الـــتراكم الفكري والفني الذي يعزز لديه استثارة من نوع آخر ليثبت استجابة مغايرة تتوافق مع رؤيته إلى الحياة والكون.

ولهـــذا كلّـــه فإن رؤيته الذاتية المبدعة كانت تتفاعل مع بديهته وفطرته الإبداعية التي وهبها الله إيـــاه، ومن ثم تمتزج برؤية موضوعية ملبية لها. ولا شيء أدل على ما تقدم من المقطع الآتي، وفيه تـــبرز ظاهرة (الأنا) الممتزجة بظاهرة (نحن) وإن كانت الطبيعة المجسدة بـــ (أنا) طاغية في ألفاظه كما في قوله:[12]

---

[12] ديوان المتنبي (367/3)

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي — وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها — ويسهر الخَلْق جرّاها ويختصم

فبُنية الحيّز النفسي/ الاجتماعي تتأطر في علاقات فنية تصوغها اللغة بإيقاعات جمالية يتحد فيها الدال والمدلول، لتصبح صيغة (الأنا) التي تمثل الذات الشاعرية ظاهرة فنية فكرية، ومن ثم ظاهرة مرتبطة بالوجود الإنساني من خلال الضمير (هو) المضمر أو الظاهر.

فضمير (أنا) برز خمس مرات في البيتين، ولكن هذا لم يمنع ظهور الآخر المتعدد فرداً وجماعة (الأعمى ــ الكلمات ــ الأصم ــ الخَلْق) ولابأس من أن نعرض لمثال آخر من مدحه لسيف الدولة، إذ يقول:[13]

وما أنا إلا سَمْهريٌّ حَمَلْتَه — فزيّن معروضاً وراعَ مُسَدَّدا
أجزْني إذا أنشدت شعراً فإنما — بشعري أتاك المادحون مُرَدَّدا
ودع كل صوت غير صوتي فإنني — أنا الصائح المحكيُّ والآخر الصدى
تركت السُّرى خلفي لمن قلَّ ماله — وأنْعَلْتُ أفراسي بنعماك عسجدا

فالمتأمل لهذا النص الشعري يلفته الشكل الخارجي للغة التي تحمل جملة من الوظائف والدلالات في بنيتها الفردية (الكلمة) وبنيتها الكلية (التركيب). فاللغة بهذا البناء الفني عند المتنبي كانت مادة لدلالة ظاهرة وباطنة تتجاوز القرائن البعيدة لتقف عند سطوة المدرك الملموس الذي يستشعره المتنبي، ما جعله يوازن بينه وبين غيره من الشعراء. وحينما نشدد على طغيان الذاتية في شعر المتنبي، وهي ذاتية تعزز مفهوم الفخر الفردي، فإننا نؤمن بأنها ذاتية تختلف عما رأيناه في الشعر القديم ولا سيما الجاهلي منه. فالفخر الذاتي عند طرفة بن العبد وعنترة بن شداد ــ مثلاً ــ إنّما يعزز نزعة الاستعلاء من خلال القيم التي تواضع عليها المجتمع آنذاك؛ وعليه قول طرفة: [14]

ولست بمحلال التلاع لبيتة — ولكنْ متى يسترفد القوم أرْفِد
وإن تبغني في حَلْقة القوم تلقني — وإنْ تَقْتنصني في الحوانيت تصطد
وإنْ يلتق الحيُّ الجميعُ تلاقني — إلى ذروة البيت الكريم المُصَمَّد

أما ذاتية المتنبي الفردية فإنها تظل معبرة عن فلسفته الخاصة في نزعة مثالية لما يراه من قيم المجتمع، وشتان بين فخره وفخر القدماء.

---

(13) ديوان المتنبي (1/290-291).

(14) ديوان طرفة بن العبد 28-29.

ومـن ثم تستند فلسفته إلى صورة القوة لديه إلى قوة الإرادة الذاتية والموضوعية لما يتصف به من ثقة بنفسه، وهمته العالية؛ وحكمته الرائعة، ورأيه الحازم، وشجاعته النادرة؛ فكلّها تجسد مكوّنات فلسـفته فـي الوقت الذي تمثل نمطاً من تجليات الصورة الجمالية التي تؤكد قوته المادية والمعنوية. فالمتنبي تمكن بقدراته الإبداعية أن ينفذ إلى القوة الكامنة في اللغة المصورة ليشكلها في لغة جمالية تقدم وظائف عديدة.

ولهـذا فهـو لا يثقل شعره بالألفاظ الجزلة، ولا يقع ــ في آن معاً ــ أسيراً للمباشرة والوضوح القاتل، وإنما يلجأ إلى قوة التعبير التي تستثمر وضوح الألفاظ وتراكيبها لصالح تعميق معاني الإرادة ووضـعها فـي جذوة الألق الذاتي الشغوف بالعقل وتجاذباته؛ دون أن يفقد الانسجام (الهارموني) مع الشـجاعة، وكـل مـنهما محكوم باستثارة جمالية خاصة. هذا إذا تغافلنا عن قيمة الوزن في الشعر، فـالوزن لـيس "صورة موسيقية فرضت عليه فرضاً لتكون حلية تزينه، كلا، فالوزن ظاهرة طبيعية لتصـوير العاطفـة لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً، وذلك لأن العاطفة بطبيعتها قوة نفسية وجدانية لها مظاهـر جسـمية تبدو على الإنسان الغاضب أو الفرح أو الحزين فإذا به مضطرب ثائر، أو مبتهج طروب؛ أو متخاذل يبكي، وإذا لقلبه نبض خاص غير طبيعي ولأنفاسه ترديد غريب، ذلك دليل على انفعال يملك النفس"[15] وهو القائل:[16]

عـشْ عزيـزاً أو مُـتْ وأنـتَ كـريم ... بيـن طعـنِ القَـنا وخفـقِ البـنود
فـرؤوس الـرماح أذهـبُ للغـيظ ... وأشـفى لغـلِّ صـدر الحَقُـود
لا كمـا قـد حييـتَ غـير حميـد ... وإذا مُـتَّ مُـتَّ غـير فقيـد
فاطلـب العـزَّ فـي لظـى وذَرِ الـذ ... ل ولـو كـان فـي جـنان الخلـود
يُقْـتَل العاجـز الجـبان وقـد يَعْجـزُ ... عـن قَطْـع بُخْـنُق المَوْلـود
أنـا تـِرْبُ الـندى وربُّ القوافـي ... وسِـمَامُ العـدا وغـيظ الحسـود

فقـوة إرادتـه وعـزة نفسه تجعله يعيش بين حياتين حياة الامتناع من الأعداء أو حياة الموت الكـريم في الحرب. وهما حالتان تحققان التوازن القوي للحفاظ على ذاته المبدعة، وفق ما هو مستمد مـن الحقول الدلالية للنص. فالقتل في المعركة يدل على الشجاعة، وهو خير من الذل؛ أي إن الوعي الجمالـي القوي والبديع يمتد إلى العنصر التراجيدي ــ المعذب ليثبت مرجعية وظيفية تحاكي الوعي التاريخـي الاجتماعي، ومن ثم يمتد إلى الجميل البطولي، وما يقتضيه من حيوية ذاتية عند الشاعر،

---

[15] العاطفة والإبداع الشعري 25 ــ د. عيسى العاكوب

[16] ديوان المتنبي (321/1).

فتمتلئ نفسه بإرادة القوة التي تتشبث بالمجد فينطلق من خلال المحمول النفسي والاجتماعي ليرفض الذل والخنوع.

ولهذا لا يشفي صدر عدوه من الغيظ إلا أن تنال منه الرماح التي اتصفت بالتشخيص والأنسنة وكأنها هي الفاعل. وهو لا يتوانى عن طلب الجهاد والموت الجليل ليعيش في جنة الخلد بدل أن يموت على فراشه ميتة الذل فلا يفتقده الناس، لأنهم لا يبالون بموته وموتهم ولا يذكرونه بعده، ومن ثم يرى أن الجبان قد يموت على فراشه، على حين يسلم الشجاع الذي يخوض أشد الأهوال وأخوفها. ومن هنا نجده يرتد إلى ذاته الداخلية ليرى فيها أنها أخت الجود وصاحبة القصائد ومنشئة القوافي، وقاتلة الأعداء؛ ما يجعلها تسبق إلى قتلهم وكأنها السم الزعاف لهم.

وكان قد قال من القصيدة نفسها:[17]

أبداً أقطع البلاد ونجمي ... في نُحوس وهمّتي في سعود

وجاء في قصيدة أخرى ما يعبّر عن قوّة إرادته في ركوب المصاعب، وقد استجاب لما يعتلج في أعماق نفسه في قلقها وحيويتها باعتبارها تكره الخوف، وتشمئز من الانكسار، ومنها:[18]

أُعَرِّضُ للرماح الصُّمِّ نحري ... وأَنْصِبُ حُرَّ وجهي للهجير

وأسري في ظلام الليل وحدي ... كأني منه في قمر منير

ونفس لا تجيب إلى خسيس ... وعين لا تدار على نظير

وكف لا تنازعُ مَنْ أتاني ... ينازعني سوى شرفي وخيري

فالرؤية الذاتية للمتنبي تتفاعل في صور حسية فاقعة ومستندة إلى أسلوب التقابل مع أنموذجه المثالي الذي يؤكده في إظهار قدرته وتفوّقه على نفسه في الكرم والعطاء، وكأنه أكثر الناس سخطاً على البخل والظلم. فرؤيته الفلسفية هذه إنما توحي لنا أنه مهموم بالمصير الإنساني القلق؛ ولا سيما حين يعيد القيمة الحقيقية للرأي قبل الشجاعة؛ على حين كان المُعَوّل عليه في عصره ــ وفق سيفياته في سيف الدولة ــ ينصب على الشجاعة. فانكسار قوة العقل انكسار للمصير الإنساني وخسارة كبرى للروح الفردية والجماعية، أما خسارة القوة البدنية، فهي خسارة فردية، بيد أنه لا يسقطها من حسابه.

---

(17) ديوان المتنبي (320/1)

(18) ديوان المتنبي (142/2-143)

وفي ضوء هذا الفهم فإن فلسفة القوة لديه تقدم الرأي على الشجاعة وأدوات القتال؛ واجتماعهما معاً أفضل من تفرقهما لبلوغ العلياء إذ قال:[19]

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفْسٍ مرّةٍ ... بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران

لولا العقول لكان أدنى ضَيْغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان

ولما تفاضلت النفوس ودبَّرت ... أيدي الكُماة عوالي المُرّان

وقال هذه القصيدة عندما انصرف سيف الدولة من فتح بلاد الروم سنة (345هـ) ويصفه فيها بقوة القلب وشدة البأس؛ بيد أن حكمته وعقله تسبق شجاعته، أي إن شجاعته ملازمة لرجاحة عقله، ولكنها تأتي في مقام صفاته وفضائله بعد العقل والرأي؛ وبهما ينتهي صاحبهما إلى الكمال والعلياء. فقيمة أي شيء تكمن في إدراكه قبل وجوده، وفي كل ما يشي به من دلالات اجتماعية ونفسية، إذا تجاهلنا صلته بالقيم والفضائل. ولعل هذا كله يوحي بالعلاقة الصحيحة بين الواقع بكل قيمه وتجلياته وبين الواقع النفسي، باعتبار علاقة الأصل بظله.

وهذه الفلسفة تستند عند المتنبي إلى المنطق والدليل وهو ما أورده في البيت الثالث والرابع إذ يرى أنه ربما طعن الفتى أقرانه من الأقوياء الشجعان بالمكيدة ولطف التدبير قبل أن يطعنهم بالرماح. ولولا العقل لكان أقل سبع قوة أقرب بالشرف والمكانة إلى الإنسان، ولولا العقل لما تفاضلت النفوس بعضها على بعض والآدمي أفضل من البهيمة بعقله وقال المأمون: الأجساد أبضاع ولحوم، وإنما تتفاضل بالعقول وهذه الرؤية من كلام الحكماء إذ يقال: الإنسان شبح نور روحاني، ذو عقل غريزي لا ما تراه العيون من ظاهر الصورة[20]

وكان قد قال في مدح كافور:[21]

نلت ما لا يُنالُ بالبيض والسُّمْر وصُنْتَ الأرواح في الأجساد

ومَا دَرَوا إذ رأوا فؤادك فيهم ... ساكناً أنّ رأيه في الطراد

ففدى رأيك الذي لم تُفَدْهُ ... كل رأي مُعَلَّم مستفاد

وإذا الحلم لم يكن في طباع ... لم يُحَلِّمْ تقدُّمُ الميلاد

---

[19] ديوان المتنبي (174/4-175).
[20] ديوان المتنبي (174/4).
[21] ديوان المتنبي (32/2-33).

فبهذا ومثلَه سدت يا كا فور واقتدت كل صَعْب القياد

فصورة كافور مرت بمدركات ذهنية وخبرات متتابعة أدت إلى انطباعات محددة، عبر عنها بها الشكل المنطلق من ذاته الفردية المفكرة.

ولعل ما أشرت إليه كاف فيما أرمي إليه لأنتقل إلى الحديث عن القوة المصوّرة لدى المتنبي، وهي التي تبرز فنه بمثل ما تبرز فلسفته وشخصيته.

ب ـ القوة المصوّرة (المخيّلة):

هناك توافق عجيب بين القدرة على الإبداع وبين الإبداع نفسه ليبرز نمطية الفلسفة التي تثبت العلاقة بين المبدع والإبداع. فالإبداع يرتبط بالقدرة على التخييل في الصور الحسية والمجردة، البعيدة والقريبة، البسيطة والمركبة والاختراع في الأفكار المنبثّة من خصوبة الذهن المشبع بالعناصر الأدبية والثقافية والاجتماعية والفنية فأي شيء خارج الذات أو داخلها لايمكن إلا أن يصدر عن الحواس التي تتكامل مع الحس المشترك لإنتاج صور تمدنا باللذة والإمتاع. وقد أثبت العلم الحديث ظاهرة الجلاء البصري اعتماداً على ترابط المراكز الحسية بعضها ببعض، ومن ثم تكاملها مع العمليات الإدراكية المركبة[22]. فالمبدع يرى صورة لشيء لا يراها غيره من خلال تميزه برؤية خاصة، وهي التي يقال لها ـ أحياناً ـ الحاسة السادسة، ما يجعله يرى الأشياء المغيّبة على صورة يتخيلها وتكون كذلك على الحقيقة ما يجعلك تعيش في حالة الإدهاش. ولعل هذه الحاسة تتقاطع مع ما قاله ابن سينا عن إدراك البصر للحرارة من خلال الحس المشترك للقوة المصورة على اعتبار أن المصوّرة هي الخزانة التي تختزن المحسوسات[23].

وإذا وقع الخطأ في التصوير فإنما يرجع إلى الوهم وما يضيفه التخيل إلى الإحساس نتيجة المعاني المكتسبة، والتجارب المعروفة، وفق ما انتهى إليه ابن سينا[24] ؛ دون أن ننسى لحظة واحدة أن الفكر الإنساني عاجز عن إدراك الواقع إدراكاً تاماً، كما انتهى إليه الفيلسوف (عمانويل كانط)[25].

ومن يتعقب الصورة الشعرية عند المتنبي يدرك أنه يتجه إلى الفكرة والواقع باعتبارهما مظهرين لتجليات الذات التي تنطوي على مشاعر متأججة ومؤثرة؛ في الوقت الذي يتوافر لها

---

(22) انظر مبادئ علم النفس العام ـ ص 68 ـ يوسف مراد ـ دار المعارف ـ مصر ص 4.

(23) انظر أرسطوطاليس في النفس 41 ـ 46 و 62 ـ 67 عبد الرحمن بدوي.

(24) انظر أرسطوطاليس في الشعر 210 ـ 211 .

(25) إشكالية المعرفة في الغنوزيولوجيا ص18، أحمد مبارك ـ مجلة الحياة الثقافية ـ وزارة الثقافة التونسية ـ العدد 90 كانون أول / ديسمبر 1997م.

مضامين جمالية تحرّض الآخرين على الولوج في معرفة كينونتها، وبديع صناعتها، والشعر ـ كما قال الجاحظ ـ: "صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير"[26] وكلها تحقق الفكرة المتخيلة عنده على اعتبار أن الصورة ذات وموضوع. وهذا يعني أن عملية "التخيّل الشعري ليست عملية حرّة وإنما هي مقيدة بشروط العقل، ولهذا يتحول الشعر إلى صناعة عقلية لا يسمح فيها للخيال بالانطلاق حتى لا يصبح مجرد إلهام أو تلويع مستلب"[27]. وربط عملية الإبداع بالعقل "لن يلغي وجود الوسائل التي تجعل القول مخيّلاً، لأن القدرات الإبداعية والابتكارية للتخيل الشعري سوف تستخدم في تحسين أو تقبيح ما يقرره العقل، وسوف تنحصر العملية إذاً في خلق تشكيلات جمالية مؤثرة"[28].

ولهذا فالإبداع التصويري نوع من الخَلْق الجمالي المعبّر عن حاجات ذاتية واجتماعية وثقافية وفنية تؤكد ذاتها في نظام يغلب على نظام آخر. فالنظام هو الحاضنة التي تضم المرجعيات والأبعاد التي يستند إليها إنتاج ما أدبياً كان أم فنياً أم فكرياً، أم لغوياً،...

ومن يتتبع قصائد المتنبي يلحظ أن قوّة التخيل كانت تتوزع في دوائر إبداعية شتى داخلية وخارجية ولم تكن مجرّد ردّ فعل لظروف خارجية تحيط به، أو مجرد تأثّر ذاتي يصدر عن إعجابه بممدوح ما كسيف الدولة الحمداني، أو إعجابه الشديد بأي موضوع آخر وانغماسه فيه ما يجعل الكلمة المصورة تشبيهاً أو كناية أو استعارة تشكّل النواة والمركز المشع في الصورة الشعرية. فالقوة النفسية ـ مثلا ـ تواقة إلى تجاوز ما تعاور عليها الشعراء في مفهوم اللمحات والسوانح والخواطر، على أهميتها في الإبداع وارتباطها بالإشراق الذاتي والفني، ولكن المتنبي يؤكد ذاته بقوة المخيّلة المنبعثة من أعماق وجدانه وعقله على السواء لتصبح الصورة لديه قادرة على الإدهاش وهي تخرج الخفي غير المدرك إلى صورة مدركة بالحواس، ومن ثم تثير النفس والعقل معاً، ما يعني أن قوة العواطف لديه لا تلغي القوة الذهنية، وهذا شيء ربما يتفرد به دون غيره. ولعل الوقوف عند قصيدته التي وصف فيها الحُمَّى تشي بقدرة المخيّلة العجيبة لديه، باعتبارها قوة إدراك، وقوة بناء للعالم الشعري المكون للرؤيا[29]، فهو يفاجئنا مفاجأة غير متوقعة وفق ما يقال اليوم عن كسر أفق التوقع في الحديث عن الحمى ومكوناتها الشعرية، إذ يقول:[30]

---

[26] الحيوان ـ 132/3.

[27] د. ألفة كمال الروبي: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ـ دار التنوير ص 66 لبنان ـ ط 1 ـ 1983م.

[28] نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ـ ص 65.

[29] انظر الصورة الشعرية ونماذج إبداع أبي نواس ـ 21 ـ ساسين عساف ـ دار مارون عبود ـ 1985م.

[30] ديوان المتنبي 146/4 ـ 147.

وزائرتـــيْ كـــأن بهـــا حـــياء فلـــيس تـــزور إلا فـــي الظـــلام
بذلــت لهـَـا المطـــارف والحشـــايا فعافـــتها وباتـــت فـــي عظامـــي
يضـيق الجلـد عـــن نفســـي وعـــنها فتوســـعُه بـــأنواع السَّـــقام
إذا مـــا فارقَتْنـــــي غسَّـــــلتني كأنـــا عاكفـــان علـــى حَـــرام
كـــأنَّ الصـــبح يطـــردها فـــتجري مدامعهـــا بأربعـــة ســـجام
أراقـــب وقـــتها مـــن غـــير شـــوق مراقـــبة المشـــوق المســـتهام

فهــذا المقطع جزء من كل يضعنا في حالة من تولّد الصورة الذهنية من خلال ربط المألوف بغــير المــألوف ولا سيما حين تحدث عن بذل كل ما هو ناعم من الوسائد والفرش ولكن توقعه في رغبات تلك الحمّى قد خانه. ومن يرغب في معرفة حقيقة هذه الصورة عليه أن يتمثل حقيقتها الثابتة فــي عناصرها الذاتية والموضوعية، تصور أو شعوراً، أي عليه إدراك الحالات النفسية التي يمر بها الشعور والعقل لكي يحصل على التأثير المطلوب.

وكذلــك نرى أن القوة النفسية كانت تتعانق بلغة شعرية مدهشة تنحرف عن كل ما هو مألوف لتمــتزج بطــريقة البــناء المصورة المحاكية للنموذج البطولي المدحي، وهي التي منعت المتنبي من الوقوع في الاختراق السلبي المنظور في قيم القصائد المدحية، ولاسيما إذا قارنا مدائحه بمدائح غيره من الشعراء.

ولا شــيء أدل علــى ذلــك كله من مدح المتنبي لسيف الدولة وعتابه في آن معاً في قصيدته المشهورة ومطلعها:[31]

واحــرَّ قلـــباهُ ممـــن قلـــبُهُ شَـــبِمُ ومـــن بجســـمي وحالـــي عـــنده سَـــقَمُ

وفــيها يتغــنى ممــتدحاً شــعره، من خلال تقنيات لغوية وتصويرية تتكئ على مكونات التنوع والتشــويق الصادم للقارئ في دلالته الجمالية التي تحقق لــه التوازن، ولا سيما حين رأى أن وسائل المعرفة والعهود التي جمعت بينهما أعظم من أن تضيَّع فقال:

وبينـــنا لـــو رعيـــتم ذاك مَعْـــرفةٌ إنَّ المعـــارفَ فـــي أهـــل الـــنُّهى ذِمَـــمُ
كـــم تطلـــبون لـــنا عيـــباً فـــيعجزُكمُ ويكـــره الله مـــا تـــأتون والكـــرم؟

فمـــا عهدنـــا شاعراً يعنّف ممدوحه بمثل ما نجده عند المتنبي، فهو يتحدث عن سيف الدولة لافــتاً نظــره إلى أنه أصغى إلى الطاعنين في المتنبي، يطلبون له عيباً يغضون به من منزلته عنده

(31) ديوان المتنبي (362/3)

ولكـنهم لـن يجـدوا شيئاً من ذلك. وحين كان يعرض لذلك كان يؤكد فاعلية الصورة الشعرية في تمثـيلها لمشاعره التي تعتلج في نفسه، ما يوحي بأنه يحيل الوجدان الذي يملكه إلى مطالب تعبر عما يـتراءى له من خلال الصورة. وبهذا تظهر القدرة الإبداعية عند الشاعر، فهو يقدم بين أيدينا رغباته المكبوتة بوساطة معادل موضوعي تصويري يحوّلها إلى واقع ملموس يجمع بين العقل والوجدان.

ومـن ثم فالتخييل الشعري نقل كل ما هو مجرد إلى كل ما هو محسوس ـ والعكس صحيح ـ بأسـلوب طـريف وتقنـيات مدهشـة، ووضع الأفكار والرؤى تحت أسماعنا وأبصارنا بكل قوة ووضـوح ودقـة؛ دون أن يخل بالعنصر العاطفي الانفعالي، ما يجعل التخييل فعلاً إبداعياً يصل بين المـبدع والمتلقي لالتقاط نظرية فلسفة القوة عند المتنبي، وهي نظرية تحضر بكل عناصرها الجمالية لتخلق الصدمة المدهشة التي تجمع بين عنصرين أصليين (العاطفة والعقل).

وبهذيـن المكونيـن يمكن أن نؤصل لمفهوم نظرية الشعر عند المتنبي، فعندما نستحضر أصل الإبـداع ومـنطلقه وتكونـه ندرك قوة الفن وجاذبيته وجماليته الخاصة به على اعتبار أن العناصر الجمالية مرتبطة بعضها ببعض من خلال الإحساس بالجمال. ومن ثم نفهم طبيعة الفن الشعري عند المتنبـي، وانطـباقه مـع ما انتهى إليه (جورج سانتيانا) في قوله: ((لذّات البصر والسمع والمخيّلة والذاكـرة هي أكثر اللذات قدرة على التحول إلى موضوعات جمالية))[32] ولهذا فإذا كانت الصياغة الفنية صياغة جمالية بما انتهت إليه من صور مبدعة، فإن الوجد والعاطفة تغدو في الوقت نفسه قيمة جمالية لأنها أبعدت عنا مرارة الحياة، وقرّبت التطلع إلى الأمل في المستقبل الجميل الذي ينشده.

3. تجليات صورة القوة والإرادة في شعر المتنبي:

يـرى كثير من الناس أن تصور المفاهيم يتشكل بالخبرة والثقافة والتربية فضلاً عن مبدأ التأثر والتأثير بالبيئة أو الوسط الذي يعيش المرء فيه.

وقـد يقع بعض المبدعين في حالة صراع ذاتية وعقلية بين ما نشأ عليه المجتمع وبين ما يرغب فـيه ويتصـوره مـا يجعله يتمرد على غالبية الأعراف والتقاليد والصور القديمة في الحياة والأدب والفن.

ولا ريـب فـي أن هذا التمرد يحتاج إلى قدرات خاصة في الإدراك والحس والخيال ما يؤهلهم لـه، ولعل هذا ما نفذ إليه المتنبي الذي يظل حقيقة ثابتة متفردة في وجوده الشخصي والإبداعي.

(32) الإحسـاس بالجمال ص 80 ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوي والدكتور زكي نجيب محمود ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة.

وبناء على ذلك كلّه فإن المتنبي لم يعش يوماً حالة من الانكسار سواء تمثل في الاغتراب النفسي أم الاجتماعي أم غيرهما. فهو حاضر أبداً، يشدّه طموحه إلى أعماق نفسه ووجدانه ليطمس كل قلق أو اكتئاب مفتشاً عن آماله الكبرى بعد كل تجربة مخفقة يصاب بها كما ورد في مدح كافور الإخشيدي ولاسيما قوله:[33]

وتعذلني فيك القوافي وهمّتي كأني بمدح قبل مَدْحك مُذْنبُ
ولكنه طال الطريق ولم أزل أُفتّش عن هذا الكلام ويُنْهَبُ

فالصورة الشعرية الحسية تنبئ بحالات شعورية داخلية ذات أبعاد دلالية مثيرة، فضلاً عن عناصرها الجمالية أسلوباً ولغة، من خلال ضمير المتكلم الذي يعدّ نواة الصورة والفكرة والمشاعر. فالحياة المقترنة بالرغبات تضج بحالة شعرية مدهشة في البحث عنها وسط ازدحام الكلمات وفق ما ذهب إليه كثير من الباحثين والمفكرين عن النفس العاقلة المفكرة، على اعتبار أن لكل موجود وجوداً حسياً وعقلياً في آن معاً، وهي لا تتعامل مع المحسوسات بأسلوب مباشر، بل تتأملها وتفكر فيها بحسب رغباتها وثقافتها وخبرتها.

وكذلك نرى هذا الأسلوب التصويري في ممارسته لفلسفة القوة حين اختار نهايته بإرادته، إنها القوة التي تبرز في بيته الذي قتله:[34]

الخيل والليل والبيداء تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم

وهذا الاختيار الحر لممارسة فلسفة القوة؛ وفق مفهوم إرادة الاختيار؛ إنما يكشف عن الاستبطان الداخلي لحقيقة نفس المتنبي وما تملكه من تكوين يبرز تجليات القوة والإرادة باعتبار ما نشأت عليه من مفاهيم ومثل وما حملته من مبدأ التغذية الراجعة لثقافته ومبادئه ذاتياً وموضوعياً، وهي تغذية تحقق له عملية التوازن بين ما يؤمن به وما يفعله؛ على اعتبار أن فعله محاولة للاستجابة الذاتية بين ما يقوله نصّه الإبداعي وبين عالمه الخارجي. فالمعطى الحقيقي لمرجعية فلسفة القوة في النص المشار إليه ــ على ما يحمله من تقانة فنية أدبية وجمالية ــ أكّد ثباته شكلاً ومضموناً في صياغة واقعية أثبتت تناغمه مع فلسفته؛ ومن ثم كان انتماؤه إلى فلسفته سبباً في مقتله، وهو ما لا نجده عند شاعر آخر.

(33) ديوان المتنبي (187/1).
(34) ديوان المتنبي (369/3).

ومن ثم احتذى أبو الفضل الهمذاني حذوه حيث قال:[35]

إن شئت تعرف في الآداب منزلتي ... وأنني قد عداني الفضل والنعم
فالطِّرف والقوس والأوهاق تشهد لي ... والسيف والنَّرْد والشِّطْرَنج والقلم

وصور تجليات فلسفة القوة عديدة في صورة الدهر والحاكم الأمير والقائد والحرب والمرأة والإبداع ذاته تخييلاً وأسلوباً...

1. صورة الدهر أو الزمان:

سبق أن بيّنا تصور الذهن الإبداعي لكل من الحقائق والأفكار والأشياء والفنون و ... وكل صورة تكون محدودة بتصور ما في ذاكرة صاحبها وفي الذاكرة الجمعية للناس، ما يؤدي إلى تشكل جملة من الرموز الدلالية المشتركة للناس أو أغلبهم، ما يجعلنا نرى أن قيمة التعبير تكمن في دقة الملابسة أو المشاكلة بين التركيب والمعنى.

وعلى الرغم من هذا فإننا نذهب إلى أن التصورات العديدة لا تستند إلى مبدأ التماهي في التراكم الثقافي العام وإنما تستمد فرادتها عند بعض المبدعين المتميزين من فعّالية النشاط الذاتي لديهم، فضلاً عن رهافة حساسيتهم ودقة وعيهم لإعادة صياغة واقعهم وثقافتهم انطلاقاً من استجابة حسية لموضوع ما. فالشاعر المبدع يستطيع الإفصاح عن مشاعره من خلال الأدوات اللغوية في صياغة الصورة المنشودة لديه، ويعتمد في ذلك على الموهبة والذاكرة الثقافية والفنية.

ومن يقرأ شعر المتنبي فإنه سيقع على صورة شعرية حملت جملة من الأنساق الثقافية التي غايرت الأنساق القديمة ومفاهيمها الموروثة. فقد سادت في التراث العربي صورة نمطية للدهر أو الزمان الذي ينزل نوائبه وصروفه بالكون والحياة والإنسان؛ إنها صورة للخصومة والنزاع المستمر، كما نجده عند تميم بن مقبل؛ حيث يقول:[36]

إن يَنْقُض الدَّهْرُ مني مرَّة لبلىً ... فالدهر أرْوَدُ بالأقوام ذو غير

وقال:[37]

إن يُنقض الدهرُ مني فالفتى غَرَضٌ ... للدَّهر من عوده واف ومَثْلومُ
وإن يكن ذاك مقداراً أُصبتُ به ... فسيرة الدهر تعويجٌ وتقويم

---

(35) ديوان المتنبي (المتنبي 3/369)
(36) ديوان ابن مقبل (72)
(37) ديوان ابن مقبل (198).

فهذه الصورة التقابلية بين الشاعر والدهر تبرز من خلال اللغة المتضادة كما يتضح في (واف ــ مثلوم) و (تعويج ــ تقويم). ولعل هذا يضفي على النص أبعاداً درامية مستمدة من الموروث الشعري.

وحين ننظر إلى فلسفة المتنبي ورؤيته للصورة المتوارثة للدهر في أدبيات العرب وفلسفتهم يتضح لنا أنها مغايرة لديه عما وجدناه فيها. وإن أقرَّ بصروف الدهر[38] ــ حيناً ــ فإنه لا يستكين لها؛[39] وإنما يدفعها بكل ما يملك من همّة عالية ومالٍ ورجال، فيقول:[40]

لـيس الـتعلل بالآمـال مـن أربـي ... ولا القـناعةُ بـالإقلال مـن شـيمي

ومـا أظـنُّ بـنات الدهـر تتركنـي ... حـتى تَسُـدَّ علـيها طُـرقها هممـي

لُـم الليالـي التـي أخْنَت علـى جدتي ... بـرقَّة الحـال واعذرنـي ولا تَلُـم

فالـتقابل بينه وبين الدهر يمثل صورة القوي أمام الأقوى، وبهذا يذهب في التخييل إلى ما يؤدي بـه إلى الوقوف عند جزئيات كثيرة توطّن عنده مفهوم الانهزام أمام الدهر، وهو الذي لم يتخاذل أمام أحد.

وكذلك يقر بطاعته للدهر لأن الحسين بن إسحاق التنوخي يطيعه؛ فيقول في مدحه له:[41]

أطعـناك طَـوْعَ الدهـر يـا ابنَ يوسف ... لشـهوتنا والحاسـدو لـكَ بالـرَّغْم

ومـن ثم فالدهر لا أمان لـه، وأمره مذموم، شديد مكره، ولا هو ممن يشتاق فيه إلى نسل؛ لأن مآل الحياة فيه إلى الموت، والنسل إلى القبر بعد طول تعب ومعاناة فيقول:[42]

ومـا الدهـر أهْـلٌ أن تُؤَمَّـل عـنده ... حـياةٌ وأن يُشْـتَاق فـيه إلـى نَسْـل

ويقـر أيضـاً بصحبة الناس للزمان وإصابتهم بغصصه، إذ مرة يحسن ومرة يكدّر ويسيء، بل إذا أحسـن فإنـه لا يتم إحسانه. أي أن واقعه النفسي يعاني أشكالاً عديدة من المسلمات التي تواضع علـيها الـناس؛ علـى اعتـبار مـا يعرف بالوسط الذي نشأ فيه وشكل العديد من آليات التحفيز (Incevtre) ما أدى به إلى مواجهتها بآلية الدفع لديه (Motire) وفضها ما لم تتوافق معها[43].

---

[38] ـ هو يقر بصروف الدهر ونوائبه على عادة العرب بمعرض ما، ولا سيما الرثاء؛ انظر ــ مثلاً ــ ديوان المتنبي (106/1) و2/ 174 و9/3.

[39] انظر ديوان المتنبي (انظر 188/2)

[40] ديوان المتنبي (39/4)

[41] ديوان المتنبي (56/4)

[42] ديوان المتنبي (52/3)

[43] راجع في هذا الصدد (نقد الشعر في المنظور النفسي) د. ريكان إبراهيم ــ دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد ــ 1989م.

لهذا لابدّ من مجابهة الزمان بقوّة وثبات وشجاعة، والموت سينال من الشجاع والجبان، وشتان بينهما في المنزلة في الدنيا والآخرة فيقول:(44)

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم في شأنه ما عنانا
وتولّوا بغُصّة كلّهم منه وإن سرّ بعضهم أحيانا
ربّما تُحسن الصنيع لياليه ولكن تكدّر الإحسانا
وكأنّا لم يرضَ فينا بريب الدّهر حتى أعانه مَنْ أعانا
كلّما أنبت الزمان قناةً ركّب المرءُ في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه، وأن نتفانا
غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحيٍّ لعددنا أضلّنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا
كلُّ ما لم يكُنْ من الصعب في الأنفُس سهلٌ فيها إذا هو كانا

ولذلك فهو يدفع أذى الدهر بالشجاعة والكرم وتدبير شؤون الرعية في السلم والحرب(45).

وفي ضوء ما تقدّم فإن رؤية المتنبي للدهر تغاير المألوف من الرؤى القديمة، بل تثور عليها حين يجعل الممدوح أو نفسه صورة للدهر ومعنىً له؛ كما في قوله مادحاً أبا العشائر:(46)

الناس لم يروك أشباهُ والدّهر لفظ وأنت معناه

والدهر قد يخطئ بحق ممدوحه ولابدّ له من الاعتذار إليه كما يشي به قوله:(47)

الدهر معتذرٌ والسيفُ منتظرٌ وأرضهم لك مصطاف ومُرتَبع

ومن ثم تنكسر الصورة النمطية لقوة الدهر ليصبح مطواعاً للممدوح ينفذ له ما يريد، كما يدل عليه قوله في مدح عبد الواحد بن العباس (الكاتب)؛ إذ يرى أن الممدوح إذا أراد شيئاً وافقه القضاء عليه، وأبلغه الدهر مراده؛ ولم يعصه أبداً:(48)

---

(44) ديوان المتنبي (4/239-241)
(45) انظر ديوان المتنبي (2/37)
(46) ديوان المتنبي (4/263) وانظر مثلاً آخر (2/304)
(47) ديوان المتنبي (233)
(48) ديوان المتنبي (2/265-266)

نفذ القضاء لما أردت كأنه لك كلّما أزمعتَ شيئاً أزمعا

وأطاعك الدهر العصيُّ كأنه عَبدٌ إذا ناديت لبى مسرعا

ولا عجب بعد ذلك كلّه أن تظهر قوة الممدوح في الإفناء والقتل والسيطرة مماثلة لقوة الزمان؛ إذ يقول في القصيدة السابقة:[49]

نَفْسٌ لها خُلُقُ الزمان لأنه مُفْني النفوس، مُفَرِّقٌ ما جَمَّعا

بل إنه لن يرضى من الدهر بما يجود به؛ وهمته لا تقبل برغبات الدهر ونوازعه، وإلا فأين طموحه وفضله عليه؟ إذ يقول:[50]

أين فضلي إذا قنعتُ من الدَّهْـ ـر بعيش مُعَجَّل التنكيد

ضاق صدري وطال في طلب الرز ق قيامي وقَلَّ عنه قُعودي

ومن ثم ينظر إلى الدهر نظرة غير محايدة باعتباره عدواً له يقاتله ويرميه بأحداثه وهو وحيد لا ناصر له، فيقول في مطلع قصيدة يمدح لها علي بن أحمد بن عامر:[51]

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً، وما قولي كذا ومعيَ الصبر

وأشجعُ مني كل يوم سَلامتي وما ثَبَتَتْ إلا وفي نفسها أمْرُ

فلم يكن بقاؤه إلا لأمر عظيم سيتجلى على يديه؛ لأن المصائب والحوادث لم تصبه فيقول متابعاً:

تمرّستُ بالآفات حتى تركتها تقول: أمات الموت أم ذُعر الذُّعْر!!

ولهذا فهو يجعل الدهر من أتباعه يسخّره لإنشاد شعره فيقول:[52]

وما الدهرُ إلا من رواة قلائدي إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمّراً وغنى به من لا يغنّي مُغَرّدا

2. صورة الحاكم والأمير والقائد:

إن إحصائية دقيقة للألفاظ التي تدور حول صورة الحاكم وقوته، أو الأمير والقائد السياسي والعسكري تؤكد أن فلسفة القوة تستند إلى الإرادات الثلاث من خلال مبدأ المراجعة الشاملة لعدد من

(49) ديوان المتنبي (264/2)
(50) ديوان المتنبي (320/1)
(51) ديوان المتنبي (148/2)
(52) ديوان المتنبي (290/1-291)

الصـور الشعرية القديمة والمعاصرة للمتنبي. فهو يعيد علينا أفكاره وصوره بأساليب قد تظهر للوهلة الأولـى أنها متماثلة مع غيره؛ بيد أنها تؤكد فرادتها من خلال استثارات مغايرة وفق استجابات ذاتية وموضـوعية تـبرز صـورة (الأنـا) عـند الشاعر؛ ولكنها (أنا) غير مريضة؛ بل تتّصف بالثبات والعزيمة والثقة بالذات.

ويمكنـنا فـي هـذا المجال أن نستجلب صورة ممدوحه كافور، وصورة الأمير الحمداني سـيف الدولـة. وفـي كلتيهما يضعنا أمام فلسفة تكشف عن مهارة عجيبة في إبراز ذاته، وتقديمها بأسلوب جمالي يؤدي وظائف كثيرة.

فهو يمدح كافور الإخشيدي بقوله:[53]

شـللتَ سـيوفاً علَّمـتْ كـلَّ خاطـب	علـى كُـلِّ عُـود كـيف يدعـو ويخطبُ
ويغنـيك عمّـا يَنْسُـب الـناس أنـه	إلـيك تـناهى المكـرمات وتُنْسـب
وأي قَبـيل يسـتحقك قَـدْره	مَعَـدُّ بـن عدنـان فـداك ويَعْـرُب
ومـا طربـي لمـا رأيـتك بدعـةً	لقـد كنـت أرجـو أن أراك فأطـرب

فهـو يؤكـد صفة القوة عند كافور حين يراه أنه أخذ البلاد بقوة السيف؛ ومن ثم صار كل خطيـب يخطـب باسـمه. فقد استغنى حين وصفه بالقوة عن نسبته إلى قبيلة من القبائل التي يفتخر الـناس بالانتسـاب إلـيها والتي تنتهي إلى عدنان أو يعرب؛ ثم انتهى في البيت الأخير إلى صورة مضحكة لهذا الممدوح الذي طرب المتنبي برؤيته وفرح.

وفـي ضوء هذه الصورة الشعرية نتذكر ما كان المتنبي يقول في كافور: ((لو قلبت مدحي فيه كان هجاءً))[54]

فهـو في البيت الأول يشي بأن الناس لم يذعنوا لـه طاعة ورغبة، وإنما أذعنوا له خوفاً ورهـبة، علـى حين ينفي عنه صفة النسب الأصيل، وهي صفة يعدها المتنبي جزءاً من فلسفة القوة إلى جانب صفة الإيمان بالله حيث يقول في مدح سيف الدولة:[55]

فأنـت حُسَـام المُلْـك والله ضـارب	وأنـت لـواء الديـن والله عـاقد
وأنـت أبـو الهـيجا ابـن حمـدانَ يابنَهُ	تشـابه مولـودٌ كـريمٌ ووالـد
وحمـدانُ حمـدونٌ، وحمـدون حـارثٌ	وحـارثُ لقمـانٌ، ولقمـان راشـد

(53) ديوان المتنبي (186/1).
(54) ديوان المتنبي (186/1).
(55) ديوان المتنبي (277/1).

أولـــئك أثـــياب الخلافـــة كلّهـــا وســـائر أمـــلاك الـــبلاد الـــزوائد

فالمتنبــي يرى في حسام سيف الدولة ما لم يره في حسام كافور؛ فسيف الدولة للمُلْك بمنزلة الحســام ولكنه لا يضرب به إلا تجسيداً لإرادة الله، باعتباره حاملاً لواء الدين الذي عُقد له لا لغيره. ومن ثم فقد رأى أن هذه المكارم متوارثة فهو يشبه أباه، وأبوه يشبه أباه إلى آخر الآباء.

وفــي هــذا المقــام لا ننســى أن فلسفته لقيمة النسب تعادل قيمة الثقة بالذات لديه كما في قوله:[56]

لا بقومــي شَــرُفْتُ بــل شــرفوا بــي وبنفســـي فخـــرت لا بجـــدودي
وبهــم فخــر كــل مــن نطــق الضــا د وعَــوْذ الجانــي وغَــوث الطــريد

ففــي هــذه القطعــة وأمثالها نستشعر قيمة الحساسية العالية وقد حقق منزلة متميزة في الحياة والشــعر، ما جعل الذات الشاعرية الواعية تتفجر بالتفاخر في إطار الهاجس الكوني الذي يبدد اليقين، ويهــدد الوجود فلمّا ربط ما هو عليه من مجد بما كان عليه آباؤه، وأجداده لم يكن يفكر تفكير القدماء بقــيمة النَّسب ووظائفها الاجتماعية فحسب وإنما كان حريصاً على جعل هذه القيمة الكبرى جزءاً من تجربــته الخاصــة باعتــبارها تجربة تؤكد الوجود الإنساني؛ فهي تجربة تعبّر عن أبعادها الواقعية الدقــيقة؛ ولا تصــدر إلا عن وعي المتنبي بحقائق الوسط الذي يعيش فيه. وهذا ما نجده في المقطع الآتــي؛ من قصيدة لــه؛ وفيه ينتشي بنشوة الخلق الإبداعي الذي يرد فيه على كل من يعبث بمكانته عند سيف الدولة.

فالمتنبــي لا يــتوانى عــن إظهار ثقته بنفسه وهو يمدح سيف الدولة ويحذر من بواعث الظن والوهم في إطار من الحكمة البديعة كما تبرزه قصائد عديدة له ومنها قوله:[57]

يــا أعــدل الــناس إلا فــي معاملتــي فــيك الخصــام وأنــت الخصــم والحكم
أُعــيذها نظــرات مــنك صــادقة أن تحســب الشــحم فيمــن شــحمه ورم
ومــا انــتفاع أخــي الدنــيا بــناظره إذا اســتوت عــنده الأنــوار والظُّلَــم

فسيف الدولة الموصوف بالعدل وكرم الفعال قد أخرج المتنبي من فضله؛ ولهذا فهو يشكوه إلى نفســه، ويســتدعي عليه حُكْمه العادل والصادر عن رؤية صائبة تميز بين الشحم والورم، أو السمن والصحة، وطالما عرف بصدق نظرته التي تفرق بين النور والظلمة.

---

(56) ديوان المتنبي (2/322-323)
(57) ديوان المتنبي (3/368)

ونكتفي بهذا لننتقل إلى صورة أخرى من تجليات فلسفة القوة والإرادة عنده ممثلة بصورة الحرب.

3. صورة الحرب وفلسفة القوة والإرادة:

يحتاج المجد العظيم إلى القوة، والقوة تحتاج إلى الشجاعة والحكمة والعمل الدؤوب والصبر والعزيمة، وتصبح أدوات القتال خيلاً وسيفاً ورمحاً وسهماً من مسلتزمات القوة وطبيعتها، وكلها مما يحوزه القائد الفارس في معاركه. ولعل هذا أكثر انطباقاً على قصائده التي مدح بها سيف الدولة ووصف معاركه فيها؛ وهي القصائد التي أطلق عليها تسمية (السيفيات). وفيها تظهر فلسفة القوة المادية والمعنوية بكل تجلياتها المعبرة عن الإرادات الثلاث إرادة الشعور وإرادة القوة وإرادة الحياة. ومن ثم تصبح تجليات صور القوة المتنوعة أساس وحدة القصيدة؛ وهو ما نراه في قصيدته المشهورة (على قَدْر أهل العزم)، فالقوة تطالعك من مطلعها حتى ختامها؛ ومنها قوله:[58]

علـى قَـدْر أهـل العـزم تأتـي العـزائم — وتأتـي علـى قـدر الكـرام المكـارم

وتعظُـمُ فـي عيـن الصـغير صـغارها — وتصـغُر فـي عيـن العظـيم العظـائم

يُكلِّـف سـيف الدولـة الجـيش همَّـه — وقـد عَجَـزت عـنه الجـيوش الخضـارم

ويطلـب عـند النـاس مـا عـند نفسـه — وذلـك مـا لا تدعـيه الضـراغم

يفـدّي أتـمُّ الطـير عُمْـراً سـلاحَهُ — نسـور الفـلا أحداثهـا والقشـاعم

ومـا ضَـرَّها خَلْـق بغـير مخالـب — وقـد خُلقـت أسـيافه والقوائـم

إن نظـرة عجلـى على صعيد الألفاظ والتراكيب والصور تثبت لك أن هذه المقدمة لا تعبّر إلا عن فلسفة القوة الذاتية والموضوعية. وحين تستجيب القراءة لقيم الدوافع المحركة للنص فإنها توقفك عـند قيم تعبيرية محكومة برمزية الصور الحسية التي تشي بصور ذهنية تؤكد القدرات الذاتية التي يمـتلكها المتنبـي، والقدرات الموضوعية التي يتصف بها سيف الدولة وجيشه. فهناك تعاون حقيقي فاعل بين العناصر المشتركة للصورة الحسية وبين التجربة والثقافة للمتنبي حتى أمكنه من أن يتلقاها بحاسـة واحدة كما نفيده من أرسطو في حديثه عن الوظائف الثلاث للحس المشترك، ولا سيما قوله: "إن كـان الإدراك بالبصر هو النظر إلى الشيء، والمنظور إليه لون أو كان له لون فالإنسان إذ نظر إلى المنظور فأول ما ينظر إلى لون، فاللون أول منظور إليه. وبهذا يستبين أن الإدراك بالبصر ليس هو شيئاً واحداً: لأنا قد نرى وإذا لم نر فنحن قاضون على الضوء والظلمة على نحو واحد"(51).

---

[58] ديوان المتنبي (3/378 وما بعدها)

وهذا يعني أن كل شيء إنما هو ناتج عن محسوس له موضوع ما في عضو خاص ــ وهنا هو البصر ــ ولكن حركته في النفس قد تأخذ بعداً آخر وفق نظرية الاستقبال المستندة إلى التأثير والتأثير ما يجعل إدراك العرض غير متطابق مع إدراك الجوهر، علماً أن الحس المشترك يدرك أشياء مجتمعة في وقت واحد. فاللون الأصفر لا يدل بالضرورة على أنه مر بالمطلق، والإجاز أن يدرك الحلو بالبصر.. ما يعني أن الحس المشترك يعيد صاحبه إلى تذكر ذلك كله.

وفي ضوء ما تقدم ندرك أن المتنبي قد أجاد[59].في تحقيق الاستجابة الفنية الدالة على حالات التعالي المؤكدة للانتصار، في الوقت الذي أحسن في التعبير عن قبح الهزيمة التي تعرض لها جيش الروم، فوصل في مرتبة الشعر إلى مرتبة الجميل الرائع في الحالين من خلال الحس المشترك بوساطة الإدراك العقلي الذي يمثل روح الجمال وماهيته كما انتهى إليه ولتر ستيس[60] وهذه هي صفات القوة في شعره.

وسأدع لك ، الوقوف عند الألفاظ الدالة على القوة، وتكرارها، واستثارة العقل على الموازنة بين الضعف الجبان، وبين القوي الشجاع؛ وكيف ينحاز المتنبي إلى سيف الدولة الذي استطاع ــ من خلال ما يحمل من طموحات وآمال عظيمة ــ أن يكون متفرداً في قدرته وشجاعته، وأعماله... فلا غرو بعد هذا أن تفديه الكواسر الجارحة بنفسها لأنه أراحها من طلب الطعام والسعي وراءه، بعد أن وفّره لها. ولعل هذه الصورة تستدعي لدينا صورة أخرى من القصيدة تنشلنا من مطب الرتابة والملل الذي نستشعره ونحن نقرأ بعض قصائد لشعراء آخرين في صفة المعارك. فالصورة عند المتنبي لا تحتفي فقط باللون والحجم والحركة، ولا تجعل الصورة مجرد رؤية واقعية لمشهد المعركة الذي يراه وإنما ينتقل إلى عناصر كثيرة تجمع بين الثقافة والخبرة للعديد من الظواهر الاجتماعية والفنية كما نجده في حديثه عن وصف قتلى الأعداء، إذ يقول:

نثرتَهم فوق الأُحيدب نثرةً كما نُثرتْ فوق العروس الدراهم

ومن قبل كان قد وضعنا في جو المعركة الطبيعية وفي حضنها وهو يرى حركة الخيل تزحف على بطونها كما تزحف الأراقم:

إذا زلَقتْ مشّيتَها ببطونها كما تتمشّى في الصّعيد الأراقم

[59] أرسطوطاليس في النفس ــ 64 –65 وانظر فيه 41- 46 و 62 – 67، وانظر كتاب أرسطوطاليس في الشعر 203.

[60] انظر معنى الجمال (نظرية في الاستطيقا) 73 و 83 و 85 ــ ترجمة إمام عبد الفتاح محمد ــ المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة ــ 2000م. وكتابنا التقابل الجمالي ــ 92 ــ93 ــ دار النمير ــ دمشق ــ 2005 .

لهـذا تخـتلف نسبة الإدراكات الحسية عند المتنبي عما نجدها عند غيره فهو يعمد إلى تصوير الإيقـاع الموسـيقي لـيدخل الصوت والجلبة في صميم اللون والحجم والحركة كما في صورة قلعة الحدث، إذ يقول:

هـل الحـدث الحمـراء تعـرف لونها وتعلـمُ أيُّ السَّـاقيين الغَمـائم
سـقتها الغمـام الغُـرُّ قـبل نـزولـه فلمـا دنـا مـنها سَـقَتْها الجماجم
بـناها فـأعلى والقـنا يقـرع القـنا وبـوح المـنايا حولهـا مـتلاطم
وكـان بهـا مـثلَ الجـنون فأصـبحت ومـن جثـث القـتلى علـيها تمـائم

هـنا تكمـن القيمة المهيمنة ليقينيات المتنبي المشبعة بنزوعها الوجداني، والمحمولة على واقع بطولي يؤكد ذاته في العديد من معارك سيف الدولة الذي علّق القتلى على جدران القلعة حتى سكنت الفتـنة؛ فجعـل جثـث القـتلى كالتمائم التي أذهبت عنها كل جنون. ومثل تلك الصورة المركبة في الصـور الحسـية المسـتندة إلى الحس المشترك نجدها في مقطع صفة جيش الروم بدلالته الرمزية. وهـي صـور لا تُعنَى إلا بالقوة والقدرة والإرادة ابتداء بكثرة السلام وعدده ونوعيته وانتهاء بعظمة الجيش عدداً وقدرة وثباتاً، ومنه:

أتـوك يجـرون الحديـد كـأنهم سـروا بجـياد مـا لهـنَّ قوائـم
إذا بـرقوا لـم تعـرف البـيض مـنهم ثـيابهم مـن مـثلها والعمـائم
خمـيس بشـرق الأرض والغـرب زحفُـه وفـي أذن الجـوزاء مـنه زمـازم

وهكـذا تسـتمر حـتى النهاية، ما يعني أن مكوّنات فلسفة القوة ذات اتجاهات متعددة وتجليات متـنوعة بمـا فـيها قـوة التخييل. فالتخييل يعد نمطاً جديداً يبرز عبقرية المتنبي في اختراع معانيه وصوره؛ ويثبت ذاتيته الفردية الخاصة التي تتميز بالانفعال الجمالي الجامع للبهاء والصدق، بمثل ما يثبـت إبداعـه الـرائع قـيمة الرونق والإثارة، وبخاصة حين وصف خيل سيف الدولة التي فاجأت الـروم، إذ لـم يشـعروا بهـا إلا مغيرة عليهم؛ تريهم قبح فعلها على الرغم من جمال شكلها، فهي متناهية في الحُسْن؛ إذ يقول:[61]

وخـيل بـراها الـركْضُ فـي كـل بلدة إذا عَرّسـت فـيها فلـيس تَقـيل
فلمّـا تجلّـى مـن دلُـوك وصَـنْجة علَـتْ كـلَّ طـود رايـة ورعـيل
فمَـا شـعروا حـتى رأوهـا مُغـيرةً قـباحاً وأمـا خَلقهـا فجمـيل

[61] ديوان المتنبي (3/100-101)

فالعلاقات الجديدة للصور والأفكار، واللغة والأساليب البلاغية الثرية ليست ذات اتجاه مباشر وأحادي في الوقت الذي تبتعد فيه عن الغموض والرمزية والتعقيد؛ وإنما تتجه إلى التخييل في شخصية البطل العسكري (سيف الدولة) لترسمه ــ وهو يخوض معاركه مع الروم ــ في صورة فنية دقيقة ومثيرة سواء من خلال وصف الخيل القادرة على الفعل، والمالكة لكل صفات الصبر والتحمل والبلاء في المعركة أم من خلال تشخيص صفات الممدوح البطل الذي يطارد الأعداء على اعتبار أنه بطل أسطوري من أبطال الملاحم الكبرى. وقد حقق لنا الشاعر ذلك كله من خلال عرض مشاهده المتابعة والمتركزة في مبدأ إرادة القوة أو إرادة الاختيار المعبر عن فلسفة عميقة، وفهم بديع لصفات ممدوحه. فحين عظم سيف الدولة وتميز بصفات القائد الحكيم الخبير بالمعارك وفنونها وتحلى الشاعر برؤية عقلية وفنية وحس متوقد وموهبة فذة استطاع أن يلتقط خياله جملة من المشاهد الدرامية التي امتلأت بالحركة والصراع، والإيقاع القوي للتعبير عن تلك الشخصية الفريدة. ومن ثم فالصورة قائمة على الطرافة من خلال تقنياتها الحسية والمتخيلة، ولا سيما حين شدّد على البنى اللغوية للصفات الدائرة في فلك الأسماء التي تمثّل النواة في الصورة، والمركز في الأسلوب. وليس هناك شك في أن الانطباعات البصرية والسمعية قد دخلت في تكوين الصورة الفنية والجمالية ولكنها انطباعات تكاملت مع عناصر أخرى عديدة كونت هذه الصورة ورفعتها إلى درجة عالية من الإمتاع والتأثير، وفق ما ذهب إليه بنديتو كروتشه[62].

وما وقع عليه شاعرنا يدل على قدرته النادرة في عرض مشاهد درامية تمتاز بالوحدة العضوية في استحضار صورة المعركة وكأنها ماثلة أمامنا، ولا سيما حين نقل لنا كل حركة ونأمة لم يغفل عن أي خط من خطوط لوحته.

ويظل سيف الدولة عند المتنبي النموذج البطولي المثالي لقوة الفارس التي تتجلى بأشكال فكرية ومادية متفردة ومتنوعة. فالغزوة التي رمى بها الروم لم تكن إلا بديهة خطرت له، ولكنها كانت جليلة وعظيمة، وإذا همّ بأمر أنفذه بجيش قوي حافل يقدم على الأعداء ويطؤهم بوطء ثقيل؛ وقد اقترن مع هذا الفعل الجميل تلبية أدوات القتال التي كان يصطنعها من سيوف ورماح وسهام لكل رغباته.

ومن ثم تتجلى في صوره الحربية ملامح فلسفة القوة لديه باعتبار ما تعبر عنه رؤيته الذاتية والموضوعية للإرادات الثلاث؛ فضلاً عن تفرده بصفات لا يمكن لأحد غيره أن يأتي بها أو ينجزها، كما نراه في قصيدته الآنفة الذكر، وفيها يقول ــ أيضاً ــ[63]

(62) انظر علم الجمال ص 24 ــ عرّبة نزيه الحكيم ــ وراجعه بديع الكسم ــ المطبعة الهاشمية ــ 1383هـ ــ 1963م.
(63) ديوان المتنبي (3/98-101)

وما قبل سيف الدولة اثّار عاشق ولا طُلبت عند الظلام ذحول
ولكنه يأتي بكل غريبة تروق على استغرابها وتهول
رمى الدرب بالجُرد الجياد إلى العدا وما علموا أن السهام خُيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مَرَحٌ من تحته وصهيل
وما هي إلا خَطْرة عَرَضت له بَحرّانَ لبّتها قناً ونُصول
هُمام إذا ما هَمَّ أمضى همومه بأرعن وطءُ الموت فيه ثقيل

ولعل التجربة الجمالية الجديدة لفلسفة القوة في رسم شخصية ممدوحه تستمد مادتها من الواقع الذي يراه الشاعر في هذا الممدوح دون غيره؛ إنه واقع يوحّد بين فلسفته وصفات ممدوحه. فلما عثر على رجل يمتاز بكل تجليات القوة وأنواعها، واكتملت في ذهنه صورة النموذج البطل استطاع أن يعبر عن ذلك في إنه الأصيل، والفن الحقيقي إنما هو إعادة صياغة للعالم من خلال وحدة الشعور والموضوع.

4. صورة المرأة ومفهوم القوة:

لم تغب فلسفة القوة عن رؤيته للمرأة سواء كان تصويرها له في معرض المقدمات الغزلية، أم المراثي، فكلتاهما تحمل صورة المرأة الممنعة القوية المترفعة.

وما تفرّد المتنبي في صوره الغزلية إلا انبثاق من إدارتها على المشاكلة بين المقدمات وبين الغرض الأساسي؛ حتى يستشعر المتلقي عظمة تلك المرأة بكل تجلياتها وكأنها مقدمة لعظمة ممدوحه في المدح، ومكانته الكبرى في الرثاء؛ على اعتبار العلّة والمعلول. ومن ثم فالمرأة القوية هي التي تسكن قلبه، على الرغم من أنها لا تنيله طلبه كما في قوله يمدح المغيث بن علي بن بشر العِجلي:[64]

دمع جرى فقضى في الرَّبْع ما وجبا لأهله وشفى أنَّى ولا كَربا
عُجْنا فأذهب ما أبقى الفراق لنا من العقول وما ردَّ الذي ذهبا

ثم قال:

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدُد له طُنبا
بيضاءَ تُطمِعُ فيما تحت حُلّتها وعَزَّ ذلك مطلوباً إذا طُلبا

---

[64] ديوان المتنبي (109/1-112) وانظر (123/2-125)

كأنها الشمس يُغْني كفُّ قابضه شعاعها ويراه الطَّرف مُقْترِبا

مرَّت بنا بين تربيها فقلت لها: من أينَ جانس هذا الشادنُ العَرَبا

فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يُرى ليثَ الشرى وهو من عجْلٍ إذا انتسبا

جاءت بأشجع من يُسمَى وأسمح من أعطى وأبلغ من أملَى ومن كتبا

سأترك الحديث هنا عن الصور البصرية التي رصفت رصفاً جمالياً مثيراً لتبث ما في نفسه من حيوية وقدرة؛ وسأترك تضافر العديد من الصور فيما بينها ولا سيما الصورة البصرية (حركة ولوناً وحجماً) وهي تتوهج بكل عناصر الجمال، ولا سيما حين تؤكد ذاتها بهذه النضارة المنبثقة من فوران الشباب عند تلك المرأة...

سأترك ذلك كله لأقف عند الدلالة الرمزية لحيوية الشباب التي منحت تلك المرأة سلطانها المؤثر والقوي وهي تتجاوز ساحة الحي دون أن تأبه لأحد، وهذا ما يميزها من غيرها.

ومن هنا يمكن للمرء أن يدرك المشاكلة بانتماء المرأة إلى بني عِجْل بممثل انتماء ممدوحه؛ ولهذا فلا يعقل أن يكون معرض الغزل بها للغزل الصريح، وإنما ليمثل حالة من مشاكلة قوة تلك المرأة وصفاتها الأخرى التي تفردت بها كما تفرّد ممدوحه بصفات معينة كالشجاعة والسماحة، والتوقّد. ولابأس أن نعيد النظر في قوله (فاستضحكت...) وهو البيت الذي يمثل جسر الانتقال إلى غرض المدح. فالمرأة التي مرّت بين مثيلاتها في السن قد شابهت ظبياً والظبي يشبه العَرَب، ثم يتكشف لنا أنه اختار من العرب بني عِجّل، ومنهم المرأة والممدوح الذي يُرى كأنه أسد[65].

وعلى الرغم من ندرة المقدمات الفنية الغزلية، ومقدمة الرحلة/ رحلة الظعائن؛ فإنها تتصل بملامح القوة سواء ارتبطت به أم بممدوحه. فهو يحدثنا عن امرأة قوية قاسية، وهي ــ في آن معاً ــ مكتملة الصفات المادية والمعنوية. وحين تعلق بها تركته سقيماً يقلقه السهاد ما جعله يبذل روحه لهـا، وهو راضٍ بذلك فلتفعل به ما تشاء؛ لأن البطل إذا صادته مثل هذه المرأة الحسناء فهو أهْل لما حلَّ به من الضنى فيقول:[66]

كُلُّ خُمصانة أرق من الخَمر بقلب أقسى من الجلمود

جَمَعَتْ بين جسم أحمدَ والسُّقْم وبين الجفون والتسهيد

هذه مهجتي لديك لحَيْني فانقصي من عذابها أو فزيدي

أهلُ ما بي من الضَّنَى بطلٌ صِيْد بتصفيف طُرَّة وبجيْد

[65] انظر مثلاً ديوان المتنبي (انظر مثلاً ــ (139/2) و207-210.

[66] ديوان المتنبي (1 /316-317) وانظر مثلاً آخر فيه (115/2-122)

ثم تمتزج صورة القوة بالمرأة، لأن المرأة تمثل المنعة والعزة ما يجعل المرء يركب كل أنواع المصاعب الكبرى ليصل إليها كما في قوله:[67]

عذيري من عَذارى من أمور ... سكنَّ جوانحي بدل الخدور

ومبتسمات هيجاوات عَصْر ... عن الأسياف ليس عن الثغور

ركبت مشمّراً قدمي إليها ... وكُلَّ عُذافر قلق الضُّفور

فالمتنبي يرى أن الأمور العظيمة قد سكنت قلبه واتخذته بيتاً لها وخدراً؛ كما تفعل النساء. ومن ثم فإذا تركنا الملابسة في لفظ (عذارى) بين دلالته على البنات الخادرات، وبين الخطوب الكبيرة فإننا لن نترك دلالة (مبتسمات هيجاوات...) فاللفظان يعطفان على (عذارى) ما يعني – مرة أخرى – أن العذارى المبتسمات يبتسمن هيجاوات عن بريق السيوف وليس عن الثغور... وتغدو المشاكلة متأصلة في ألفاظ عديدة بين المرأة والهيجا (الحرب) وكلّها تؤكد فلسفة القوة التي تتصف بها المرأة، وما تفرضه على الرجل من ركوب الأهوال إليها كما يركب كل قويّ من الإبل للوصول إلى ساحة المعركة.

وهناك أنموذج آخر من المشاكلة من التداخل في القوة بين المرأة وسيف الدولة ما يؤصل لتفرّد المرأة عنده وارتفاع مكانتها كما يظهر في بعض قصائده التي مدحه بها، وفيها تظهر المقدمة الغزلية جزءاً لا يتجزأ من المدح سواء في قصيدته ذات المطلع:[68]

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي ... وللحبّ ما لم يبق مني وما بقي

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ... ولكن مَنْ يبصر جفونكَ يعشق

أم في قصيدته الأخرى ومطلعها:[69]

ليالِيَّ بعد الظاعنين شُكول ... طوال وليل العاشقين طويل

يُبِنَّ لي البَدْر الذي لا أُريده ... ويُخفينَ بدراً ما إليه سبيل

وتنكشف صورة البدر عن حقيقتها، فهي ليست للمرأة الراحلة وإنما هي صورة سيف الدولة كما تبرزها القصيدة.

ولا بأس من أن نتأمل هذه المقدمة في شيء من الصبر لنربطها بالقسم الخاص بالمدح، أما إذا وقفنا عند شكلها الغزلي ولم ندرك ما وراءه من رموز دلالية قتلنا جمالية النص. فالشاعر مهموم بما

---

[67] ديوان المتنبي (2/141-142)
[68] ديوان المتنبي (2/304)
[69] ديوان المتنبي (3/95)

ابتلي به المسلمون على أيدي الروم؛ ويرى في عنف الليالي التي أخفت البدر الحقيقي معادلا رمزياً لهمه الذي يصبر على حمله لما يمتلكه من عزيمة وإرادة. ومن ثم ما يزل مترقباً ظهور البدر حتى يلقاه متمثلاً بسيف الدولة بدرب القلة عند ضوء الفجر فإذا به ينتصر له من الليل البهيم؛ بل إن الفجر ــ المرموز له بالممدوح ــ هو الذي قتل الليل ــ المرموز له بالهموم كما يقول:

وما عشت من بعد الأحبة سلوة ... ولكنني للنائبات حمول

لقيت بدرب القُلّة الفجر لقية ... شفت كمدي والليل فيه قتيل

ولهذا تظهر صورة البطولة صورة غريبة تبهر المتلقي وتثير إعجابه على غرابتها كما يقول في:

ولكنه يأتي بكل غريبة ... تروق على استغرابها وتهول

هكذا نستشعر أن صورة المرأة في شعر المتنبي تمثل فلسفة القوة لديه بكل رموزها المتضافرة مع الرؤى الاجتماعية والفكرية، وهي تتعاون في عالم الخيال مع مشاعره الروحانية الراقية التي تعتمد على الحس المشترك.

ونكتفي بهذه اللقطات السريعة لتجليات صورة القوة والإرادة بما يؤكد إعجابنا بالمتنبي؛ قدرة ونباهة، تفرداً وإدهاشاً على الصعيدين الشخصي والفني وفق ما يؤكده حديثه الغزلي في مقدمة قصيدة له يمدح بها سيف الدولة ويعتذر إليه ومنها:

أجاب دمعي وما الداعِي سوى طَلل ... دعا فلبّاه قبل الركْب والإبل

ظللتُ بين أصيحابي أكفكفُه ... وظل يسفَحُ بين العُذْر والعذل

وما صبابة مشتاق على أمل ... من اللقاء كمشتاق بلا أمل

متى تَزُرْ قومَ من تهوى زيارتها ... لا يتحفوك بغير البيض والأسَل

فهو في هذا المقطع يثبت تعذر زيارة محبوبته لما تتمتع به من المنعة والرفعة، ما يجعلنا ندرك دلالة سفحه للأعذار في البيت الثاني بدل الدمع، ويظل أصحابه يسفحون العذل.

وبناء على ما تقدم يمكننا أن نطمئن لوضع صورة القوة والإرادة في شعر المتنبي بين يدي المتلقي؛ وما عرضنا له يظل نماذج للتمثيل ليس غير. ونرى أن فلسفته تكمن في هواتف النفس الضاربة في جذور الإنسان وفهم طبيعته التي ينشدها. وقد يكون المتنبي مبالغاً في بعض تجلياتها، ولكنها تظل على الدوام تصرخ في الوجود معلنة أن الفن العظيم يتجاوز كل منطق للأعراف والتقاليد الفنية وغيرها، وهذا ما حققه لنا شاعرنا من منظوره الفلسفي وهو يحكي قصة الصراع الإنساني.

المصادر والمراجع

1 ـ الإحساس بالجمال ـ جورج سانتيانا ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوي والدكتور زكي نجيب محمود ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة.

2 ـ أرسطو طاليس في النفس ـ شرح وتحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ـ ودار القلم ـ بيروت.

3 ـ إشكالية المعرفة في الغنوزيووجيا ـ أحمد مبارك ـ مجلة الحياة الثقافية ـ وزارة الثقافة التونسية ـ العدد 90 ـ ك1/ ديسمبر 1997م.

4 ـ تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث ـ د. نعيم اليافي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ د/ت.

5 ـ التقابل الجمالي في النص القرآني ـ د. حسين جمعة ـ دار النمير ـ دمشق ـ 2005م.

6 ـ الحيوان للجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ المجمع العلمي العربي الإسلامي ـ بيروت ـ ط3 ـ 1969 م.

7 ـ دراسات فنية في الأدب العربي ـ د. عبد الكريم اليافي ـ ط1 ـ 1963م.

8 ـ ديـوان طرفة بن العبد ـ تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ 975.

9 ـ ديوان أبي الطيب المتنبي ـ شرح أبي البقاء العكبري ـ دار المعرفة ـ بيروت.

10 ـ ديوان ابن مقبل ـ تحقيق عزة حسن ـ دار الشرق العربي ـ بيروت ـ 1995م.

11 ـ الصورة الشعرية ونماذج إبداع أبي نواس ـ سياسية عساف ـ دار مارون عبود ـ 1985م.

12 ـ العاطفة والإبداع الشعري ـ د. عيسى علي العاكوب ـ دار الفكر ـ دمشق ـ 2002م /ط 1.

13 ـ علـم الجمال ـ بنديتو كروتشه ـ عرَّبه نزيه الحكيم ـ وراجعه بديع الكسم ـ المطبعة الهاشمية ـ 1383 هـ/ 1963م.

14 ـ قضايا الشعر المعاصر د. عز الدين إسماعيل ـ دار الدعوة والثقافة ـ بيروت ـ ط1981/3م.

15 ـ كتاب أرسطو طاليس في الشعر ـ تحقيق الدكتور شكري محمد عياد ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ 1387هـ / 1967م.

16 ـ مبادئ علم النفس العام ـ يوسف مراد ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط4.

17 ـ المعجـم الفلسفي ـ الدكتور جميل صليبا ـ دار الكتاب اللبناني/ بيروت، ودار الكتاب المصري/ القاهرة ـ 1979م.

18 ـ معـنى الجمـال (نظرية في الاستطيقا) ـ ولتر ستيس ـ ترجمة إمام عبد الفتاح محمد ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ـ 2000م.

19 ـ مقدمة في علم الجمال ـ أميرة حلمي مطر ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة.

20 ـ نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد ـ د. ألفة كمال الروبي ـ دار التنوير ـ لبنان ـ ط 1/ 1983م.

21 ـ نقد الشعر في المنظور النفسي ـ د. ريكان إبراهيم ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ 1989م.

من حلب إلى أصفهان
(عاصمات للثقافة الإسلامية)

أ . محمد قجة

***لم** يكن اختيار منظمة المؤتمر الإسلامي لمدينتي حلب وأصفهان عاصمتين للثقافة الإسلامية مصادفة ولا افتعالاً.*

ففي ضوء المعايير التي اعتمدت لاختيار المدن بعد مكة المكرمة كان الدور الثقافي والتراثي في المقام الأول. وفي هذا المجال تحتل أصفهان المرتبة الأولى خارج نطاق المدن العربية. ولو أحصينا عدد العلماء والأدباء والباحثين الذين ارتبط اسمهم بمدينة أصفهان لاقترب هذا العدد من مائتي اسم بعضهم كثير الشهرة مثل أبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، والعماد الأصفهاني المؤرخ والوزير للدولة الأيوبية، وعشرات المحدثين وعلماء الدين واللغة والأدب.

وفي هذا المجال تأتي مدينة "بغداد" متفوقة في نسبة الأعلام الذين نسبوا إليها ويحملون لقب "البغدادي" بينما تحتل "حلب" المنزلة الثالثة في هذا السياق متساوية مع مدينة الري فيمن يحمل لقب "الحلبي" أو "الرازي" بينما تبقى المرتبة الثانية لأصفهان.

ولكن هذا المعيار لم يكن كافياً وحده. وبتفسيره الحرفي.. بل إنه يشمل نوعية الفترات المتألقة. وفي هذا السياق تحتل مدينة حلب المرتبة الأولى منفردة بالبلاط الحمداني الباذخ أيام "سيف الدولة" الذي يقول فيه الثعالبي: "إن العلماء والأدباء والشعراء الذين اجتمعوا في حلب أيام سيف الدولة، لم يشهد أي بلاط لخليفة أو سلطان أو ملك أو أمير ما يماثلهم".

وبعضهم كان الأول في ميدانه على مرّ التاريخ الإسلامي:

الفارابي: الأول في الفلسفة والموسيقى.

المتنبي: الأول في الشعر العربي بصورة مطلقة.

الصنوبري: الأول في شعر الطبيعة.

ابن جني: الأول في خصائص اللغة.

أبو فراس الحمداني: الأول في فروسية الشعر.

الخوارزمي: صاحب المنطق والأدب والحكمة.

أبو علي الفارسي وابن خالويه وأبو الطيب اللغوي: وهم أوائل في علوم اللغة.

وقد أحصى الخالديان أكثر من عشرة آلاف بيت شعري قيلت في سيف الدولة.

إلى جانب ذلك ارتبط اسم كثير من الشعراء والأدباء بمدينة حلب على مر العصور، كالبحتري ومحبوبته علوة الحلبية، والمعري الذي كانت أمّه من بني سبيكة من حلب. وكتب حول هذه المدينة روائع مؤلفاته، مثل رسالة الغفران، والصاهل والشاحج. ويقول في رسالة الغفران إن الله تعالى اختار طباخين من حلب ليكونوا مسؤولين عن مطبخ الجنة، وذلك في الرحلة المتخيلة لعلي بن القارح الحلبي التي كتبها أبو العلاء المعري تحت عنوان "رسالة الغفران".

* * *

وكان معيار العمارة ماثلاً في الأذهان لاختيار المدينة التي تسمى عاصمة الثقافة الإسلامية. وفي هذا المجال تتفوق حلب على أصفهان وعلى غيرها من مدن العالم الإسلامي لتوفر شروط فيها لا تتوفر في سواها، وهذه الشروط هي:

1 ـ إن العمارة الإسلامية في حلب تشمل سائر الوظائف العمرانية: فالعمارة الدفاعية تمثلها القلعة والأبواب والأبراج والأسوار والأنفاق المحفورة تحت المدينة. وتتفرد قلعة حلب بأنها الأقدم في العالم 7000 ق. م بموجب اللقى الأثرية التي تم العثور عليها. كما أنها الأكبر داخل مدينة مع خندقها الدفاعي المحكم وشبكات الأنفاق تحتها وحولها، والدور التاريخي والسياسي والعسكري والثقافي الذي لعبته مدى عمرها، والعمارة الدينية ممثلة بالمساجد التي يزيد عددها على ألف مسجد في حلب الكبرى، والكنائس التي تزيد على خمسين كنيسة. وبعض هذه الجوامع يعود إلى القرن الهجري الأول: جامع الشعيبية في باب إنطاكية الذي يعود إلى عام 16هـ. والجامع الأموي الكبير الذي يعود إلى عام 98هـ، وهناك مساجد تمثل كافة العصور الإسلامية التي عرفتها حلب باختلاف طرازها المعماري من سلجوقية وزنكية وأيوبية ومملوكية وعثمانية وحديثة.

وفي حلب عدد من الزوايا والتكايا الصوفية تمثل الطرق الصوفية المختلفة من مولوية وقادرية ونقشبندية وشاذلية... الخ.

أمـا العمـارة المدنيّة فهـي تضم سائر حاجات الحياة اليومية من أسواق وخانات وقيساريات وحمّامات وبيمارستانات وحارات ودور مختلفة وقساطل وخانقاهات ومدارس..

وكـل هذه الوظائف المعمارية تراها في حلب بأعداد كبيرة. وبعضها تنفرد به حلب، كالأسواق المسـقوفة وعددها /39/ سوقاً تتمحور حول سوق مركزي مستقيم ممتد من باب إنطاكية حتى مدخل سوق الزرب أمام القلعة.

2 ـ وهـذا التمـيز بالوظـائف العمرانية يقابله تميز زمني، ففي مدينة حلب يطل التاريخ منذ الألـف العاشر قبل الميلاد في تنقيبات "تل القرامل". وفي حلب تتعانق الحضارات عبر آلاف السنين، ويـزيد عددهـا علـى ثلاثين حضارة من أبرزها السومرية والأكادية والعمورية والبابلية والآشورية والكلدانـية والحثـية والميتانـية والمصـرية والأخمينية والآرامية والهلنستية والرومانية والبيزنطية والممـالك العربـية قبل الإسلام، وصولاً إلى الحضارة الإسلامية التي استوعبت كل تلك الحضارات في ردائها السمح المرن المعترف بالآخر.

وخـلال العصـور الإسـلامية المتتابعة نجد في مدينة حلب نماذج عمرانية تعود إلى كل تلك المـراحل التـي عرفتها الدول المتتالية منذ العصر الراشدي حتى العصر الحديث مروراً بكل الدول التـي عرفـتها حلب والتي تركت كل منها بصمات عمرانية خاصة في المدينة. ولعل الفترة الأيوبية شهدت غنى في الحركة العمرانية، وكذلك الأمر بالنسبة للتطور الاقتصادي الواسع في مطلع العصر العثماني وما رافقه من عمارة ضرورية كالخانات والأسواق والقيساريات.

* * *

أمـا مديـنة أصفهان فهي من المدن القديمة في جمهورية إيران الإسلامية، وهي تتوسط إيران ويمـر بهـا نهر يدعى "زندروذ" ويسميه أهلها "نيل أصفهان" وعليه مجموعة من الجسور التاريخية الجميلة.

وكلمـة أصـفهان أو أصبهان فيها وجوه ومعان لعل أقربها "المعسكر" ويبدو أنها كانت مركزاً لتجمع الجند والفرسان فحملت هذا الاسم.

ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن أرض أصفهان صلبة، وتربتها لا تفسد فيها اللحوم، وهـي صـحيحة الهواء خالية من جميع الهوام. وهي من أعلام المدن وأعيانها ويسرفون في وصف عظمهـا حـتى يـتجاوزوا حـدّ الاقتصاد وحولها 16 رستاقاً، وكل رستاق /360/ قرية بين قديمة ومحدثة وقد فتحها المسلمون عام 19هـ صلحاً بموجب معاهدة وقّعها عبد الله بن عتبان.

ومـــن يومها تدخل أصفهان في نطاق التاريخ الإسلامي وتتعاقب عليها الأحداث والدول ويشهد العصـــر العباسي قيام الدول المستقلة أو شبه المستقلة في شرق العالم الإسلامي من غزنوية وسامانية وبويهية وسلجوقية ومغولية وصفوية وقاجارية. وصولاً إلى العصر الحديث.

وتحتفظ أصفهان بروائع معمارية من العصور الإسلامية التي تعاقبت عليها وبخاصة من الفترة السلجوقية وما بعدها.

ولكـــن أهمية العمارة الإسلامية في أصفهان تتجلى بروعتها وإبهارها في الفترة الصفوية حينما أصبحت أصفهان عاصمة الدولة الصفوية بعد سقوط "تبريز" بيد العثمانيين.

ويحلو لأهالي أصفهان وصف مدينتهم بأنها "نصف جيهان" أي صورة الدنيا.

وتتوســـط مديـــنة أصـــفهان ساحة هائلة تدعى "نقش جيهان" أي: صورة الدنيا، وقد أطلق عليها حديـــثاً تســـمية "مـــيدان الخمينـــي" وهذه الساحة الأسطورية تضم فعلاً صورة الدنيا بعمارتها الفنية المتنوعة من جوامع ومدارس وقصور وأسواق. ويحمل ذلك كله طابع الطراز المحلي من الزخارف والفسيفساء بألوانها المتناوبة بين الأبيض والأزرق.

ويقـــف جـــامع الإمام علماً معمارياً فريداً، وهو الجامع الأكبر في أصفهان، وجامع الشيخ لطف الله، والمئذنتان المتحركتان، وقصر علي قابو.

وتحـــيط بســـاحة "نقـــش جـــيهان" سلسلة الأسواق العجيبة المسقوفة والمكشوفة. وهي أسواق متخصصـــة تجـــد فيها المصوغات الذهبية والفضية، والنحاسيات، والخشبيات والأقمشة المزركشة، والأحجار الكريمة والسجاد الباهر الباذخ الذي لا يماثله أي سجاد في العالم.

والجولة في أسواق أصفهان تحملك فوراً إلى أسواق المدن الإسلامية القديمة فكأنك في حلب أو دمشق أو فاس أو تونس أو دلهي أو القاهرة القديمة. مع التميز في أسلوب البناء وزخارفه.

* * *

وإلـــى جانـــب معـــياري التراث الثقافي والعمارة... كانت هناك أسئلة حول الدور الاقتصادي للمدن. وفي هذا الإطار تشكل مدينة حلب أهم حلقة على طريق الحرير العالمي لوقوعها على مفترق طـــرق يـــربط شـــرق آســـيا بالأناضول ثم أوربا. ولوقوعها على مسافة متساوية تقريباً بين الفرات والـــبحر المتوســـط. حيث كان الفرات ممراً مائياً تجارياً للسفن القادمة من الخليج وكان ميناء "بالس" (مســـكنة حالـــياً) مرســـى للســـفن.. وتكمل القوافل طريقها إلى حلب على الجمال، ومنها إلى ميناء اسكندرون على المتوسط.

وهـذا مـا يفسـر الحجم الهائل للخانات التي كانت مستعدة لاستقبال القوافل المؤلفة من آلاف الجمـال دفعـة واحـدة. وكـان ما يباع في حلب في يوم واحد يحتاج إلى ثلاثة أشهر لكي يباع في القاهرة.

وتحـتفظ حلـب بخانات قديمة منها خان البنادقة الذي يعكس الاتفاقية التجارية التي وقعت عام 1207 بين الظاهر غازي الأيوبي ملك حلب ومندوب البنادقة "بيترومارينياني".

ولـيس غريـباً أن أوائل القنصليات الأجنبية أسست في حلب، وأول غرفة تجارية كانت فيها، وأوائـل المصارف، ورغم افتتاح قناة السويس عام 1869 وفقدان حلب جزءاً كبيراً من تجارتها إلا أنها احتفظت بمركز تجاري متميز خلال الفترات اللاحقة.

أما أصفهان فتلعب دوراً اقتصادياً بارزاً لوقوعها في مركز متوسط في إيران ولشهرتها الكبيرة فـي الصناعات التقليدية وبخاصة السجاد العجمي الفاخر، والصناعات النحاسية والخشبية والحريرية وصناعة الذهب والفضة. إلى جانب كونها مركزاً صناعياً وتجارياً هاماً في الوقت الحاضر.

* * *

وتتمـيز مديـنة حلـب باحتضانها للتراث الموسيقي بشقيه المشرقي والمغربي، فقد غدت حلب مركـز إشـعاع تلتقي عنده الدراسات الموسيقية. ويكتفي أن نذكر في هذا المجال قدوم الفارابي وفي وقت مبكر إلى حلب ليكون واسطة العقد في بلاط سيف الدولة الحمداني.

كمـا جـاء أصفهان أبو الفرج الأصفهاني يحمل كتابه "الأغاني"، وهو أهم كتاب من نوعه في تـاريخ الأدب العربي والغناء والموسيقى، وقد تخطى أبو الفرج الأصفهاني كل سلاطين عصره بمن فيهم خليفة بغداد واختار أن يأتي إلى حلب ليقدم كتابه إلى أميرها الجليل سيف الدولة.

كمـا جاء بعد ذلك بأكثر من قرنين المؤرخ والوزير العماد الأصفهاني ليكون واحداً من أركان الدولة الأيوبية في بلاد الشام ومصر.

وورثت حلب الموشح الأندلسي وطوّرته حتى غدا لدينا لون متميز اسمه الموشح الحلبي ونشأت عـن ذلـك القدود الحلبية الشهيرة. وتطور عن ذلك الغنى الفريد في الإنشاد الديني من خلال الزوايا الصـوفية والفـرق العديـدة المستمرة خلال القرون حتى يومنا هذا. وأصبحت حلب بذلك عاصمة الطـرب بجانبـيه الدينـي والوجداني. وخرج منها أعلام كبار أغنوا الساحة الموسيقية بتراث واسع لاحدود له.

* * *

وبناءً على هذه المعايير جميعاً وافق المؤتمر الإسلامي على اختيار كل من حلب وأصفهان عاصمتين للثقافة الإسلامية لعام 1427هـ ـ 2006، بعد أن تم اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية عام 2005.

وبذلك تكون كل من حلب وأصفهان قد جاءتا في المقام الثاني بعد مكة المكرمة. ويهدف هذا الموضوع أساساً إلى إبراز الوجه الحضاري المرن المتسامح للحضارة الإسلامية. وقد نصح المؤتمر الإسلامي بإجراء الاستعدادات اللازمة للاحتفالات التي تستمر عاماً كاملاً، وذلك بتشكيل اللجان المتخصصة، وتأمين الأموال اللازمة، ووضع البرامج للأنشطة المتعددة من ندوات ومحاضرات ومعارض ومطبوعات وحفلات فنية وتراثية وترميم المباني الأثرية ونشرات للتعريف بالمدينة صاحبة الاحتفال، ولوحات تعريفية وإعلانات تلفزيونية ومجلة خاصة، وتغطية إعلانية واسعة بالصحافة والإذاعة والتلفزيون واللقاءات الواسعة في المنتديات والمساجد والكنائس والجامعات والمدارس، وتنظيم زيارات للوفود المشاركة إلى المتاحف والأماكن الأثرية، وتنظيم مسابقات وأمسيات أدبية وشعرية وفنية ومسرحيات وأفلام سينمائية وتلفزيونية ووثائقية.

ومن المهم تنظيم حفل افتتاح ضخم يغطي عدداً كبيراً من الأنشطة الإعلامية والثقافية والفنية والمعروضات ودعوة أسماء بارزة من أنحاء العالم لحضور هذا الحفل.

* * *

إن هذه المناسبة الفريدة فرصة لا تتكرر. ومن واجبنا التصدي لكل المصاعب التي قد تعترض طريقنا في تنفيذ المشروعات والأنشطة المبرمجة مهما كان حجمها كبيراً ومحاورها متشعبة.

والسباق الجميل المشروع بين حلب وأصفهان سوف يحدد من منهما سيكون لها السبق المجلّي.

العد التنازلي

أيام قليلة وتنطلق احتفالات حلب المحروسة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 1427هـ ـ 2006م.

هذه المدينة العريقة التي عانقت صفحات التاريخ وهي تُطوى وتتجدد، والمدينة بشبابها الدائم لا يتسلل إليها الهرم، ولا يعرف الفناء طريقاً لها.

وإذا كانت كلمة "عاصمة" ترتبط في أذهان الناس بالمركز الأساسي فقط، فإن هذا الارتباط ليس دقيقاً، وفي كل دول العالم هناك مدن تتوزع الأدوار السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية

والسياحية، ولا يمكن اختصار دولة ما في مدينة واحدة وإهمال الباقي أو تهميشه أو إلغاؤه مهما كانت الظروف والأسباب.

وها هي حلب العظيمة.. شهباء المدن تنفض عن عينيها آثار السبات، وتستعيد أطرافها نسغ الحياة يسري في عروقها التي لم تتوقف يوماً عن النبض.

أيام قليلة... وتستقبل مدينة حلب وفوداً يمثلون العالم لتقدم من خلال وجهها الحضاري صورة المحبة والسلام والاعتراف بالآخر والدعوة إلى الموعظة الحسنة والإيمان بأن أكرم الناس عند الله أتقاهم وليس أبيضهم أو أسودهم أو أصفرهم أو من يجري في عروقه دم ملكي.

وتقدم حلب صورتها الجميلة.. وهي تحمل على كاهلها عشرة آلاف سنة من عمر الزمان، شيخة المدن وفيقة المدن، وحضارة المدن المثلى في إطارها الديموغرافي والديني والحضاري المرن الواسع المتسامح.

ورغم التحديات التي واجهت العمل، فقد تمكن فريق العمل ــ بعون الله ــ من تحقيق كثير من الأعمال في زمن قياسي وإمكانات قليلة ومصاعب شتى، وتجاوز الكثير من العقبات، والكثير من العصيّ في العجلات، مؤكداً أن الطاقة البشرية أهم من كل الطاقات الأخرى.

كانت التحديات تتمثل في قصر المدة المتاحة، وهكذا كنا في سباق مع الزمن. وكانت تتمثل في الإمكانات التي يجب أن تتوفر، وتوفر بعضها فقط. كما كان هناك تحدّ آخر هو أن مدينة "أصفهان" تنافسنا في كونها عاصمة الثقافة الإسلامية في المنطقة غير العربية للعالم نفسه.

ولست الآن في معرض تقديم برنامج أنشطة، فهذه البرامج متاحة في الصحف وفي الموقع المختار للاحتفالية على شبكة الانترنيت، ولكنني أود أن أقول: إن العمل لهذه المدينة العظيمة لا يزال في أوله، وليست القضية حفل افتتاح يدوم يوماً أو أسبوعاً إنما هو عام كامل من الأنشطة المتشعبة والمتباينة، وبالتالي فإن جميع أبناء حلب المحروسة ومحبيها وأصدقائها مدعوون للمشاركة في هذه المناسبة الجليلة، كل حسبما يختار ويتمكن. والأبواب مفتوحة لمن أراد أن يسهم بأي مشاركة أو نشاط أو اقتراح أو رأي أو نصيحة. والأمر ليس حكراً على أحد، إنما طريق المبادرة يتسع لجميع الراغبين في سلوك هذا الطريق، والوطن يتسع لجميع أبنائه، والجميع مدعوون أن يكونوا عاملين وفاعلين ومؤثرين وليس منظّرين من خلف زجاج المقاهي على طريقة "الذين لا يعملون يؤذي نفوسهم أن يعمل الآخرون".

* * *

إعطـــاء فرصــــة تاريخية لحلب ولسورية وللتاريخ الإسلامي، تأتي في وقت عصيب تحاول فيه قـــوى الغطرسة العالمية إحكام الحصار حولنا وتضييق عنق الزجاجة وحشرنا داخلها. ويأتي اختيار حلـــب عاصـــمة للثقافة الإسلامية ليقدم مساحة واسعة للحوار والتعريف بالذات والمواقف والماضي والحاضر والمستقبل.

ولهـــذا فإن الحدث أكبر بكثير مما يتصوره بعض الناظرين عن بعد، إنه أكبر بكثير من احتفالية مناسبة، أو أمسيات خاصة، أو مهرجان مرحلي.

لقد تمّ "وضع القطار على سكّته". والمطلوب منا جميعاً أن نبحث عن مزيد من الوقود والحركة لهـــذا القطـــار، وهو لا ينطلق وحده، ولا بدله من هيكلية مبرمجة فاعلة نشطة، ولابد له من محطات يلـــتقط فـــيها أنفاســـه اســـتعداداً لمحطات أخرى قادمة، ولابد من إزالة العصي التي قد توضع أمام عجلاته.

والمناســـبة لـــن تنتهي مع نهاية العام، فنحن نريدها فرصة لتحريك المياه الراكدة في المستنقع، واســـتداد خطوط الحياة في شتى الاتجاهات: ثقافياً وحضارياً وعمرانياً واقتصادياً واستراتيجياً، بحيث نـــنظر إلـــى المناســـبة على أنها استثمار حقيقي ينعكس إيجاباً على آفاق مستقبل مدينة حلب في كل المجـــالات، ويكون رافداً لكل فعالياتها، وباعثاً على مزيد من تحريك الأيدي العاملة، وتحسين صورة المدينة في بنيتها وأبنائها، ودفع عجلة المستقبل بوتيرة أسرع وأعمق.

* * *

ســـوف يكون يوم انطلاق الاحتفالات مناسبة لهذه المدينة لنفض الغبار واستعادة دوران الحياة، وســـوف تكـــون بـــاكورة الاحتفالات تدشين أعمال الترميم التي تمت في الجامع الأموي الكبير، هذا الصرح الحضاري المعماري الذي يلخص تاريخ الوجود الإسلامي في المدينة.

وسوف يقدم حفل الافتتاح صورة تاريخية عن حلب عمرها عشرة آلاف سنة، مع التركيز على فـــترات الازدهـــار الكبرى في ميادين الثقافة والاقتصاد، وفي مجال الدفاع عن النفس وصد العدوان الخارجي.

وهكذا سوف يبرز بلاط سيف الدولة بوهجه الثقافي ودوره الجهادي، كما تبرز المرحلة الأيوبية بشـــموخها العمرانـــي وريادتها في تحرير الأرض واستعادة الحقوق. ويبرز من ناحية أخرى مركز حلـــب الاقتصـــادي بيـــن القارات، ومكانتها الفنية العالية وهي صاحبة القدود والموشحات والطرب الأصيل.

* * *

حلب المحروسة تستقبل احتفالاتها الضخمة، والوفود التي سوف تصلها من أنحاء العالم، وتفتح ذراعيها مرحّبة بكل القادمين، وسوف تكون باكورة الأعمال الفكرية الندوة العلمية الدولية بعنوان: "الإسلام وحقوق الإنسان: حلب نموذجاً". لنقدم من خلالها صورة الإسلام السمح الذي يحاول بعضهم إلصاق التهم الظالمة المزيفة به وبتاريخه المستنير.

إنها دعوة لأبناء حلب جميعاً من مثقفين واقتصاديين ومن سائر المواطنين ليكونوا يداً واحداً في إنجاح هذا العمل وليطبقوا القول المبارك "اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون". وليس كما قال القوم الكسالى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون﴾.

* * *

مرحباً بكل وافد إلى احتفالات حلب الكبرى، مرحباً بكل مساهم ومشارك ومتعاون بفكره وعمله وماله ووقته وآرائه ونصائحه، ويبقى الوطن دائماً ملكاً لجميع أبنائه.

قراءة في الحصاد

قبل شهر ونصف الشهر انطلقت احتفالات حلب بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية بعد تحضيرات سريعة لم تتجاوز بضعة أشهر، وكان أمام الاحتفالية برامج تحتاج إلى سنوات من الإعداد، كما تحتاج إلى الأموال اللازمة، وإلى الجهد البشري الواسع المبرمج المخلص.

كان ذلك تحدياً على مستويات عدة وسباقاً مع الزمن القصير المتاح، ومع الإمكانات المقننة، ومع وضع العصي في العجلات، ومع التوقعات غير المحسوبة.....

وكان السؤال الكبير الذي طالما راود الأذهان: هل يتم الاعتذار عن الاحتفالية، وتغييب حلب المحروسة عن ساحة عريضة مديدة أقبلت إليها تسعى طواعية؟ أم يستمر التحدي على مستوياته كلها ويمضي البرنامج وفق ما أعد له من محاور ومفاصل واتجاهات؟.

وكانت هناك "أصفهان" عاصمة للثقافة الإسلامية في المنطقة غير العربية، وكانت هناك "مسقط" عاصمة للثقافة العربية لهذا العام، وفي العام الماضي كانت "مكة المكرمة" عاصمة أولى للثقافة الإسلامية.

ونظـرة أولية على البرامج التي وضعت لاحتفالية حلب بمناحيها الثقافية والفنية وما تشمله من ترمـيم مبان ومعارض ومهرجانات مسرح وسينما، وطباعة كتب، هذه النظرة التي تعطينا فكرة عن تفوق حجم هذه البرامج على كل البرامج التي قدمتها العواصم المذكورة الأخرى.

ولكـن القضـية ليست لمسة سحرية تتحول خلالها مدينة حلب إلى "المدينة الفاضلة" والوضع المثالـي.. فـتغدو بين ليلة وضحاها خالية من الحفر، متألقة النظافة، منتظمة المرور، وتضرب في سـاحاتها كـل يـوم طـبول الأفراح، وترقص الأسهم النارية، وتتخلص من كل ما فيها من عثرات وعيوب وأمراض.

هكذا فهم بعضهم الاحتفالية أو أرادوا إفهامها للناس، ولا يهم في هذا المجال حسن النية أو سوء النـية، فالفهم أساساً قاصر وغير موضوعي، ولا أريد أن أقول إن بعض أصحاب هذا الفهم ينطلقون من أحكام مسبقة مقررة متباينة الدوافع.

خـلال سـتة أسابيع من انطلاق فعاليات الاحتفال، أي حتى آخر شهر نيسان كان عدد الأنشطة التـي نفـذت في إطار برنامج الأمانة العامة للاحتفالية /112/ نشاطاً مختلفاً بين محاضرة ومعرض ونـدوة وحفـل فنـي و أمسـية ثقافية ولا يدخل في ذلك التغطية الإعلامية في الصحف والمجلات والإنترنت والإذاعة والتلفزيون.

وكـان مـن هذه الأنشطة ندوتان دوليتان: الأولى حول "الإسلام وحقوق الإنسان" والثانية حول "حلـب وحوار الحضارات" وقد حضرت عدة فضائيات عربية لتغطية الندوة الثانية وهي: الجزيرة، اقـرأ، الرسـالة إلى جانب التلفزيون السوري المحلي بقنواته الثلاث. ناهيك عن ندوتي "ابن خلدون" و"بلاد الشام في عصر الراشدين" في جامعة حلب.

وكتـب عـدد من الباحثين والزائرين انطباعهم بعد العودة إلى أوطانهم وهي انطباعات إيجابية جداً وموضوعية، ومن هؤلاء:

- يوسف زيدان من مصر.
- نجيب الغياني من المغرب.
- عبد الله العثيمين وحمد القاضي من السعودية.
- حسين شحادة من لبنان.
- جان جاك تيبون من فرنسا.

والنصوص التي كتبوها ونشروها موجودة لدينا.

وهـذا الـرقم الـذي ذكرته للأنشطة لا تدخل فيه كذلك الأنشطة المكثفة التي تجري في مركز المديـنة في ساحة سعد الله الجابري، حيث يمر عشرات الألوف يومياً، وهي أنشطة مبرمجة يشرف عليها فنيون وإداريون متخصصون.

* * *

أنـا لا أريد أن يتصور أحد أنني أقدم لوحة نموذجية كاملة الملامح ولا أريد أن أزعم أن النجاح كـان مطلقـاً وكبـيراً، ولكـن الأمـور تقاس بمعاييرها وتحسب بكل أبعادها وتفاصيلها ومقدماتها ونتائجها.

لقـد كانت هناك ثغرات وأخطاء وتقصير، وكانت محاولات لعرقلة البرامج، وكان هناك ارتباك في الإعلام أدى إلى قصور واضح في بعض المجالات، ولكن في الوقت نفسه، كانت هناك إلمامات إعلامـية في الصحافة والتلفزيون، وإن لم تكن كافية. وأعود فأقول: إن عامل الزمن كان عائقاً كبيراً في كل ما حدث.

وحيـنما تقاس الأمور بمعايير موضوعية فسوف نجد أن عناصر النجاح كانت أكبر من عناصر الإخفـاق، علـى المسـتوى الثقافي والفني. ولا تزال أمامنا سنة طويلة فيها ثمانية أشهر من البرامج المكثفة التي يجري إعدادها وإطلاقها في مواعيدها المحددة.

نحـن بعـد أسبوعين، على موعد من ندوة دولية كبيرة بعنوان "الحياة الفكرية والأدبية في بلاط سـيف الدولة الحمداني" وتتولى جامعة حلب ــ مشكورة ــ أمور رعاية هذه الندوة. كما كان لجامعة حلـب دور ريـادي فـي بـرامج الاحتفالية من ندوات وطباعة كتب ونشرات ومشاركة في اللجان المختلفة. وتبقى جامعة حلب ذلك الصرح العلمي العملاق الذي نعتز به أيما اعتزاز.

ويصـاحب هـذه الـندوة أمسيتان فنيتان هامتان: الأولى للمطرب الكبير صباح فخري، والثانية حـول أعمـال الفـنان الكبير صبري مدلل يقدمها المعهد العربي للموسيقى. مع استمرار المعارض والمحاضرات والأنشطة الفنية الأخرى وبرامج الساحات الكبرى.

ولابـد مـن الإشـارة هنا إلى ما تم إنجازه من طباعة الكتب المتصلة بمدينة حلب أو إهداء أو شرائها. وفي مخططنا أن يصل الرقم إلى مائة كتاب مع نهاية العام بإذن الله.

كمـا تـم الـبدء بالمشـروع الكبير لكشف السور حول باب إنطاكية وصولاً إلى باب قنسرين، والعمل جار في ترميم وإعادة تأهيل ثانوية المأمون.

* * *

إن الذي أستغربه هو سؤال يطرحه علينا بعض الناس، فيقولون:

ــ لماذا فشلت الاحتفالية؟!

وموضع استغرابي يكمن في صيغة السؤال الملغومة، وكان هناك حكماً مسبقاً بأن الاحتفالية فاشلة ويجري البحث في أسباب هذا الفشل.

وأنا أنصح هؤلاء الأخوة المتسائلين أن تكون صيغة السؤال على النحو التالي:

ــ هل نجحت الاحتفالية أم فشلت، وما هي نسبة النجاح أو الفشل؟

وبذلك نكون قد اقتربنا من الموضوعية، وابتعدنا عن التقارير المفبركة سلفاً في نفس يعقوب أو غير يعقوب. فنضع الأمور في نصابها، فنبارك النجاح حيثما يحصل، ونبحث عن أسباب الفشل أو الخطأ أو التقصير في محاولة لتداركها وليس للشماتة بأصحابها والسعي لإحباطهم وجعلهم يتراجعون عن حماسهم للعمل.

* * *

من جديد، ومرة ثانية وثالثة وعاشرة...... هذه حلب المحروسة، ملك لجميع أبنائها بغض النظر عن انتماءاتهم وأعراقهم ومذاهبهم، وملك للوطن والأمة والإنسانية. وإن هذه المناسبة فرصتنا الكبرى لإظهار وجه ثقافتنا الراقية ووحدتنا الوطنية، وفرصتنا لرص الصفوف، وتمتين جسور الثقة، والسعي لاستمرار البناء، واستثمار المناسبة لصناعة مستقبل أفضل ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وعمرانياً وحضارياً.

إن مقياس النجاح والفشل يكون بوضع موازين ومعايير وفق أسس منهجية وعلى ضوئها يتم حساب النتائج وتتم مساءلة القائمين على العمل، وإلا يكون الحال كما قال الشاعر العربي قديماً:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

المكتبات الخاصة
في حلب
مكتبة عبد الوهاب الصابوني (نموذجاً)

أحمد حسن الخميسي

***الكتب** كنز ثمين، تضم بين دفاتها العلوم والمعارف التي تثقف الإنسان وترقى به إلى المجد الذي يروم. وقد حرص أولو الألباب منذ القديم على اقتناء الكتب وجمعها في بيوتهم لتشكل مكتبة خاصة، يستفيدون منها وأهل بيتهم ومن يشاؤون من أقاربهم وأصدقائهم.*

ولقد عُرف أهل حلب من أمراء وعلماء وأدباء بحبهم للكتب وامتلاكها وقراءتها على مر العصور. وسنذكر ـ لاحقاً ـ بعض المكتبات الخاصة التي عرفت في القرون الأخيرة، ولا سيما في القرن العشرين، ثم نسلط الضوء الكاشف على مكتبة الأستاذ عبد الوهاب الصابوني الزاخرة بالكتب النفسية، لندرك ما لهذه المكتبة من قيمة أفادت صاحبها، ولا تزال تفيد الأجيال من بعده رحمه الله تعالى.

المكتبات الخاصة في حلب:

أشارت بعض كتب الأدب والتاريخ التي تحدثت عن حلب وأعلامها إلى أسماء مكتبات خاصة لعدد من العلماء والأعيان مثل: خزانة مصطفى آغا كتخدا، وخزانة محمد زكي بك حميد باشا، وخزانة مرعي باشا ملاح، ومكتبة أحمد بن طه الأشرفي، وخزانة جبرائيل دلال، ومكتبة محمود أفندي الجزار، وخزانة قسطاكي حمصي، وخزانة جرجس شلحت[1].

وكثرت المكتبات الخاصة في حلب في القرن العشرين، فمعظم أساتذة الجامعة في حلب يمتلكون مكتبات عامرة تتفاوت في حجمها بين مكتبة وأخرى.

---

(1) انظر: كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب. للغزي، وكتاب خزائن الكتب العربية. لفيليب طرزي، وكتاب الحركة الفكرية في حلب، لعائشة الدباغ. والحياة الفكرية في حلب، لفريد جحا.

وكذلك العلماء والأدباء، تكتظ غرف منازلهم بالكتب التخصصية والثقافية العامة. نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

الشاعر عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد الذي تعد مكتبته من المكتبات الغنية على مستوى الوطن العربي، والأستاذ خير الدين الأسدي، والدكتور نعيم اليافي، والأستاذ محمود فاخوري، والناقد محمد عزام، ومحمد خير حلواني والأديب عبد القادر عنداني، والباحث مختار فوزي النعال الذي تضم مكتبته كثيراً من المعاجم القرآنية والتراثية، والأستاذ عبد الوهاب الصابوني التي تعدّ نموذجاً للمكتبات الخاصة في حلب في القرن الرابع عشر الهجري والقرن العشرين الميلادي[2].

اهتمام عبد الوهاب الصابوني بالكتب:

ولد عبد الوهاب الصابوني في حلب سنة /1912/، ودرس فيها المراحل المتتابعة، وعندما كان في الإعدادية والثانوية تردد كثيراً على "دار الكتب الوطنية" للمطالعة ثم تخرج في دار المعلمين بدمشق، وأثناء ذلك اطلع على كنوز المكتبة الظاهرية، وفي عام 1944م سافر إلى القاهرة للدراسة، وتخرج من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (قسم اللغة العربية) سنة 1947م بتقدير جيد، وأتيح له خلال ذلك ارتياد المكتبات العامرة ولا سيما "دار الكتب المصرية" فنهل من نفائسها، وعب من رحيقها، ثم عاد إلى حلب حاملاً نفائس الكتب ونوادرها، وعمل مدرساً للغة العربية في حلب لسنوات طويلة، تمكن خلالها من أن يقوم برحلات إلى أوربة فاطلع على آدابها، وجمع بين التراث والمعاصرة. ألف عدة كتب طبع منها: قصة عصام، اللباب في النحو، شعراء ودواوين.....[3].

وقد تجلى اهتمام الصابوني بالكتب قراءة وشراء، وحفاظاً وتأليفاً، أما القراءة فقد رأينا أنه منذ أن كان طالباً يواظب على المكتبات العامة في حلب ودمشق والقاهرة، وما إن تخرج وأصبح لديه نقود يستطيع بها شراء الكتب حتى نراه يزور المكتبات في حلب يتابع الإصدارات الجديدة والقديمة ويشتري منها ما يلزمه من الكتب والمراجع حتى تكوّن لديه ــ على مر السنوات ــ مكتبة تضم حوالي /1300/ كتاب في جميع الفنون، وكان له اهتمام خاص بدواوين الشعر، ولبيان ذلك ننقل ما قاله في مقدمة كتاب "شعراء ودواوين":

"أولعت ــ منذ الصغر ــ بالشعر والشعراء، ورحت أتقصى أخبارهم، وأحفظ أشعارهم وأقتني دواوينهم، وكنت كلما وقع بصري ــ في السوق ــ على طبعة تفوق تلك الطبعة التي عندي منها،

---

[2] انظر مقال المكتبات في حلب والمشهد الثقافي. أحمد دوغان. صحيفة الجماهير الحلبية العدد /12002/ 4/ 1/ 2006م.

[3] انظر كتاب عبد الوهاب الصابوني. للأستاذ حسن بيضة. منشورات جامعة حلب 1407هـ / 1987م صفحة 9 ــ 10.

ابتعتها سريعاً، ورحت مغتبطاً بها مسروراً أقلب صفحاتها، أقارن وأصحح وأنقل وأستفيد: سرور يقصر عندي دونه كل سرور!!".

مكتبة عبد الوهاب الصابوني:

لقد تم اقتناء الكتب التي فيها من حلب ودمشق والقاهرة والعواصم الأوروبية التي زارها عبد الوهاب صابوني، فهي حصيلة انتقاء فريد ومتميز لإنسان خبير بالكتب وما فيها، وعاش حياته عاشقاً للكتب والمطالعة حتى غدت طعامه وشرابه، وعزف عن الزواج ليتفرغ للعلم والقراءة، وغدت مكتبته تضاهي كثيراً من المكتبات الخاصة في حلب، يعب منها ليل نهار، وفي العقد الأخير من حياته أوصى بمكتبته إلى كلية الآداب بجامعة حلب عام 1977م ولما توفي في 10/ 11/ 1986 م نقلت مكتبته بخزائنها الثمينة وما فيها من كتب قيمة إلى مبنى الجامعة، وعين الأستاذ حسن بيضة تلميذ الصابوني أميناً لها[4].

ولم يكتف الأستاذ الأديب عبد الوهاب الصابوني باقتناء الكتب وقراءتها، بل ألف كتابين عرّف بالكتب التي احتوتها مكتبته، الكتاب الأول: عيون المؤلفات والثاني دواوين وشعراء.

عيون المؤلفات:

لشدة حب الصابوني للكتب كان يطلع عليها، ويسجل في دفتره تعريفاً لكل كتاب فيها، واستمر على ذلك سنوات حتى تكون لديه كتاب جامع لأمهات الكتب، وكان يعود إليه بين حين وآخر معدلاً ومصنفاً ومنقحاً، ولقد بلغ هذا الكتاب ثلاثة أجزاء في ألف وخمسين صفحة، وهو يشتمل على اثنين وثلاثين باباً من أبواب المعرفة، الجزء الأول يشتمل على ستة عشر باباً وفيه ما يلي (كتب ورجال، تراجم، تراجم الفلاسفة والأطباء والعلماء، التراجم الخاصة، الشعراء، النحاة، أندلسيات، المعاجم، معاجم البلدان، الملل والنحل، الصرف والنحو، البلاغة، التفاسير، بحوث في القرآن، النقد، الفنون).

والجزء الثاني يشتمل على أحد عشر باباً وفيه: (اللغة، الحكم والأمثال، المعرب، الموسوعات، المجاميع، الأدب، تاريخ الأدب، التاريخ، تاريخ الحضارة، الاجتماعيات، الجغرافيا، الفلسفة).

أما الجزء الثالث فهو يضم خمسة أبواب وفيها (تاريخ الفلسفة، التصوف، العلوم، تاريخ العلوم، الطب والأمراض، الكتب المقدسة).

واتبع في التعريف بالكتب منهجاً واضحاً، فهو يذكر اسم الكتاب، ويبين قيمته وموضوعه، ويشير إلى مضامينه ومنهجه، والسنة التي صدر فيها والجهة التي أصدرته، واسم المحقق إن وجد، وكل كتاب يذكره في باب، فإذا تضمن أكثر من موضوع يذكره في باب آخر.

---

(4) انظر: عبد الوهاب الصابوني. مرجع سابق. صفحة 11.

إن الصابوني لم يكن يسعى لإصدار ما كتبه في كتاب، وبعد أن مات بعدة سنوات جاء الأستاذ المربي محمود فاخوري، وحقق الكتاب وأخرجه إلى النور.

صدر الجزء الأول عام /1992/م وصدر الجزء الثاني والثالث عام 1994م عن معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب.

إن المطلع على الكتاب يتعرف على مكتبة عبد الوهاب الصابوني عن قرب، ويدرك كم من الجهد بذله الصابوني في إعداد هذه المكتبة والاطلاع على ما فيها من كتب.

شعراء ودواوين:

ولشغف الأستاذ عبد الوهاب الصابوني بالشعر والشعراء، لم يتحدث عن دواوين الشعراء في كتابه السابق بل خص الدواوين بكتاب ألفه هو "شعراء ودواوين" تضمن هذا الكتاب كل ما تحتويه مكتبته من دواوين للشعراء حيث رتبها حسب سني وفاة أصحابها، وكتب عن كل ديوان كلمة تعرف به وبالشاعر ثم أتبع ذلك بالمراجع التي ترجمت للشاعر وأضاف مراجع لشراح الدواوين وعن الذين جمعوا مختارات من الشعر، وفي تعريفه بالشاعر ذكر اسمه وتفسيراً لاشتقاق اسمه ومعناه، ولإكمال الفائدة اختار أقوال العلماء والباحثين في الأدب والشعر جمعها في آخر الكتاب، وأنهى الكتاب بخمسة فهارس، الأول لدواوين الشعراء، والثاني للآراء والنظرات، والثالث للكتب، والرابع للأعلام والخامس للمراجع، يقع هذا الكتاب في 359 صفحة، ونشرته مكتبة دار الشرق في بيروت سنة 1978م.

تحية وتقدير:

وفي الختام نحيي الأستاذ عبد الوهاب الصابوني التي أهدى مكتبته بعد وفاته إلى كلية الآداب في جامعة حلب لينهل منها الباحثون والطلاب على مر العصور.

ونقدر له تقديراً عالياً تلك العناية الفائقة بالكتب مطالعة وتأليفاً وحفظاً وتصنيفاً وتعريفاً، ونتمنى من كل أرباب الفكر والعلم والأدب أن يحذوا حذوه، فقد ترك بعده ـ رحمه الله ـ علماً يُنتفع به!!

الجالية الأرمنية في حلب ونشاطاتها

د.الكسندر كشيشيان(*)

مقدمة لهذا البحث المقال البليغ الذي كتبه عميد وشيخ الصحافة الحلبية خير شكري كنيدر في العدد 186 من جريدته "التقدم" لعام 1911 تحت عنوان:

"المسلمون والمسيحيون في حلب"

((امتازت حلب على أكثر أخواتها في البلاد، إذا لم نقل كلها. بما بين أهليها على اختلاف أديانهم من الألفة والمودة والتمازج والاتفاق وقلما يحدث بينهم شيء من التنافر التخاصم يكون منشؤه التعصب والبغض الديني حتى إنك لتجد الرجل المسلم من الأصدقاء والخلان والعشراء المسيحيين أكثر مما له منهم بين أبناء دينه وكذلك المسيحي. وليست هذه المودة حديثة وجدت بعد الدستور الداعي إلى الإخاء والمساواة بل هي قديمة العهد ثابتة الدعائم من قبل ذلك. وقد كنا نعجب حين نسمع بأنباء الخصومات والمنازعات التعصبية والحوادث السيئة التي كانت تقع في البلاد السورية وخاصة بيروت ونحمد الله على ما نحن فيه من الغبطة والصفاء. ولقد رأى أهل بيروت عجباً حين شاهدوا وقت إعلان الدستور شيخاً وقسيساً يتصافحان وقد ملأ كتبتهم يومئذ الصحف في الكلام على هذا الأمر الغريب وعدوها أعجوبة باهرة ونعمة عظمى وآية كبرى. أما هنا فقد تعجب القوم من تعجب جيرانهم لأننا اعتدنا أن نرى دائماً الشيخ والقسيس يتصافحان.. وآثار المحبة والائتلاف بين أصحاب الأديان المختلفة في الشهباء تظهر بأحسن مظاهرها في الأوقات الصعبة والمواقف الحرجة. وإذا بحثنا عن أسباب تآلف المسلمين والمسيحيين في هذه المدينة لا تجد من سبب غير ما طبع عليه الأهالي عموماً من كرم الخلق ولين العريكة ورقة الجانب. فإنه ليس من

(*) عضو اتحاد الكتاب العرب، وعضو مجلس إدارة جمعية العاديات.

تكافؤ ليحصل التوازن وعدد المسلمين أضعاف عند المسيحيين والكثرة تقتضي الأثرة واستضعاف القلة وليس شيء من ذلك في حلب. فليس إذاً لتلك الصداقة من سبب إلا ما ذكرناه من سهولة الطباع وصفاء القلوب. وكل من أقام بينهم من الغرباء يشهد لهم بفرط الأنس ورقة الحاشية وكثرة اللطف حتى لقد يحسب الغريب اللطف ضعفاً ويظن الرقة تذللاً ويحمل الإكرام على الضعة والخمول. فعلى العقلاء أن يحرصوا ما استطاعوا على هذه الحالة التي تغبط حلب عليها أكثر المدن وأن يعملوا جهدهم على زيادة التآلف والتمازج وينتبهوا لأقل ما يوجب التنافر والتنازع)).

آراء حول الأرمن

بسم الله الرحمن الرحيم

(1)من الحسين بن علي ملك البلاد العربية وشريف مكة وأميرها إلى الأمراء الأجلاء الأماجد فيصل والأمير عبد العزيز الجربا. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فقد صدرت الأحرف من أم القرى بتاريخ 18 رجب 1336هـ نحمد الله الذي لا إله إلا هو ثم نصلي ونسلّم على نبيه وآله وصحبه وسلم... وإن المرغوب بتحريره المحافظة على كل من تخلف بأطرافكم وجهاتكم وبين عشائركم من الطائفة الأرمنية اليعقوبية (تساعدوهم) على كل أمورهم وتحافظون عليهم كما تحافظون على أنفسكم وأموالكم وأبنائكم وتسهلون كل ما يحتاجون إليه في إقامتهم فإنهم أهل ذمة المسلمين والذي قال فيهم صلوات الله عليه وسلامه: "من شيمكم وهممكم" والله يتولانا وإياكم بتوفيقه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(2)يستشهد العلامة الشيخ كامل الغزي بنشاط الأرمن في بداية هجرتهم إلى حلب بعد الحرب العالمية الأولى 1915-1923 بالتعابير التالية: ((نورد في هذا الاستطراد بعض ما وقفنا عليه من الأحوال الروحية والتقاليد القومية التي سارت على سننها الهيئة الاجتماعية في الطائفة الأرمنية التي مضى على مجاورتنا إياها بضع سنوات، فقد هاجرت إلى حلب بعد الحرب العالمية وقد أصبح فيها منهم العدد الكبير الذي يقدر بستين ألف نسمة فنقول: الأرمن مهما اختلفت أجناسهم وتباينت أقطارهم أمة نشيطة جدية عاملة وهي ثابتة في مقاصدها وقوية الإرادة في منازعها تمارس من صعاب الأمور ما يعجز عنه غيرها من أمم الشرق ولا تعتمد إلا على نفسها ولا يعوقها عائق في سبيل غاية تطلبها. ترى كل فرد من أفرادها ذكراً كان أم أنثى وكبيراً كان أم صغيراً منكباً على عمله مهرولاً إلى حانوته مبكراً لمزاولة مهنته التي ارتضاها له قوة جسمه وسعة مداركه فمنهم التجار بأنواع البضائع الشرقية والغربية ومنهم الصيدلي والطبيب والمحامي والمهندس والصراف والخادم والكاتب والميكانيكي والخياط والحائك والنجار والحداد والمعمار والطاهي واللحام وصاحب المقهى والنزل

وبائع الخضر والبقول وغير ذلك من المهن التي لا تخلو واحدة منها شريفة كانت أم منحطة إلا والمشتغلون بها من الأرمن عدد كبير يزاولونها باعتناء وإتقان لا مزيد عليهما. كل فرد من أمة الأرمن ذكراً كان أم أنثى لا يرضى أن يكون عاطلاً في العمل متقاعداً عن الاحتراف لذا لا ترى منهم متسولاً ولا متشرداً ولا من هو عالة على غيره سوى من أعجزته العاهات عن النهوض بعمل ما كالأيتام الذين ليس لهم مال ولا أولياء ينفقون عليهم فإن هؤلاء تكفلت بإعاشتهم الجمعيات الخيرية الأرمنية المؤلفة في حلب وغيرها من بلاد أميركا وأوروبا ففتحت لهم دور العجزة والأيتام والمدارس وأغنتهم عن الحاجة إلى غيرهم وعنيت بأمورهم أحسن عناية)).

الشيخ كامل الغزي (نهر الذهب في تاريخ حلب) الجزء – 3، صفحة 428–429.

(3)جاء في العدد 398 لعام 1913 من جريدة "التقدم" تحت عنوان "الأرمن" ما يلي:

((.. أول ما يدعو إلى الاعتبار من مزايا الأمة الأرمنية عنايتها بلغتها ومحافظتها عليها أشد المحافظة مدة أجيال طويلة مع ما نال المتكلمين بها من الاضطهادات العنيفة والمصائب والآفات.. فالأرمني أول ما يعلم ولده اللغة الأرمنية تعليماً وافياً مهما كانت حالته، يبذل في سبيل ذلك ما عز لديه، فترى الأرمن المقيمين بحلب منذ أجيال كثيرة يتقنون جميعهم اللغة الأرمنية عدا اللغات الأخرى.. ولا يخفى أن تعلم اللغة وإتقانها والعناية بها تنتج الميل إلى العلم وتستلزم الاطلاع على المعارف المختلفة لذا ترى الأرمن متقدمين في العلم والمعرفة وقد أحرزوا قسطاً وافراً من التهذيب والتثقيف على تأخر البيئة التي يعيشون فيها وقلة ما وصل إليها من أنوار المدنية. وكثيراً ما نشاهد الأرمني الخادم يطالع الجريدة في المطبخ كل ما سنحت له الفرصة وهو يوفر من راتبه القليل ما يمكنه من الاشتراك في الجرائد واشتراء الكتب في حين تجد السيد الكبير عندنا غير ميال إلى المطالعة.. وقد امتاز الأرمن بالذكاء والنشاط وكثر بينهم النابغون في المطالب المختلفة وحسبك بمن يقيم في حلب على قلة عددهم مثالاً. فأشهر الأطباء في هذه المدينة اليوم أرمني وأفقه المحامين أرمني وأمهر المصورين والخياطين والصيّاغ وأرباب غير ذلك من الحرف والصنائع من الأرمن. ومن مزاياهم الجرأة والبسالة والإقدام ورباطة الجأش والصبر والثبات. وناهيك أنهم على شدة الاضطهاد الذي وقع عليهم ومع كل ما أهرق من دمائهم لم ينثنوا عن مبادئهم وظلوا يؤلفون الجمعيات الثورية ويجاهدون في سبيل الحرية.

(4)جاء في العدد 4693 لعام 1937 من جريدة "التقدم" أيضاً تحت عنوان:

((موقف الأرمن من قضية اللواء:

مرات كثيرة أظهر فيها الشعب الأرمني ولاءه وإخلاصه للوطن السوري واستعداده للنضال إلى جانب الشعب العربي في سبيل استقلاله وسعادته. ولا غرو فمقدراتنا واحدة ومصالحنا مشتركة ولكن يظهر أن الفكرة العربية الشاملة قد غزت أخيراً الشعب الأرمني.. ولقد اطلعت منذ أيام قلائل على رسالة وردت من أحد هؤلاء الشباب في جبل موسى إلى أمانة سر "العصبة" في أنطاكية وأنا أورد فيما يلي تعريب بعض فقرات منها: "يجب أن نجاهد ليس فقط في سبيل الشعب العربي والأرمني، ولكن خصوصاً في سبيل الاستقلال ووحدة كل البلاد العربية مثلنا الأعلى – ليس من يستطيع التفريق بيننا في نضالنا لأجل العدالة وخير الجماهير الشعبية العربية التي لم تتحرر بعد من الاستعماريين. إخوتي يعتبرونكم رفاقاً لهم وهم يحيون رفاق جبهتنا المكينة "عصبة العمل القومي" وزعيمها زكي الأرسوزي". ونحن نحيي في الشعب الأرمني هذه العاطفة الكريمة.. ويسرنا أن نشير بهذه المناسبة إلى الجهود الطيبة التي يبذلها في هذا السبيل الزعيم الأرمني الدكتور ماتوسيان لموقفه النبيل من القضية العربية". وهناك مقالات مماثلة عديدة أخرى في الجريدة.

الهجرات ونشوء الجالية الأرمنية في حلب والبلاد السورية

تعود العلاقات المتعددة الوجوه بين أرمينيا الكبرى وسوريا إلى قرون طويلة خلت بدءاً من القرن الأول قبل الميلاد ولا تزال العلاقات الحميمية بين الشعبين الجارين مستمرة حتى يومنا هذا. لقد كان أول احتكاك بين الشعبين أثناء الحكم الأرمني على سوريا في عهد الملك ديكران الملقب بالكبير الذي بقي في ربوعها مدة 16 سنة فقط بدءاً من عام 83ق.م برجاء من سكانها. وإلى جانب العلاقات السياسية تطورت العلاقات الدينية والثقافية بين البلدين وكان السريان أول المبشرين الذين نشروا المسيحية في المناطق الجنوبية لأرمينيا بين القرنين 2–3م ودرس شبان أرمن عديدون في مدارس سوريا المشهورة وتعلموا اللغة السريانية وترجموا أمهات الكتب السريانية واليونانية والفارسية إلى اللغة الأرمنية. وبعد هذه الحملة لا نعتقد بوصول الأرمن إلى سوريا والتمركز فيها حتى القرن 4م ولا نملك أية أدلة أو وثائق أو شواهد مادية حول وجود رجال دين أرمن في القدس الشريف وخاصة أن الحاجة الغربية Sylvia لا تذكر شيئاً في مذكراتها في عام 375م حول وجود أديرة أو كنائس أو رجال دين أرمن في بيت المقدس عند تكلمها عن الجاليات السريانية واليونانية واللاتينية.

Peregringtio Silviae R. P. Don Fermand Cabrol, Paris-1895

مع ذلك من المؤكد في الوقت ذاته بأن الأرمن شرعوا بزيارة الأراضي المقدسة بدءاً من نهايات القرن 6م أو بدايات القرن 7م عبر مدينة حلب التاريخية في وقت سادت العقيدة المسيحية في جميع أرجاء أرمينيا الكبرى ولا تنقصنا أدلة مادية من أديرة وكنائس تعود إلى هذه الفترة لتثبيت

فكرتنا. ومنذ هذا القرن اتجه رهبان أرمن عبر أنطاكية وحلب إلى بيت المقدس لغرض الحج أولاً ثم للتأكد من إمكانية نقل الكنيسة الأرمنية إلى مهد السيد المسيح وكان الفلاح من نصيب هؤلاء التقاة. وتطورت حركة الحج بين أرمينيا وفلسطين وتأسست الكنائس والأديرة والجاليات الأرمنية في القدس وبيت لحم مع مرور الزمن وكانت حلب الواقعة على طريق الحج أكبر المدن وأكثرها سكاناً ومعقلاً قوياً للمسيحية في هذه الحقبة فتحولت إلى محطة رئيسية لمبيت قوافل الحجاج الأرمن قبل أن تكون إحدى مراكز الكنيسة الأرمنية وتتشكل في ربوعها جالية كبيرة. لذلك وقبل أن تصبح مركزاً دينياً – استيطانياً للأرمن كانت المدينة محطة روحية أمام الأعداد الغفيرة من الحجاج المتجهين إلى فلسطين من مناطق أرمينيا الكبرى المختلفة. استوطن رهبان أرمن عديدون في الأراضي المقدسة وحازوا على امتيازات وعهود أمان من الدولة العربية الإسلامية الناشئة وخاصة من الرسول محمد(ص) والخليفة الراشدي عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي، وهم يتمتعون بها حتى يومنا هذا، لبناء أديرة وكنائس لهم في القدس وبيت لحم فعظم بالتالي عدد الحجاج في القرون التالية واتخذوا حلب المزدهرة بشكل رئيسي ملاذاً آمناً ومريحاً على طريق الحج. ورغم الجزم بمرور قوافل عديدة من الحجاج عبر المدينة بعد القرن 9م لكننا لا نعثر على مصادر كتابية أو مادية حول امتلاك الأرمن لأديرة أو كنائس في حلب أو وجود جالية أرمنية منظمة فيها والاحتمال وارد جداً بأنهم كانوا يبيتون في نزل و بيوت قرب الكنائس السريانية واليونانية. واستمر الحال على ذلك حتى تأسس أول "هوكيدون" نزل للحجاج في عام 1624 (هوكيدون كلمة أرمنية مركبة مؤلفة من hoki=روح وdun =بيت أي بيت الروح) وشيدت نزل مماثلة لاحقاً في اللاذقية وبيروت ودمشق تبرع بتشييدها التجار الأرمن لراحة الحجاج وتخليداً لروح وذكرى ذويهم. ولكن ومع الأسف وكعادتنا في تخريب تاريخ بلادنا بجهالة فقد تحول هوكيدون حلب إلى "سوق نسوان" وطمست الكتابات الأرمنية المنقورة على نجفات أبواب الغرف وتواريخها فالأمل كبير أن تنتبه السلطات الرسمية الأثرية إلى ذلك لأن الصرح جزء لا يتجزأ من ذاكرة "حلب عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2006".

أدى تبدل الأحوال السياسية والاجتماعية في أرمينيا الكبرى لاحقاً إلى هجرة الأرمن إلى سوريا وبدأت تتشكل الجالية الأرمنية في ربوعها. وخير دليل على ذلك الترجمة الفرنسية لنص سرياني تاريخي أرسلها بطريرك السريان في حمص العلامة مار أغناطيوس أفرام في عام 1933 إلى مطران الأرمن أردافازد سورمايان في حلب حول بوادر وصول هؤلاء الأرمن قائلاً: ((.. نريد التأكيد لمحبي المعرفة بأن الأرمن دخلوا إلى سوريا وشغلوا كنائسنا وأديرتنا وقرانا في عهد بطريركنا المار أثاناسيوس الثالث الذي اتفق معهم في منازكرد في عام 1037 للتأريخ اليوناني= 726م. ولأن الفرس كانوا قد أزالوا مملكتهم في ذلك الوقت نزلت أعداد كبيرة منهم إلى سوريا. وعندما رأى البطريرك أثاناسيوس بأن الأرمن شرعوا ينضمون إلى الخلقيدونيين أو اليوليانيين

بسبب عدم وجود أساقفة أو خوارنة أرمن كتب إلى الكاثوليكوس الأرمني Hovhannes فأرسل له ثلاثة أساقفة إلى سوريا لرعاية شؤونهم. وقد قدم بطريركنا ديراً للكاثوليكوس على الحدود الأرمنية -السورية وتم قبول طلاب سريان وأرمن لتعلم اللغتين فقام الطلاب الأرمن بترجمة كتب الآباء السريان إلى اللغة الأرمنية..)).

Woodbrook Studies, by Mingana, I,p-100,Cambridge-1931

ومار ديونيسيوس يعقوب بار صليبي مؤلف بحوث دينية عديدة توفي عام 1171م.

كانت الأوضاع الدينية والإدارية والتجارية العامة مواتية في حلب وأنطاكية وحمص وأفامية لبدء تشكل الجالية الأرمنية الرئيسة في حلب ابتداء من القرن 14م وتنظيم أمورها الداخلية لتصبح بعد فترة قصيرة أهم مركز للأرمن خارج حدود أرمينيا الكبرى. وقد زاد عددهم كثيراً بعد انهيار المملكة الكيليكية الأرمنية تحت ضربات مماليك مصر في عام 1375م وزوال ممالك الفرنجة في المشرق العربي. وهناك شواهد أخرى عديدة على شكل أناجيل ومنمنمات منسوخة في حلب في عام 1329م و1429م تؤكد على وجود جالية أرمنية فيها. وقد شيدت الجالية الأرمنية في هذه الفترة كنيسة صغيرة ذات بهو واحد في حي الصليبة وكنيسة أخرى ذات أبهاء ثلاثة على بعد أمتار منها.

اتخذت الهجرات أبعاداً مأساوية أثناء غزوات المغول والتتار والسلاجقة نحو البلدات والمدن السورية كقطمة ومنبج والباب وحلب ودير حافر ودبسي فرج ودبسي عفنان والهنيدة ومسكنة ودير الزور والشدادة وراس العين وتل أبيض حتى الموصل في الشمال العراقي، وزال إثر ذلك حوالي 1.5 مليون من الأرمن من الوجود، ويدين الأرمن بالكثير لمساعدة العرب بكل فئاتهم ولولا ذلك لما تشكلت الجاليات الأرمنية القوية في القارات الخمس. وتدفق المهجّرون الأرمن من مناطق أرمينيا الكبرى وتبعثروا في جميع الدول العربية المشرقية وأصقاع العالم الأخرى عبر سوريا وهرعت الجموع العربية في المدن والبراري من بدو وعرب رحل ومدنيين بمد يد المساعدة على مستوى الأفراد والجمعيات والحكومات. تؤكد المعلومات التاريخية بأن الهجرة الأرمنية الكبيرة الأولى للأرمن إلى سوريا تعود إلى القرن 6م بعد أن دحر الملك الفارسي كسرى أنوشروان 531-579م بيزنطة في عام 539 واستولى على أنطاكية والرها ونقل إلى هاتين المدينتين الكبيرتين عدداً كبيراً من الأرمن. وبعد ذلك هاجر الأرمن في عهد الخلافة العباسية 750-1259م إلى سوريا هرباً من الاضطهادات الدينية والسياسية البيزنطية والغزوات التتارية ونزح واستقر العديدون منهم لاحقاً في بعض المناطق السورية الساحلية وبنوا قرى مثل اليعقوبية والقنية والجديدة والغنيمية وآراموا وكسب وغيرها في محافظة اللاذقية.

سقطت المملكة الأرمنية البقرادونية 885-1071م تحت ضربات السلاجقة 1064-1220م والغزوات المغولية -التتارية المدمرة 1220-1464م فهاجر عدد كبير من الأمراء والأشراف الأرمن مع قواتهم وشغلوا معظم المناطق الممتدة بين بلاد ما بين النهرين الشمالية وأنطاكية وأسسوا إمارات صغيرة كإمارة مرعش وملاطية والرها وكيسون وزوفك وبيري والروبينيين وهذه الأخيرة وسعت حدودها فتشكلت المملكة الأرمنية الكيليكية التي استمرت ما بين عامي 1198-1375م وزالت كما جاء تحت ضربات مماليك مصر فنزح معظم سكانها إلى سوريا ومناطق بيزنطة المختلفة.

جرت هجرات أخرى من الأرمن إلى البلاد السورية بسبب المجاعة التي حثت بين عامي 1070-1080م في منطقة آسيا الصغرى فنزحت جموع كبيرة منهم إلى أنطاكية التي غدت مركزاً تجارياً ودينياً وثقافياً كبيراً لهم. ويشهد القنصل الفرنسي في حلب الفارس لوران دارفيو في القرن 17 بأن أغلب سكان أنطاكية كانوا من الأرمن واليونانيين وكان بعض ولاتها من الأرمن مثل Vest Khatchadour Anetsi 1068-1071م Vasak Bhadvouni 1071-1078. وتذكر مختلف المصادر التاريخية عن وجود جاليات أرمنية أخرى أيضاً في هذه الفترة في إسكندرون وبيلان وحمص ودمشق وبيروت وطرابلس وصور وصيدا عدا الجالية الكبيرة في مصر أيام الخلافة الفاطمية.

تشهد المصادر الأرمنية بأن أحوال الأرمن في حلب كانت جيدة. وفي مطلع القرن 16 وعلى مدى قرنين من الزمن غدت حلب مركزاً تجارياً كبيراً نتيجة استيلاء العثمانيين على القسطنطينية في عام 1453 فاحتلت الطريق التجارية الجديدة تبريز-حلب المارة عبر المدن الأرمنية بركري-أرجيش-أردزن-خلاط-باغيش- مكان طريق بحر قزوين-أستراخان-آزوف. وكانت حلب تتصل بالبحر الأبيض المتوسط عبر طريقين: طريق حلب-حماه-حمص-دمشق-طرابلس وطريق حلب-أنطاكية-بيلان-إسكندرون فازدهرت الجاليات الأرمنية في هذه المدن المذكورة وشرع التجار الأرمن يصلون إلى حلب من مختلف أنحاء أرمينيا. وقد ظهر على شواهد أضرحة المقبرة الأرمنية في حلب بأن هؤلاء التجار الأرمن جاؤوا من مدن أرمينيا الكبرى كأرضروم وفان Van وموش وتبليس وملاطية وصاصون والرها وغراباغ ومن مدينة جولفا الإيرانية. وقد عُثر في عام 1965 على كتابات أرمنية منقورة على الصخر يصل عددها إلى 20 جنوبي دير الزور بـ80كم تعود إلى العامين 1628 و1674. لكن الهجرات الأرمنية الكبيرة في 150 سنة الأخيرة جرت بسبب الاضطهادات التركية المتواصلة في الأعوام 1876 و1895 و1909 و1915 و1922 و1939 وبلغ عدد المهاجرين إلى سوريا ولبنان حوالي 125.000 أرمنياً منهم 75.000 إلى حلب وضواحيها وتوزع الباقون في المدن السورية الأخرى.

جاء في العدد 692 من جريدة التقدم الحلبية ما يلي بعد تهجير الأرمن إلى سوريا:

مرسوم من سمو الأمير فيصل

بشأن إعادة نساء الأرمن وأولادهم

أرسل سمو الأمير فيصل إلى حضرة مرخص الأرمن الأرثوذكس الكتاب الآتي:

لحضرة مرخص طائفة الأرمن في حلب السيد أرتين المحترم.

سلام واحترام وبعد، فإنّا كتبنا اليوم إلى حاكم حلب العسكري جعفر باشا بوجوب اتخاذ جميع التدابير الممكنة والإعلان في الجرائد بأن كل من يوجد لديه أحد من نساء الأرمن وأولادهم وبناتهم ويعمل على إخفائهم ولا يسلمهم لذويهم أو للحكومة في الحال يجازى بأشد الجزاء.

فالأمل إرشاد الحاكم المذكور إلى محل وجود هؤلاء ليسعى في إرجاعهم واقبلوا خالص احتراماتي.

فيصل

وجاء أيضاً في العدد 6894 لعام 1946 بقلم شكري كنيدر رئيس التحرير وعميد شيخ الصحافة الحلبية آنذاك: ((أصدر الأسقف Zareh Payaslian مطران الأرمن الأرثوذكس لأبرشية حلب وتوابعها نداء إلى المقاتلين الأرمن في الجيش الفرنسي كي ينضموا بأسلحتهم إلى الجيش السوري فلبى الجنود الأرمن نداء الواجب ومنحته الحكومة وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى بموجب المرسوم رقم 381 تاريخ 2 نيسان عام 1946 تقديراً لموقفه النبيل تجاه الوطن السوري. وقد قال محافظ حلب آنذاك الأمير مصطفى الشهابي عند تقليده الوسام: "عندما بدأ الأرمن يهاجرون إلى ديار الشام عقب الحرب كان أبناء هذه الديار تحت تأثير عاملين مختلفين: الأول العطف على هذا الشعب الباسل النشيط الذي نكلت به سياسة الاتحاديين الغاشمة في الدولة العثمانية كما نكلت بنا على السواء. والثاني الخوف من أن تكون له في بلادنا أطماع سياسية أو يكون وجوده بين ظهرانينا مزاحمة اقتصادية تمس سواد الشعب. وها قد مضى نحو ربع قرن على هذه الهجرة فإذا بظنوني الماضية تتحقق وهم يعدون الشام وطناً ثانياً لهم فيرفضون مطالب الأجانب في تأليبهم علينا ويشاركوننا في السراء والضراء يفرحون لأفراحنا ويحزنون لأحزاننا ويعرضون خدمتهم علينا في كل ملمة شأنهم في ذلك شأن المواطن المخلص الذي لا يفصله عن أخيه أي فاصل. ولئن حمدنا مسلكهم السياسي الذي لا غبار عليه فلم نذم أيضاً تأثيرهم الاقتصادي. فقد جاء على ما توقعت من حيث إيجاد صناعات جديدة ورخص في الأيدي العاملة ورخاء لا ينكر. وبعد، إن لهذه الطائفة الكريمة قادة كراماً لم يخلفوا ظناً في وقت من الأوقات ويسعدني أن أرى على رأسها اليوم راعياً

صـالحاً تقـياً أدبـياً هـو سيادة المطران زاريح فهو ما انفك منذ مجيئه إلى حلب يبث روح المحبة والتآخـي وإطاعـة القانون والابتعاد عن الشقاق والعمل على ما فيه خير وطننا السوري المحبوب. ويسـرني أن أعلـق علـى صدره وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى الذي تفضل فخامة الرئـيس الزعـيم (شـكري القوتلي – أ. ك) بمنحه لسيادته لخدماته الجلى متمنياً له الصحة والخير العميم".

وأقدم بعض المقتطفات من رد وشكر المطران في هذه المناسبة:

"معالـي الأمـير، إن هـذا الوسـام الذي زينتم به صدري هو تقدير حكومتنا المكرمة للجالية الأرمنـية التي أمثلها. ورغم قيمتها المعدنية المحدودة إلا أن قيمتها المعنوية عظيمة لا تقاس بمقياس أبـداً... نعـم يشـهد لي ضميري أني كنت دوماً مخلصاً فيما قمت به في الواجب نحو بلادي، وإني حيـثما أكن وأينما أقصد سأعمل مادياً كان أم معنوياً وسأبذل قصارى جهدي لإعلاء كلمة هذا الوطن العزيـز. صـار عام 1945 عاماً للمجد والخلود في تاريخ سوريا. وقد حققت فيه الأماني وتخلص الشـعب من نير الأجنبي المسيطر. وما تحقق ذلك إلا بقوة الاتحاد والإخلاص نحو الوطن المقدس. نحـن الأرمن ذقنا مرارة النضال لأجل الحرية وسال منا الدم بسيل الفرات والدجلة ومع ذلك سرعان مـا انضـم الأرمن لأخوانهم العرب لتحقيق أمانيهم السلمية لنيل حقوقهم المقدسة. بارك الله رجالاتنا الأشـداء الخلص الذين وقفوا وقفة الأسود أمام الأجنبي الدخيل واستشهدوا استشهاد البواسل الأحرار. لقـد أثبـت السـوريون للعالم أجمع أنهم أسياد بلادهم وقادرون على إدارة شؤونهم بأنفسهم. وبدأت تخطـو الأمـة خطوات عظيمة في سائر مظاهر الحياة وإني لشديد الاعتقاد أنه سوف لا يمضي إلا بضـع سنين وستصبح سوريا زهرة الشرق الأدنى ومناره الوضاء... عاشت سوريا المستقلة الحرة. عاش الشعب السوري وحكومته الجليلة...))

بعض المقتطفات من أعداد جريدة التقدم الحلبية حول هجرة الأرمن إلى حلب والمشرق العربي وحـالهم وردود الفعـل السـلبية والإيجابية المختلفة من السكان الأهليين تجاه نزوحهم. جاء في عدد 1570 لعام 1922 ما يلي تحت عنوان "المهاجرون في حلب":

((لقـد كـثرت هجرة الأرمن والأروام من أهالي الأناضول إلى البلاد السورية بسبب الأحوال المعـروفة فـي تلك الجهات، وقد أحدث نزول هؤلاء المهاجرين فيما بين ظهرانينا تبرماً عند بعض الأهالـي لمـا قـد ينشـأ عن ذلك من ارتفاع أثمان الحاجيات واشتداد أزمة السكن. غير أن المتأمل البصـير يـرى بأنهم منذ نزلوا عندنا يعانون أنواع المهن والحرف والصناعات فازدادت بهم الأيدي العاملـة وكانوا مساعدين على تخفيف أزمة الغلاء في كثير من الحاجيات الضرورية. وقد كان أكثر الغـلاء كمـا يعرف الناس متأتياً عن طمع الباعة وطلبهم الربح الفاحش. والمهاجرون الذين تعاطوا

البيع والشراء يقنعون بالربح القليل. لذلك نرى أن أثمان الحوائج لم ترتفع بعد أن أتى المهاجرون على كثرة عددهم... أما الآن فقد كثر البناؤون والنجارون والحدادون وغيرهم وسيكون المهاجرون أعظم العوامل لتخفيف أزمة السكن... على أن الحلبيين أضافوا برهاناً جديداً على ما عرفوا به من الأريحية ونبل العواطف وسماحة النفس بما ألفوه من الجمعيات المتعددة لإعانة المعوزين من المهاجرين وتخفيف شقاء المنكوبين كما أن الحكومة المحلية والبعثة الفرنسية قد بذلتا من الاهتمام العظيم بأمرهم وخصصت الحكومة لهم في المدة الأولى (خان التتن والقولى) لإقامة بعض منهم ما استحقتا عليه جزيل الشكر وعظيم الأجر)).

وفي عددي الجريدة 1433 (تحت عنوان إعانة جياع الأرمن) و 1572 (تحت عنوان تشغيل المهاجرين) عام 1922 جاء: ((تألفت في هذه المدينة لجنة لمساعدة أهل أرمينيا الذين يفتك بهم الجوع فتكاً ذريعاً. وقد أخذت اللجنة تجمع الإعانات من أهل البر والإحسان... إن عاصمة أرمينيا أريفان الشهيرة بحدائقها وبساتينها والمزروعات التي حولها ليست اليوم غير صورة الموت. فالجائعون يلتقطون كل ما يجدونه في الطرقات مما يخيل لهم أنه يؤكل والأولاد يبيتون في الاصطبلات ملتحفين بالتبن اتقاء الجليد القاتل. وفي صبح كل يوم نجد أولاداً على الأرض أجساداً هامدة أو يئنون وينبحون في حالة نزع والأمهات يرمين أولادهن على أبواب المستشفيات ويذهبن لكي لا يرينهن يموتون جوعاً بين أذرعهن...)).

جاءت الكلمات التالية في عدد جريدة التقدم 1572 تاريخ 1922 وتحت عنوان "تشغيل الأرمن": ((إن ما نشاهده من الغيرة في تأليف الجمعيات المتعددة وما جمع من الأموال والثياب لإعانة المهاجرين من الأناضول جدير بالإعجاب والثناء ويسرنا أن الحكومة المحلية والبعثة الفرنسية وذوي المروءة من الأهالي يقومون جميعاً بما تفرضه عليهم الشرائع الإنسانية نحو هؤلاء البؤساء.. والطريقة التي نوهنا بها ويقول بها أرباب الرأي والتدبير هي أن يعطى لأصحاب الحرف والصناعات والمهن المختلفة ما يتمكنون من مزاولة مهنتهم فيكسبون رزقهم ورزق عيالهم بعملهم ولا يكونون عالة على أهالي هذه المدينة ويسدون فراغاً كبيراً في حياتنا...)).

وبعد هذه المقالة بسنة واحدة كتب شكري كنيدر في العدد 1734 عام 1923 من جريدته تحت عنوان "المهاجرون في حلب" قائلاً: ((لا نزال نسمع من بعض القوم تذمراً وتأففاً من المهاجرين النازلين عندنا ممن أجبروا على الجلاء عن أوطانهم في الأناضول وغيرها ظناً أنهم عالة على هذه البلاد لا تطيق تحملهم. ونحن لا نريد أن نستثير عواطف الرحمة والشفقة على هؤلاء الغرباء التاعسين الذين أبعدوا عن ديارهم وجردوا من أملاكهم وأموالهم وأصبحوا طريدين شريدين معوزين وكثيرون منهم كانوا ذوي يسار وسعة وأبناء رخاء ونعمة فأصبحوا يكدون لتحصيل الرزق وتخدم نساؤهم في البيوت لنيل القوت.. نريد أن نناقش المتذمرين في الوجهة المادية دون العواطف ونثبت

لهم أن هؤلاء المهاجرين ليسوا عالة على هذه البلاد ولكن في وجودهم فائدة. وإنه يكفي المرتاب أن يرجع إلى المصارف فيعرف مقدار ما يرد على أيديها من النقود التي يرسلها إلى المهاجرين أهلوهم وأنسباؤهم وبنو جلدتهم في أمريكا وغيرها من أطراف المعمورة والجمعيات الخيرية على اختلاف أنواعها فهذه النقود كلها تنفق عندنا فتزيد في حركة السوق وتساعد على تخفيف الكساد والضيق المالي. وإذا كنت ترى اليوم في هذه المدينة مئات كثيرة من البنايات المستحدثة منذ سنة فمعظم الفضل في ذلك يرجع إلى هؤلاء المهاجرين الذين كثرت بهم الأيدي العاملة التي كنا نشكو من قلتها واعتدلت الأجور التي كنا نتذمر من فداحتها وقد ابتنى أكثرهم لأنفسهم منازل من الخشب وأكواخاً في أماكن بعيدة فأمن الأهلون مضايقتهم ومزاحمتهم لهم فكانوا من العاملين على تخفيف أزمة المنازل خلافاً لما كان يتوقع ويخشى. ولو سألت الزراع لأجابوك أن المهاجرين يؤدون لهم أحسن خدمة في المزارع والقرى بأجرة زهيدة وقد خففت هذه المهاجرة أزمة الخادمات وكنّ قبل ذلك نادرات جداً. فلسنا نرى والحالة هذه وجهاً أو سبباً معقولاً للتشاؤم من هؤلاء المهاجرين على أنهم عابرو طريق وهم يرحلون عنا تباعاً. ولو نظرنا إلى مصلحتنا لتمنينا مكثهم عندنا وبقاءهم بيننا.... على أن هذه النتائج لم تأت عفواً بل إن كلاً من الحكومة المحلية والسلطة الإفرنسية وكرام الأهلين قد قام بالواجب المترتب عليه حق القيام فاستحق الجميع جزيل الشكر ووافر الثناء. وما أبعد حالة المهاجرين اليوم عن حالة أمثالهم في أثناء الحرب العامة حيث كان الجوع والاضطهاد والوباء يفتك فيهم فتكاً ذريعاً حتى كانوا يموتون في الأزقة والشوارع وليس بين أهالي حلب من ينظر شيئاً من تلك المشاهد الهائلة. فشتان ما بين الزمنين وسبحان من يغير الأحوال ويبدل من العسر يسراً)).

أريد أن أذكر هنا بعض الجمعيات الدولية التي ساعدت المهاجرين الأرمن مادياً في بلدان المشرق العربي عدا الحكومة السورية وسلطة الانتداب الفرنسي والسكان المحليين السوريين: "الصليب الأحمر الدولي" و"الحكومة الفرنسية" و"جمعية مساعدة الشرق الأدنى" Near East Relief "والصليب الأحمر الأمريكي" و"مكتب العمل الدولي" ومؤسسات أمريكية وجمعيات أرمنية خيرية وأغنياء أرمن مهجريين عديدين جداً.

الحقوق الاثنا عشر التي يتمتع بها الأرمن في سوريا:

1 ــ حق المواطنة

2 ــ التسامح الإثني

3 ــ التسامح الديني

4 ــ التسهيلات التربوية

5 ــ حقوق متساوية أمام القضاء

6 ــ حرية الانتقال

7 ــ حريات اقتصادية

8 ــ حرية الاشتراك في المناقصات

9 ــ الأمن والأمان

10 ــ الاحترام المتبادل

11 ــ احتلال المناصب الإدارية والحكومية والسياسية

12 ــ احتلال مناصب قيادية في الجيش العربي السوري.

التجار الأرمن في حلب

كانت حلب مركزاً تجارياً دولياً هائلاً طوال القرون الوسطى وحتى القرن 19 بسبب موقعها الجغرافي الممتاز بين الشرق الأسيوي والغرب الأوروبي وتحتوي على مئات الخانات والنزل والمستودعات. وكان التجار الأرمن ابتداء من القرن 16 يحتلون مراكز قيادية في تجارة حلب والتجارة الدولية. وهناك مصادر عديدة جداً في أرشيفات الدول الأوروبية نقدم بعضاً منها:

((في تاريخ سيدنا المسيح 1563، أنا قيصر فريديريك من البندقية كانت لدي الرغبة الكبيرة لزيارة الشرق فسافرت إلى حلب وتعرفت إلى التجار الأرمن والعرب وجهزنا أنفسنا للاتجاه إلىهرمز سوية وتركنا حلب خلفنا)).

Purchas, His Pilgrims, 1905, Vol-X,p88/9

ويكتب William Biddulph في عام 1600 في حلب قائلاً: ((يتألف سكان حلب من الأتراك والعرب واليهود واليونانيين والأرمن والنساطرة وغيرهم من الشعوب)).

Ibid-262

وعندما سافر Pedro Teixer إلى حلب بين عامي 1600 ــ 1605 كتب قائلاً: ((في حلب 24،000 داراً جيدة فقط ومعظمها مبنية بالأحجار وفيها بيوت كبيرة وجميلة جداً وهي غالية الثمن وتعود ملكية بعضها إلى اليهود واليونانيين والأرمن وبعضها تليق بأن يسكنها الأمراء)).

The Hakluyt Society, II Series, No-IX

ويؤكد Edward Terry من سكان حلب بدوره في عام 1616 بأن ((حلب هي السوق الرئيسية لبلدان الشرق ويصل إليها التجار الفرس والهنود والأرمن وتجار من جميع الملل الأوربية واسكندرون هي مرفأ مدينة حلب)).

Purdas, His Pilgrims, Mol-Ix,p.103

بعد سوق 40،000 عائلة أرمنية إلى فارس وهدم مدينتهم جوغا في عام 1605 بنى لهم الشاه الفارسي عباس الأول مدينة جديدة في إيران سماها جوغا الجديدة لتنشيط الصناعات والتجارة والفنون والعمارة في البلاد ونزح باقي سكان المدينة القديمة إلى حلب وشرعوا يعملون في التجارة فقد كانوا مهرة وحاذقين جداً في هذا المجال، ومن هؤلاء الأخوين سانوس وبيديك جلبي اللذين إلى جانب تجارتهما الدولية الكبيرة مع هولندة وإيطاليا وفرنسا كانا مديري جمارك حلب وأرضروم المعينين من قبل الباب العالي وكانت تجارتهما تنحصر بشكل رئيسي بالحرير الطبيعي والمنسوجات الحريرية مع هولندة لوجود جالية أرمنية صغيرة فيها جميع أفرادها من سكان جوغا القديمة. واستمر هؤلاء التجار بتنشيط التجارة بين حلب والدول الأوروبية مدة 1،5 قرناً ولا نسمع عنهم بعدئذ شيئاً من المحتمل بسبب منافسة القناصل والتجار الأوروبيين لهم أو فرض ضرائب باهظة على سلعهم أو بسبب هذه العوامل مجتمعة. وبعد فترة تولى السلطة في حلب في عام 1652 ضابط يدعى أبشير باشا وقد كان شخصية مسالمة فازدهرت المدينة في عهده وبنى في حي الجديدة الذي كان معظم سكانه من الأرمن خاناً كبيراً وسبيلاً وأبنية أخرى فاستمرت قوافل التجار الأرمن بنقل البضائع المختلفة من آسيا البعيدة إلى أوروبا عبر حلب وجلب سلع من أوروبا تحتاجها المدينة والبلدان الشرقية. ومن جهة أخرى كان المهاجرون الأرمن في حلب في الربع الأول من القرن 14 أناساً فقراء ومع ذلك كانوا أصحاب مهن مختلفة وخاصة صناعة الألبسة والأحذية اللتين قاموا بتطويرها واشتهروا بهما طوال 6 قرون حتى النصف الثاني من القرن 20 وعن طريق هذه "المهن الأرمنية" تمكنوا من تأمين سبل الحياة الكريمة ووصلت شهرتهم إلى جميع أصقاع الإمبراطورية العثمانية والبلدان الأوروبية والأمريكتين. وكان باشوات حلب وأعيانها وتجارها الأغنياء يرتدون الألبسة التي يخيطها لهم الخياطون المعلمون الأرمن ووصل بهم الحال إلى درجة استلام مهمة تأمين الجيش العثماني بالألبسة العسكرية الخاصة. إلى جانب ذلك كان الأرمن نشطاء في صناعة الأصبغة وخاصة اللون الأزرق الذي كان مرغوباً لدى التجار الأجانب والفرنسيين منهم على وجه الخصوص. وكان معظم معلمي هذه المهنة من أرمن عينتاب ومرعش. ومن الصناعات التي برع بها أرمن حلب في تلك الفترة أيضاً دباغة جلود الخراف والماعز والجمال وصبغها باللون الأحمر والأصفر وكان معظمهم من أرمن ديار بكر. ومن المهن الأخرى الصياغة التي كان يعمل بها

السكان النازحون من مملكة كيليكيا الأرمنية ومدينة جوغا القديمة وذلك منذ فترة أبكر وذلك ابتداء من القرن 14م.

بدأ قناصل وتجار هولندة وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا ابتداء من القرن 16 يستقرون في حلب للتجارة بعد حصولهم على صكوك الامتيازات من السلطان العثماني وشرعوا يتعاونون مع الأرمن في التجارة الدولية للحرير والمنسوجات الحريرية التي كانت من احتكارهم بشكل رئيسي في هذه العصور رغم العدد غير الكبير للجالية الأرمنية التي لا تتعدى 5000 فرداً حسب إحصاء هؤلاء القناصل الأجانب. ومن أهم التجار الأعيان الأرمن في حلب في تلك الحقبة آل شلبي وآل جلبي وآل المعلم سليمان والخواجة خاتشيك والخواجة ناظار وغيرهم. وكان الأمير بيديك شلبي رئيس جمارك وصوباشي حلب وممثّل ملكة هولندة في المدينة وكان شقيقه صانوص شلبي رئيس جمارك أرضروم. وقد أعدم الأمير بيديك في قلعة حلب بقطع الرأس لأسباب غير معروفة حتى الآن بعد استضافته للسلطان العثماني مراد الرابع في قصره في حلب. وضريح الأمير موجود الآن في مقبرة الأرمن الأرثوذكس في حي الشيخ مقصود.

زار الرحالة الأرمني سيميون ليهاتسي حلب في عام 1616 على طريق عودته من الأراضي المقدسة في فلسطين وأكد أنّ الجالية مؤلفة من 300 عائلة وأن أحوالهم جيدة. ولعل إنشاء الهوكيدون عام 1624 على بعد بضعة أمتار من كاتدرائية الأربعين شهيداً الأرمنية مقراً ونزلاً لإقامة الحجاج والتجار الأرمن خير دليل على كثرة الأرمن في المدينة. ويذكر أيضاً بأن استقبال قوافل الحجاج الأرمن القادمين من فلسطين كان يتم في خان طومان فقد كان مركزاً رئيساً لتجمع القوافل إلى جانب خان العسل اللذين كانا يقعان خارج أسوار المدينة القديمة وعلى بعد 15 ـ 20 كم عن مركزها.

بعض الأرقام الموثقة حول عدد الأرمن في حلب أثناء 400 سنة الأخيرة

6750 أرمنياً عام 1745 حسب إحصاء القنصل البريطاني ألكسندر راسل

6470 أرمنياً عام 1882 حسب المصادر الأرمنية

60،000 أرمنياً عام 1918 حسب مصادر المطرانية الأرمنية

75،000 أرمنياً عام 1920 حسب مصادر المطرانية الأرمنية

48،000 أرمنياً عام 1924 حسب مصادر المطرانية الأرمنية

وكان 17،000 منهم يعيشون في بيوت من خشب وصفيح في مخيمات بعيدة عن السكان المحليين في السليمانية والجابرية والحميدية والميدان والهلك والأشرفية وجبل السيدة وغيرها.

60،000 أرمنياً عام 2005 حسب إحصاء المطرانية الأرمنية.

التعليم والحياة الثقافية والفكرية والرياضة

المدارس

عدد المدارس الأرمنية في حلب بين عامي 1924 ــ 1925 كان 19 مدرسة ابتدائية ارتفع إلى 24 في عام 1984 ومدرستان لتعليم فن الرسم والنحت بينما في أربعينيات القرن 19 كانت هناك في حلب 4 مدارس ابتدائية أرمنية فقط: الحضانة الأولى ــ 1869 ومدرسة البنات ــ 1867 ومدرستان للذكور.

تأسست أولى الجمعيات الثقافة والعلمية والخيرية والرياضية وغيرها ابتداء من القرن 19 كجمعية روبينيان ــ 1846 وجمعية محبي العلم ــ 1880 والجمعية الخيرية العمومية الأرمنية ــ 1910 و 9 جمعيات ثقافية تستمر في نشاطها حتى يومنا هذا. وقد وصل عدد الجمعيات الثقافية بين عامي 1920 و 1978 إلى 42 جمعية وزال بعضها بسبب انخفاض عدد الأرمن في حلب وبقي منها حوالي الثلث. ولجميع المدارس والجمعيات مكتباتها الغنية يصل عددها اليوم إلى 28 وهناك 29 مكتبة خاصة. وكان الأرمن يملكون أكثر من 30 مطبعة في المدينة وجميع المطبوعات من كتب مدرسية و 40 دورية أرمنية من جرائد ومجلات وإبداعات الأدباء كانت تصدر عنها بين عامي 1918 ــ 1963 ثم تعرض وتباع في 49 مكتبة لبيع الكتب أصحابها من الأرمن أيضاً.

حركة الترجمة في حلب وجدول الكتب المعربة

يحتفل الأرمن في جميع أنحاء العالم بذكرى المترجمين في شهر تشرين الأول من كل عام وهو من الأعياد الرئيسة في حياتهم إلى درجة التقديس. لم تكن للأرمن حتى القرن 5 م حروف أبجدية وكانوا يتكلمون بالأرمنية مشافهة ويتداولون الكتابة بالحروف اليونانية والسريانية. ويعود فضل اختراع الأبجدية الأرمنية في 36 حرفاً إلى الراهب مسروب فقد فتح عهداً جديداً من الحضارة المدونة أمام الأرمن بدءاً من عام 406 م. وتضافرت جهود المملكة الأرمنية والكنيسة بعدئذ لنقل أمهات المؤلفات التاريخية والدينية والفلسفية عن اليونانية والسريانية والفارسية واللاتينية بدءاً من أسفار الكتاب المقدس وعرف القرن 5 م في تاريخ الثقافة الأرمنية بالعصر الذهبي كما كان الحال في حياة العرب المسلمين بعد 400 سنة في عصر المأمون الخليفة العباسي. ومع الفتح العربي الإسلامي لبلاد أرمينيا في عام 640 ــ 650 م دخلت لغة جديدة مضمار الثقافة الأرمنية وهي اللغة

العربية وبدأ عهد جديد للتبادل الثقافي بين الأرمن والعرب. وشهدت القرون الوسطى حركة ترجمة متبادلة فتم نقل كتاب "تاريخ الأرمن" للمؤرخ أكاتنكيغوس وكتاب "الثعلب" لوارطان أيكيكتسي إلى العربية وهذا الأخير يحتوي على قصص وحكايات على لسان الحيوانات على مثال كتاب "كليلة ودمنة" ولكنه أقدم منه. كما نقل كتاب أقراباذين في علم طب الخيل بعد أن كان مترجماً إلى العربية وقد ضاع الأصل العربي، وفي هذه الفترة أيضاً نقلت من العربية إلى الأرمينية كتب في تفسير الأحلام نذكر منها "تبر الملوك" ومقاطع من قصص "ألف ليلة وليلة" وقام بترجمتها آراكيل أنيتسي ومخيتار كليكانيتسي وشيران. كما نقلت رسائل "إخوان الصفا وخلان الوفا" على يد الفيلسوف الأرمني الشهير أوهانيس بلوز يرزنكاتسي تحت عنوان "من كتابات الفلاسفة المسلمين". إلى جانب هذه الأعمال الأدبية تم نقل بعض مؤلفات الأطباء العرب إلى الأرمينية كعيسى بن يحيى والرازي وابن سينا وأبي سعيد. وكان لهذا الطبيب الأخير كتاب "تشريح الإنسان" ضاعت نسخته العربية ولكن هناك 40 نسخة للترجمة الأرمنية في دار مخطوطات أرمينيا والمكتبات العالمية. وهناك مخطوطة أرمنية في باريس تشير حاشيتها بأن هيثوم الأول ملك كيليكيا الأرمنية 1226 ــ 1269م أمر بترجمة مجموعة من الكتب العربية تبحث في علم صب الفولاذ وصناعة السيوف والكيمياء. لقد شهدت مملكة كيليكيا الأرمنية 1073 ــ 1375م تطوراً كبيراً في العلاقات الثقافية الأرمنية ــ العربية لأن الأرمن وجدوا أنفسهم قريبين إلى التخوم العربية فنهلوا من العلوم العربية وتأثر الأدباء الأرمن بفن المقامات المسجعة والأوزان الشعرية والقافية المنظومة والمصطلحات في جميع مجالات الحياة العامة والعلمية ودخلت كلمات عربية عديدة جداً إلى اللغة الأرمنية في مجالات الدين والعلوم من طب وكيمياء وصيدلة وفلك وحقوق وكلمات أخرى تستخدم في الحياة العامة دون أن يشعر الأرمني بأصولها العربية ووصل الحال إلى درجة تبني بعضها ككنية مثل حديديان ونعلبنديان وقصابيان وبيطريان وغيرها. ونذكر من رواد هذا التبادل الثقافي المفكر الأرمني الكبير كريكور ماكيستروس 990 ــ 1059م الذي أتقن الأرمنية والعربية واليونانية. لكن ما لبث هذا التثاقف أن انقطع مع الأسف رويداً رويداً بعد هذه الحقبة وحل عصر الظلام في منطقتنا بسبب غزوات وتخريبات السلاجقة والمغول والتتار فقضوا بذلك على مراكز العلم والحضارة وأحرقوا المكتبات وقتلوا العديد من أعلام الفكر والأدب والعلوم. وكانت مدينة حلب في القرن 17 مركزاً مرموقاً للتبادل الثقافي وهي بدورها عانت من محاربة اللغة الأرمنية وفرضت على الأرمن اللغة العثمانية فلجأوا إلى تداول اللغة العربية بينما بقيت الأرمنية حبيسة الكنائس والمعاهد الدينية فقام بعض المبشرين الأجانب كاليسوعيين والفرنسيسكان وغيرهم بترجمة بعض الكتب الأرمنية إلى العربية. وانطلاقاً من هذه الظروف ظهرت كوكبة من الأدباء الأرمن كتبوا باللغة العربية نذكر منهم شاهين قندي 1660 وكرديج الكسيح الأرمني 1713 وعبد الله الصباغ الحلبي 1788 وأنطوان خانجي 1868 ورزق الله حسون صاحب مرآة الأحوال 1855 وأديب أسحاق 1856 ت 1885 صاحب

جـريدة مصر وكركور عجميان 1904 وميخائيل قديد وبولس قوشاقجي ويوسف قوشاقجي 1966 و كثـير غـيرهم. وقد شهد النصف الثاني من القرن 20 وخاصة النصف الثاني منه حركة نشطة جداً فـي نقـل إبداعـات الكـتاب والشعراء والمؤرخين والمستشرقين والعلماء الأرمن من الأرمنية إلى العربـية وكانـت باكورة الأعمال في هذا القرن ترجمة الرواية الشعرية "عروج أبي العلاء" للشاعر الأرمنـي الكبـير أواديـك إساهاكيان إلى العربية في عام 1948 من قبل العلامة خير الدين الأسدي بمسـاعدة بارسـيخ تشـاتويان ونشـر عام 1952. وقد تم نشر حوالي 150 كتاباً من الأرمنية إلى العربـية (وبـالعكس) وتصـنف فـي 4 أبواب: الكتب الأدبية والتاريخية المتعلقة بالتاريخ الأرمني والقضـية الأرمنـية وكتـب تهـتم بالقضايا العربية وكتب علمية. أقدم للقارئ العربي الكريم جدولاً مقتضباً جداً عنها:

(أ) الكتب الأدبية المترجمة من الأرمنية إلى العربية:

اسم الكتاب بالعربية	اسم المؤلف	اسم المترجم	مكان وتاريخ الصدور
1ـ حكايات شعبية أرمنية	مجموعة أدباء	أحمد ناصر	دمشق 1992
2ـ عاشق أرمينيا ـ قصائد	يغيشه تشارنتس	د. سامي الجندي	بيروت 1981
3 ـ حبة الرمان ـ قصائد	ناهابيد كوجاك	مهران ميناسيان	اللاذقية 1999
4 ـ ليحل النور ـ قصائد	بارويـر سيفاك	مهران ميناسيان	اللاذقية 1995
5 ـ 20 قصة أرمنية	مجموعة أدباء	غسان ولوسي كجو	حلب 1992
6 ـ باروير سيفاك ـ شعر	مجموعة أدباء	بوغوص سارجيان	حلب 1994
7 ـ 70 ألف آشوري	وليام سارويان	حسني سيد لبيب	حلب 1994
8 ـ ابن عمي ديكران	وليام سارويان	حسني سيد لبيب	حلب 1994
9 ـ نخب من الشعر الأرمني	مجموعة شعراء	ب. شاتويان	حلب 1983
10 ـ مايريك (أميمتي)	هنري فيرنوي	الأب يوسف قوشاقجي	اللاذقية 1992

تحولـت هـذه الـرواية الأخيرة التي كتبها المخرج السينمائي العالمي الأرمني هنري فيرنوي (مالاكـيان) إلـى فلـم نـاطق بالفرنسية ولعب عمر الشريف الدور الرئيسي فيه إلى جانب ممثلين عالميين آخرين وهي تدور حول التهجير والمذابح.

11 ــ الخيول الأرجوانية	هرانت ماتيفوسيان	اسكندر كيني	طشقند 1982
12 ــ أنشودة الخبز ــ قصائد	طانييل واروجان	ناظار ناظاريان	حلب 1970
13 ــ قصص أرمنية	مجموعة أدباء	ناظار ناظريان	حلب 1990
14 ــ ملحمة المعري ــ شعر	أويديك إسحاقيان	ناظار ناظريان	اللاذقية 1994
15 ــ القرن العشرون ــ شعر	كيفورك أمين	ناظار ناظريان	حلب 1979
16 ــ الرجل الأحزن ــ مسرح	بيرج زيتونتسيان	ناظار ناظريان	الكويت 1993
17 ــ الرجل الذي نسي أن يموت	وارتكيس بدروسيان	ناظار ناظريان	دمشق 1985
18ــ سيريناد	كيفورك تميزيان	غسن ولوسي كجو	حلب 1995
19 ــ كيف تصير رجلاً طيباً	كارلوس يغيازاريان	غسان ولوسي كجو	دمشق 1999
20 ــ الحياة على الدرب الروماني القديم	فاهان توتوفينتس	هراج ساهاكيان	اللاذقية 1993
21 ــ الجماهير المجنونة ــ شعر	تشارنتس	ناظار ناظريان	حلب 1983
22 ــ سفر الوقائع	سيرو خانزاديان	ناظار ناظريان	دمشق 1990
23 ــ نصب لذكرى أمي	هوانيس شيراز	ناظار ناظريان	حلب 1981
24 ــ رنات صامتة	زاوين دولابجيان	نزار خليلي	حلب 1977
25 ــ آنوش	هوانيس تومانيان	نزار خليلي	حلب 1969
26 ــ قطرة عسل	هوانيس تومانيان	نزار خليلي	حلب
27 ــ جرة الذهب	هوانس تومانيان	نزار خليلي	حلب
28 ــ الأخ الجدي	هوانيس تومانيان	نزار خليلي	حلب
29 ــ آلام مكبوتة ــ شعر	كريكور زوهراب	نزار خليلي	حلب 1975
30 ــ 3 سنوات و 291 يوماً	سيرو خانزاديان	نزار خليلي	دمشق 1991
31 ــ كتاب المراثي ــ شعر	كريكور ناريكاتسي	نزار خليلي	حلب 1994
32 ــ صوت من جبال كسب	زوهراب عنتبليان	نزار خليلي	دمشق 1993
33 ــ الصقر الأخضر	كيفورك أبيجيان	نزار خليلي	بيروت 1993
34 قلوب حائرة	لوسي سلاحيان	نزار خليلي	دمشق 1978
35 ــ المعلم الأخير	وارتكيس بدروسيان	نزار خليلي	دمشق 1986

36 ـ دافيد الصاصوني الملحمة الشعرية الأرمنية	هوانيس تومانيان	نزار خليلي	حلب 1969
37 ـ الدراجة الحمراء	لوسي سلاحيان	نزار خليلي	دمشق 1988
38 ـ المتسولون الشرفاء	هاكوب بارونيان	نزار خليلي	حلب
39 ـ أنشودة الحياة الخالدة	فاهكان تافيتيان	المطران بطرس مراياتي	اللاذقية 1997
40 ـ أغني زهرة الحرية	تشارنتس	بوغوص ساراجيان	بيروت 1997
41 ـ قصة امرأة عربية	مجموعة أدباء	بوغوص سارجيان	دمشق 1993
42 ـ قصص مختارة أرمنية	واهان توتوفينتس	بوغوص سارجيان	دمشق 1997
43 ـ العجلة المكسورة	وليم سارويان	سمير بربك	دمشق 1993
44 ـ رجال العصر الحجري	كودسي ميكائيليان	شوكت يوسف	دمشق 1993
45 ـ الكوميديا الإنسانية	وليم سارويان	معلا محمد ومانويل جبجي	دمشق 1989
46 ـ أناس بلا طفولة	أنترانيك زاروكيان	هراج ساهاكيان	1989
47 ـ كتاب الثعلب	فارتان أيكيكتسي	هاكوب ميكائيليان	1989

(ب) ترجمات إلى العربية حول تاريخ الأرمن وقضيتهم

1 ـ "شهادة الأرمن"	يروانت بامبوكيان	كيغام خاتشريان	بيروت 1985
2 ـ "جريمة الصمت"	مجموعة باحثين	هوري عزازيان	حلب 1995
3 ـ "نداء الدم"	أغافني بوغوصيان	مارال كبجيان	حلب 1994
4 ـ "مجازر الأرمن"	موسى برنس	أكوب أوقجيان	حلب 1997
5 ـ "مختارات حول المجازر"	مجموعة باحثين	خالد الجبيلي	اللاذقية 1995
6 ـ "إقليم قره باغ"	ليفون مكردجيان	خالد الجبيلي	اللاذقية 1995
7 ـ "حرب تقرير المصير في إقليم قره باغ	البارونة كارولين كوكس	خالد الجبيلي	اللاذقية 1995
8 ـ "الأيام الأربعون لجبل موسى"	فرانز ويرفل	خالد الجبيلي	اللاذقية 1995
9 ـ "القضية الأرمنية والقانون الدولي"	شاوراش طوريكيان	خالد الجبيلي	اللاذقية 1992
10 ـ "تاريخ الأرمن"	موسيس خوريناتسي	نزار خليلي	دمشق 1999

11 – "وثائق عن المجازر الأرمنية"	هايكازن غازاريان	نزار خليلي	اللاذقية 1995
12 – السماء كانت سوداء فوق الفرات	جاك تير ألكسانيان	سيلفا عربش	دمشق 1955
13 – أرمينيا 1915	جان ماري كارزو	جورج آرويان	دمشق 1955
14 – رسوم ومعارف من لواء اسكندرون	طارق يازغان آلب	نزار خليلي	دمشق 1955
15 – نبذة تاريخية عن الحزب الثوري الأرمني	كيفورك نوريكيان	نزار خليلي	اللاذقية 1955
16 – وثائق تاريخية عن مجازر عام 1915	هايكازن غازاريان	نزار خليلي	اللاذقية
17 – تاريخ الجاليات الأرمنية في العالم العربي	هوري عزازيان		اللاذقية 1993
18 – الوجه الخفي للانقلاب التركي	مولان زاده رفعت	توفيق برو	1993
19 – أورارتو	مارغريتا ريمشنايدر	وحيد خياطة	1993
20 – قضية لواء اسكندرونة	آليشان بايراميان	هرانت حبشيان	1993
21 – ألبوم قوافل المهجرين	روبرت جبه جيان	كاسبار دردريان	1994
22 – العبور إلى آرارات	مايكل آرلين	خليل حنونيك	1986
23 – بالقارب إلى آرارات	فرمان ستاماتوف	حسين راجي	1988
24 – نشأة الأرمن	رفائيل إشخانيان	هوري عزازيان	1986

أدباء أرمن حلبيون أبدعوا باللغة العربية

يتبوأ الأدباء الأرمن الذين أبدعوا باللغة العربية مكانة خاصة في أدب الدول العربية إذ تركوا بصماتهم على الثقافة العربية انطلاقاً من سوريا ووصولاً إلى لبنان ومن مصر إلى فلسطين فالعراق وبريطانيا والأمريكيتين. ونجد بينهم الشاعر والقاص والمتخصص في التاريخ والباحث والصحفي ورئيس التحرير والناشر والمترجم واللغوي واختصاصيين في جميع فروع الأدب وأشكاله. ويصل عدد هؤلاء الأدباء الأرمن الذين تتراوح مستوياتهم وحجم إنتاجهم الفكري والأدبي بشكل متباين إلى حوالي 400 أديباً وقد ارتقى بعضهم إلى مستويات أدوا فيها دوراً كبيراً في زمانهم وتمكنوا من تسجيل أسمائهم في تاريخ الأدب العربي وتحتل مدينة حلب الحصة الكبرى من عدد هؤلاء ويصل عددهم إلى حوالي 100 أديب نقدم لمحة موجزة جداً عن أشهرهم وبعض إبداعاتهم لضيق المجال:

(1) شاهين كاندي: عاش في القرن 17 وكان مدير قسم المخطوطات العربية والفارسية والتركية في مكتبة ليدن في هولندة وكان ناسخاً لها في الوقت ذاته. بناء على تأكيد الباحث الهولندي هوتسما فإن أعمال شاهين الأدبية تستحق الدراسة.

(2) مكرديج الكسيح الأرمني: ولد في كلّس في القرن 17 وانتقل إلى حلب وهو من أوائل الرواد الذين درسوا الروائع العربية وساهموا في النهضة العربية. ومعظم أعماله الأدبية هي على شكل مخطوطات موزعة في مجموعات عامة وخاصة مختلفة. وكان مكرديج شاعراً ولغوياً ولاهوتياً وناسخاً مدحه مفكرون كبار في عصره كالمطران جرمانوس فرحات ونيقولاوس صائغ. لمكرديج الكسيح 10 أعمال نذكر منها: "كتاب الأهرامات" وهو كتاب لغوي يذكر في القسم الأول منه مرادفات الأسماء التي تتعلق بالسماء والنجوم والمظاهر الطبيعية وفي القسم الثاني الأسماء التي لها علاقة بالصنائع والأدوات والأسلحة بينما القسم الأخير مخصص للأسماء اللغوية والفلسفية والرياضيات والأمور الدينية. وكتاب "الطب الروحاني" وكتاب "التبر المكنوز في معرفة الكاروز" وكتاب "ظل الكمال في تثقيف الأعمال".

(3) الخوري سركيس عاش في القرن 18 وله كتاب بالعربية "تاريخ الكنيسة الأرمنية بحلب".

(4) المطران أبراهام كوبليان عاش في القرن 18 من كتبه "كتاب في الحق القانوني" و"الصعود إلى جبل الكرمل" و"أعمال المجمع اللبناني" (وهي ترجمة تحتوي على معلومات غاية في الأهمية حول حلب والمدن المجاورة لها في العقود الأولى للقرن 19 وعن الثورة الشعبية في حلب بين عامي 1819 ــ 1820 الجاهزة للنشر قريباً من قبل المطران بطرس مراياتي ومهران ميناسيان.

(5) المطران بولس آروتين عاش في القرن 18 من كتبه "أهم أحداث حلب في النصف الأول من القرن 19". وفي هذه المخطوطة أيضاً بعض الإحصائيات حول طواحين وخانات وحمامات وحارات حلب وغيرها بالإضافة إلى الصراعات العقائدية بين مسيحيي المدينة ووصف الزلزال الهائل الذي ضرب حلب عام 1822.

(6) الشماس نعمة الله دوناط عاش في القرن 18 له كتاب بعنوان "قصة زقاق الأربعين شهيداً".

(7) رزق الله حسون. شاعر ومحرر وصحفي وناسخ ورجل سياسة. ولد في حلب عام 1825 وعاش شريداً ومغامراً. سافر إلى لندن وباريس والقاهرة وله عشرات المؤلفات وأصدر العديد من الكتب والصحف من أهمها: "حسر اللثام" كتاب جدلي في حال مخطوط 1859 و"النفثات" طبع في لندن عام 1967 بـ 84 صفحة وهو ترجمة شعرية لأمثال كريلوف إلى العربية ويعتبر أول عمل أدبي مترجم من الروسية. وأشعر الشعر "ترجمة شعرية لبعض أسفار الكتاب المقدس لندن ــ 1869 وبيروت ــ 1870 و"ديوان شعر" في حالة مخطوط و"مجموعة رسائل" و"رثاء أرمينيا". أما

الصحف التي أصدرها رزق الله حسون فهي: جريدة "مرآة الأحوال" وقد كانت صحيفة سياسية أسبوعية تصدر في القسطنطينية عام 1855 أيام حرب القرم نقد فيها السلطات العثمانية نقداً لاذعاً فهرب إلى روسيا وأصدرت عليه حكماً غيابياً بالإعدام. هي أول صحيفة عربية سياسية يصدرها شخص بمفرده لذلك يعتبره الفيكونت فيليب دي طرازي المختص في تاريخ الصحافة العربية "جد الصحافة العربية". وهناك جريدة "رجوم وغساق إلى فارس الشدياق" لندن 1868 و"آل سام" 1872 لندن أول صحيفة عربية في البلدان الأجنبية "ومرآة الأحوال" لندن 1876 و"حل المسألتين الشرقية والغربية" لندن 1878 وكانت جميع أعدادها تصدر شعراً وهي ظاهرة نادرة في تاريخ الصحافة. وكان لرزق الله حسون خط جميل فقد نسخ ما ينوف على 20 مخطوطة عربية كذلك نشر قصائد حاتم الطائي في لندن عام 1872 وكان ينسخ كتبه وصحفه شخصياً ثم يطبعها. توفي رزق الله المعروف بتمرده وعشقه للحرية في عام 1880أثناء سفره في قطار لندن.

(8) الأب أنطوان خانجي عاش في القرن 19 ومن مؤلفاته: "مختصر تواريخ الأرمن" القدس 1868 وهو أول كتاب بالعربية حول تاريخ الأرمن 360 صفحة و"نبذة مختصرة في حوادث لبنان والشام" في عام 1840 و1860 بيروت 1927.

(9) جرجي بليط عاش في القرن 19 في حلب وهو أول أديب ترجم القصص القصيرة من اللغات الأوروبية إلى العربية وتعرف أدباء حلب بهذا الجنس الأدبي. وقد ترجم جرجي إلى العربية قصة "رجل ذي امرأتين" عن الفرنسية 1871 ومسرحية "بريطانيكوس" لراسين عن الفرنسية بيروت 1889.

(10) باسيل فرّا كان شاعراً موهوباً غزير الإنتاج. نشر قصائده ومقالاته في المجالات الأدبية وخاصة في مجلتي "الكلمة" و"الضاد" الحلبيتين منذ عشرينيات القرن الماضي.

(11) مكرديج ممتاز سانتو كان محامياً وعضواً في محكمة الاستئناف العليا في دمشق. أصبح صاحب امتياز ومدير مجلة "الإعلان" الأسبوعية منذ عام 1910 وكانت تصدر بالعربية والفرنسية في حلب و كانت المجلة الفنية الوحيدة في حلب في عهد الاحتلال العثماني التي تطبع مقالات وأبحاثاً حول الموسيقى والرياضة والمسرح والسينما. توفي مكرديج في دمشق عام 1933.

(12) أرداشيس بوغيكيان ولد في تركيا عام 1890 ووصل إلى حلب وهو طفل. أصبح من أبرز معاوني إبراهيم هنانو ويعتبر من زعماء الحركة الوطنية السورية. انتخب نائباً في البرلمان السورية عام 1936 وتوفي عام 1954. أسس جريدة "لسان الأهالي" عام 1910 وكانت تطبع باللغتين العربية والتركية (صدرت باسم "الأهالي" في الفترة الأولى) وصدر من الجريدتين 166 عدداً.

(13) المطـران غـريغوريوس هـندية ولـد فـي حلب عام 1891. إلى جانب كتبه ومقالاته ودراساته الدينية له بحث بعنوان شيق هو "السيف الأرمني في خدمة العربي".

(14) الأب أوجيـن بورصلي نشر كتاباً عام 1946 تحت عنوان "الصهيونية، أصلها وتطوراتها ونبوءات أنبيائها عنها". كتب في الصحافة العربية وخاصة "الشهباء" الحلبية.

(15) بطـرس قوشـاقجي آزر نجيب كنيدر في حلب عام 1921 في إصدار جريدة "المرسح" الأدبـية الأسبوعية التي لم تعمر طويلاً لأنها كانت تنتقد رجال الدين بمقالاتها الفكاهية فتم حجبها عن الصدور.

(16) فيكـتور كورنلـي كان مدير جريدة "التقدم" الحلبية في ثلاثينيات القرن الماضي وفي عام 1949 كان صاحب امتياز جريدة "الجمهورية الحلبية" فحررها لعدة سنوات. اتحدت هذه الجريدة مع جـريدة أخرى وخرجت باسم جديد وهو "الوطن" وفي العام 1950 أصبح في الوقت ذاته عضواً في هيئة تحرير جريدة "صوت التقدم" الحلبية.

(17) لـيون مراد ولد في حلب عام 1899. تولى مناصب حكومية رفيعة في وزارة الاقتصاد. أصدر مجموعة من الكتب الاقتصادية بعنوان: "دولة حلب، إفادات زراعية" ترجمة عن الفرنسية عام 1929 في 269 صفحة و"السياحة" 1931 و"اقتصادنا ين الأمس واليوم" دمشق 1941 وتنظيم تجارة القطن في سوريا" حلب 1951 وتقرير حول سوريا ولبنان".

(18) نـيكولا جانجـي (جانجيكـيان) ولـد في حلب عام 1901. أسس في عام 1932 جريدة Éclair Du Nord بالفرنسـية والأرمنية وبعد نيل البلاد استقلالها عرّبها وسماها "برق الشمال" وقد احتجبـت فـترة بأمر من الحكومة. تم دمج الجريدة مع جريدة "الشباب" وظهرت اسم "العهد الجديد" واسـتمرت بالصدور حتى وفاة صاحبها عام 1963. وكان جانجي صحفياً مستقيماً وفاضلاً ويحظى باحترام الجميع كرجل سديد الرأي.

(19) كمـيل عـريس رئـيس نقابة أطباء حلب لعدة سنوات وصاحب كتاب "تاريخ نقابة أطباء حلب" صدر عام 1975 بـ 409 صفحات.

(20) يعقـوب بطرس حرر جريدة "صوت التقدم" عام 1948 وأصبح المدير المسؤول لجريدة "السنابل" الفكاهية.

(21) جـورج جامـيج (جاميجـيان) توظـف في مديرية تربية حلب وأصدر مع مجموعة من المفكريـن العرب بين عامي 1946 ـــ 1949 مجلة خاصة بالأطفال "الطفل" وقد كانت مرغوبة من قبل الجميع وواسعة الانتشار.

(22) الأب يوسف قوشامجي ولد في حلب عام 1913. ألف وترجم 35 كتاباً تبحث في الأمور الدينية والتراثية والأدبية منها: قصة "مايريك" عن الفرنسية للمخرج العالمي والكاتب الأرمني الفرنسي هنري فيرنوي وقد تحولت إلى فيلم سينمائي مثّل فيها نخبة كبيرة من الممثلين العالميين منهم عمر الشريف (القصة حول تهجيرات الأرمن). و"الأمثال الشعبية الحلبية وأمثال ماردين" في مجلدين 1987 بـ 824 صفحة ويصل عدد الأمثال الحلبية إلى 5124 و855 مثلاً من ماردين. و"الأدب الشعبي الحلبي" حلب 1975 بـ 356 صفحة أعيد طبعه عام 1983 في حلب. ونجد في هذا الكتاب مجموعة جميلة من الأغاني الشعبية الحلبية التي دونها الأب قوشاقجي. ونشر كتاب "يوميات المعلم الشعبي نعوم بخاش" وهو كتاب ذو قيمة تراثية ـ اجتماعية ـ اقتصادية ـ تربوية ـ سياسية كبيرة حول حياة حلب في القرن 19. صدر الكتاب بثلاثة مجلدات بين عامي 1985 ـ 1992 وصدر الرابع في المدة الأخيرة وهناك كتاب "العموديون" و"المقدسات المسيحية في سوريا". توفي عام 1995.

المساهمة في الحياة الموسيقية في حلب

بعد مدة قصيرة جداً من وصولهم إلى هذه الأرض المباركة تخلصت جحافل الأرمن من الخوف وعقدة الإنسان المهاجر فشعر كل فرد منهم بالراحة فعزم على ترتيب بيته وحياته الأرمنية والاشتراك في جميع النشاطات الفكرية والبدنية في المدينة وقدم عصارة فكره وعرق جبينه في مجالات الحياة كلها تقريباً. وعندما تأسس المعهد الموسيقي العربي في حلب في ستينيات القرن الماضي كان قسم هام من المدرسين والمدرسات من الأرمن يدرسون الصولفيج والبيانو وآلة الكمان. وأخرج الموسيقيون الأرمن لاحقاً بعض الأوبرات والأوبريتات مثل أوبرا "آنوش" وأوبريت "العرس الكبير" و"آشوغ غريب" وتألفت كورالات تغني بالأرمنية والعربية وتأسست فرق رقص وفرق لموسيقى الحجرة وفرق الرباعيات الوترية وفرقتان موسيقيتان للكشاف التي تشترك في المناسبات والأعياد الوطنية وتمثل سوريا في البلدان الأجنبية. وهناك تسجيلات عديدة لحفلاتها في الإذاعة والتلفاز السوري. وهناك أيضاً مطربون ومطربات مثلوا سوريا في مسابقات عالمية وحصلوا على جوائز دولية. وعندما أسس المايسترو صلحي الوادي الفرقة السيمفونية الوطنية في دمشق اشترك خريجون أرمن عديدون في العزف في الفرقة وبعد تقاعده سلم الفرقة إلى أحد طلابه الأرمن الذي صار بعد تخصصه في إيطاليا يقود الفرقة حالياً. وغني عن التعريف أيضاً أن جميع المغنين في مطاعم حلب كانوا من الأرمن حصراً في الخمسين سنة الماضية.

مشاركة الأرمن في الحركة المسرحية والسينمائية في سوريا

كان عدم إتقان أرمن حلب اللغة العربية حتى أواخر خمسينيات القرن الماضي عائقاً يحول دون اشتراكهم الفعلي في هذه النشاطات. عاش المسرح السوري نهضة كبيرة في ستينيات القرن الماضي وخاصة عندما تأسست المسارح القومية في جميع أرجاء البلاد تحت رعاية وزارة الثقافة ولم يلبث أن جاء التلفاز ثم السينما السورية ففتحتا مجالات واسعة لذوي المواهب والوجوه الجديدة. ومن المسرحيين الأرمن المخرج الفنان كريكور كلش وهو عضو اللجنة العليا لنقابة فناني حلب وعضو اللجنة الفاحصة للفنانين، ومانوئيل جيجي الذي ترأس الوفد السوري في بعض الندوات والمهرجانات والمؤتمرات العربية والدولية وقد حاز على الميدالية الذهبية لنقابة الفنانين في سوريا عام 1985 ودرّس في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق ويدرس مؤخراً مادة المسرح في جامعة الكويت. ومن المخرجين المسرحيين أيضاً هاروتيون جنوزيان ومانوئيل كشيشيان وغيرهم. وهناك أعداد كبيرة من الممثلين والممثلات الأرمن المشهورين اشترك بعضهم في الأفلام السورية المعروفة مثل سلوم حداد ونادين وهما محترفان بينما الباقون هم من الهواة. شارك التالية أسماؤهم من الهواة في بعضا لأفلام السينمائية والتلفزيونية والمسلسلات العربية: آكوب ميخائيليان: "إكليل الشوك" و"رجال تحت الشمس" من ثلاثية "المخاض" حول القضية الفلسطينية إبان حرب حزيران وفي فيلم "الليل" لمحمد ملص و"تراب الغرباء" لسمير ذكرى وفيصل خرتش و"خان الحرير" والمسلسل التاريخي "السفر" لمازن الناخور وإخراج حاتم علي. وسمباد قسيس: في "أيام الغضب" و"تراب الغرباء" ومسلسلي "ثريا" و"إخوة التراب". ومن الوجوه النسائية هوري بصمه جيان التي مثّلت في المسرح القومي في حلب في مسرحيات "من يقتل الأرملة" و"يوم من زماننا" و"لا تدفع الحساب" و"خرج وقد يعود" وعملت في أفلام ومسلسلات تلفزيونية مثل "خان الحرير" لهيثم حقي و"ثريا" و"الحقد الأبيض" و"سفر" وغيرها. وهناك آخرون لا يسعنا ذكرهم لضيق المجال.

إلى جانب التمثيل والإخراج هناك مجالات أخرى لها صلة بالمسرح والسينما والتلفزيون نشط فيها الفنانون الأرمن. من هؤلاء الفنان الموسيقار فاهيه دميرجيان معروف كملحن للموسيقى التصويرية للعديد من الأعمال التلفزيونية والفنان جيراير رئيسيان مدير أحد المعاهد الموسيقية الأرمنية في حلب واضع موسيقى لفيلم "تراب الغرباء" والفنان خاتشيك خاتشادوريان لموسيقى مسلسل "سفر" و"باب الحديد" أما الفنان فاهيه دميرجيان فغني عن التعريف لإسهاماته الكبيرة ولسنوات طويلة في تقديم برنامج "لغة العالم" للموسيقى الكلاسيكية في القناة الثانية للتلفاز.

منذ أن وطئت رجل الأرمن على هذه الأراضي المباركة بعد طردهم من أرض أجدادهم لم يبقوا متفرجين سلبيين يائسين أمام محنتهم الكبرى فقاموا بتنظيم حياتهم الاجتماعية ولم ينسوا حياتهم

الثقافية حتى في أحلك سنواتهم عندما كانوا يسكنون في مخيمات مزرية بيوتها مبنية بالخشب والصفيح فقدموا بعض المسرحيات الصغيرة حول شجاعة الأبطال الأرمن التاريخيين لرفع معنويات المهاجرين الأرمن وشد هممهم للتخلص من عقدة الإنسان المهاجر والاشتراك في الحياة العامة للبلاد وكانت الحصيلة ظهور المسارح الأرمنية التالية بين عام 1920 ــ 1990 التي تستمر في نشاطها حتى يومنا هذا:

(1) "مسرح أنترانيك" لجمعية الجيل الجديد الثقافية في عام 1921 في مخيم الأشرفية (الداودية سابقاً) وقدم ممثلوها مسرحيات لكتاب أرمن وأجانب منها "القديس وارطان" و"أرواح شيطانية" و"نهاية المتلاعب" و"شجرة الدلب" و"فراشة الزهر" و"القضيماتي هرهور آغا" و"مجنون ليلى" و"فارتانانتك" و"أن يصل متأخراً أفضل من ألا يصل" و"هاملت" لشيكسبير وغيرها. وقد نشطت هذه الجمعية مسرحياً بعد السبعينيات على وجه الخصوص عندما استلم إدارة الفرقة المسرحية المخرج كربيس ليبيجيان وكانت الحصيلة المسرحيات التالية بين عامي 1977 ــ 1999:

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
المفتش العام	غوغول	هاروتيون جنوزيان	1977
الفيزيائيون	فريديريك دورنمات	هاروتيون جنوزيان	1978
القديس وارطان	سمباد بيوراد	مانوئيل كشيشيان	1979
المتسولون الشرفاء	هاكوب بارونيان	مانوئيل جيجي	1980
الرسالة المفقودة	أيون لوقا كارجيالي	كربيس لبه جيان	1982
قلبي في الجبال	وليم سارويان	كربيس لبه جيان	1982
خالة تشارلي	توماس برانتون	كربيس لبه جيان	1995
آرشيل غوركي	كربيس لبه جيان	كربيس لبه جيان	1996
آدم وحواء	زودور شتوك	كربيس لبه جيان	1999

(3) "فرقة زاواريان" تأسست عام 1936 وهي تابعة لنادي الشبيبة السورية الثقافي:

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
لتكن متأخرة ولكن حلوة	كراكين يريتسيان	بارسيغ آبو فيان	1936
القديس وارطان	سنباد بيوراد	كريكور بارصوميان	1936
الصديق الوفي	أرمين هايكوني	كريكور بارصوميان	1937
محاكمة طلعت باشا	كريكور بارصوميان	كريكور بارصوميان	1938
الملك ديكران الأول	هاكوب بويخوقيان	كريكور بارصوميان	1938
في سبيل الحرية	أواديس أهارونيان	كريكور بارصوميان	1942
العودة	جورج ريفولييه	كريكور بارصوميان	1944
المنافق	هاكوب بارونيان	روبين بارصوميان	1949
كورّادو	باولو جياكومنتي	إخراج جماعي	1959
مقالب سكابين	موليير	روبين بارصوميان	1962
الزوج المخدوع	موليير	روبين بارصوميان	1964
الأسعد بين الثلاثة	أوجين لابيش	روبين بارصوميان	1968
صانع المطر	ريتشارد ناش	هاروت جنوزيان	1981
لم ينضج بعد	دي فون فيزن	كريكور كلش	1982
موتى بلا قبور	جان بول سارتر	مانوئيل كشيشيان	1983

(3) "مسرح ليون شانط" تأسس عام 1959 في حي الصليبة بعض أعماله المتفرقة:

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
من أجل الشرق	شيرفانزاديه	سركيس كلش	1961
كورّادو	جياكو متّي	بيدروس كلش	1966
وادي الدموع	أواديس آهارونيان	وارانت دافيتيان	1947
بيبو	كابرئيل صندوكيان	واروجان خدشيان	1976
أيام الآلهة	بيرج زيتونتسيان	هاروت جنوزيان	1983
الكوميديا السوداء	بيتر شامز	هاروت جنوزيان	1983
دون جوان	موليير	جان فرّا	1984
المقهى	كارلو كولدوني	جان فرا	1985
سولنيس المعماري الشهير	هنريك إبسن	هاروت جنوزيان	1992
زواج على الطريقة الإيطالية	إدوار دو دي فيليبو	هاروت جنوزيان	1996
المفتش	غوغول	هاروت جنوزيان	1998
الكوميديا السوداء	بيتر شافر	هاروت جنوزيان	1999

(4) "فرقة رازميك لمسرح الأطفال" تأسست عام 1992 في نادي الشبيبة السورية الثقافية

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
العقد المسحور		زوهراب يعقوبيان	1992
السحرة والدب	سورين هاروتيونيان	كريكور كلش	1994
الولد الطيب	آزاد شاهينيان	كريكور كلش	1995

دمى الهراوة	فريديريك غارسيا لوركا	هاروت جنوزيان	1996
الديك الشجاع	أوهانس طومانيان	هاكوب قصابيان	1997
البلبل الخارق	أوهانس طومانيان	هاكوب قصابيان	1998
مكر الفئران	توليفة مسرحيات	هاكوب قصابيان	1999
أناس بلا طفولة	أنترانيك زاروكيان		2000

(5) "فرقة نادي الشبيبة المثقفة" تأسست عام 1960 في حلب

المسرحية	المؤلف	المخرج	العام
العصا	فاهيه كاجا	مانوئيل كشيشيان	1992
زوجة ملا	يروانت أوديان	مانوئيل كشيشيان	1993
ثقيلة قبعة أبقراط	وارتكيس بيدروسيان	مانوئيل كشيشيان	1995
حقاً تغير العالم	آرام آشود بابايان	مانوئيل كشيشيان	1997
المنافق	هاكوب بارونيان	مانوئيل كشيشيان	1998
خطوبة حلبية	مانوئيل كشيشيان	مانوئيل كشيشيان	1998
الدوامة	مانوئيل كشيشيان	مانوئيل كشيشيان	1999

(6) "مسرح آتاميان" تأسس عام 1933 في الجمعية الخيرية العمومية الأرمنية شارع بارون.

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
يوليوس قيصر	وليم شيكسبير	خاجير كالوستيان	1934
هملت	وليم شيكسبير	خاجير كالوستيان	1935
مجنون ليلى		خاجير كالوستيان	1941
الأخ بغده صار	هاكوب بارونيان		1959

أوبرا آنوش	طوميان ــ ديكرانيان	كريكور كلش	1970
مطلوب كذاب	بشاتس	كريكور كلش	1971
الدب المفجوع	تشيخوف	كريكور كلش	1972
توباز	مارسيل بانيول	كريكور كلش	1972
هواية الحيوانات الزجاجية	تينيي وليامز	كريكور كلش	1972
أبناء الغابة الكبيرة	ريتشاردسون	كريكور كلش	1972
السلاح والإنسان	جورج برنارد شو	كريكور كلش	1975
بيت الدمية	هنريك إبسن	كريكور كلش	1976
الأرملة الماكرة	كارلو كولدوني	كريكور كلش	1977
الكذاب	كارلو كولدوني	كريكور كلش	1979
شجرة الصفصاف	ي. شفارتس	كريكور كلش	1977
قلبي في الجبال	وليم ساروبان	هاروت جنوزيان	1987
الرجل الذي حارب نفسه	لؤي عيادة	هاروت جنوزيان	1987
الحسناء والوحش	سيرغي أكساكوف	لانا أدروني	1990
المدينة المليونيرة	إدواردو ده فيليبو	هاروت جنوزيان	1991
عطيل يعود	نيكوس كازاندزاكيس	هاروت جنوزيان	1992
ملكة الثلج	هانس أندرسون	لانا أدروني	1993
الفيلسوف	قسطنطين راتسر	نيقولاي دزادوريان	1995
موت كيكوس	أوهانس طومانيان	صامصون ستيبانيان	1996
سندريلا	شارل بيرو	صامصون ستيبانيان	1977
الثعلب والعنب	فيديريتسو	نيقولاي دزادوريان	1998
مغامرات بوراتينو		صامصون استيبانيان	1998

(7) "فرقة جمعية المعري ـــ تكيان الثقافية" تأسست عام 1959 في حلب:

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
أوبريت آشوغ غريب		نهابيت ناركيزيان	1959
الليدي إزابيل		نهابيت ناركيزيان	1961
ليلى مجنون		نهابيت ناركيزيان	1964
من أجل الشرف		نهابيت ناركيزيان	1972
الكوميديا الإنسانية	مانوئيل كشيشيان		1985
دقي أيتها الأجراس	فاجيه أدروني		1987

(8) "فـــرقة هـــاكوب بارونـــيان الخاصـــة" تأسست في بيت عربي في حيّ الميدان عام 1969 وروبين بارصوميان هو مؤسسها والمشرف عليها:

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
طبيب الأسنان الشرقي	موليير	روبين بارصوميان	1970
العم بغده صار	هاكوب بارونيان	روبين بارصوميان	1971
طبيب رغماً عنه	موليير	روبين بارصوميان	1972
طبيب الأسنان الشرقي	هاكوب بارونيان	روبين بارصوميان	1978

(9) "فرقة وارطان عجميان" التابعة لجمعية دار التربية الثقافية التي تأسست عام: 1979

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
عجباً		هاروت جنوزيان	1979
العم بغده صار	هاكوب بارونيان	هاروت جنوزيان	1980
غبار العيون	أوجين لابيش	روبين بارصوميان	1982
ناظار الشجاع	تيرينيك ديمرجيان	كريكور كلش	1984
الشهية	ألمر إنسون	هارون جنوزيان	1985

المليونير	يوردان يودكوف	هاروت جنوزيان	1999

(10) "فرقة أوهانيس طومانيان" عام 1988 وهي تابعة لمطرانية الأرمن الكاثوليك:

المسرحية	المؤلف	المخرج	عام
كيكور	أوهانيس طومانيان	هاروتيون جنوزيان	1988
الحافلة	آزاد شاهينيان	مانوئيل كشيشيان	1990
مايريك	هنري فيرنوي	مانوئيل كشيشيان	1995
عائلتي	إدواردو دوفيليبو	هاروت جنوزيان	1988

علـيَّ الإشارة أيضاً بأن المخرجين المسرحيين الأرمن يعملون في المسرح القومي بحلب وفي بعض الفرق المسرحية العربية أيضاً.

ظهور وتطور التصوير الضوئي - الفوتوغرافي في الشرق الأوسط

الأرمـن هـم أول مـن أدخل تقنية التصوير الضوئي إلى منطقة الشرق الأوسط بالإضافة إلى امـتلاكهم ناصـية هذه المهنة وسيطرتهم عليها بشكل مطلق لفترة طويلة جداً في كافة بلدان المنطقة وخاصـة بعـد ازديـاد الاهتمام بالصور القديمة من قبل المؤرخين والباحثين الاجتماعيين والأثريين والتاريخيين. وقد جرى أول تصوير فوتوغرافي في العالم من قبل العالمين الفرنسيين داكر ونيبسه فـي عـام 1826 وبدأ انتشار الصور الفوتوغرافية الفعلي بعد عام 1840. وأول ظهور قصير لهذه التقنـية في منطقة دمشق كان من قبل الفرنسي فريديريك غوبل فيسكيه عام 1839 باستخدام كاميرا "داكر" وأول صورة التقطت في المنطقة كانت لحاكم مصر محمد علي باشا. ويعتقد بأن أول احتكاك للأرمـن بالتصوير الفوتوغرافي كان في عام 1856 من قبل الشاب عبداليان فيكين الذي تعلم المهنة مـن الألمانـي رابـاخ فـي القسطنطينية وأصبح وشقيقه لاحقاً مصوري بلاط السلطان عبد العزيز الرسميين. وقد وصلت شهرة الأخوين إلى درجة تلقي دعوات من ملك ألمانيا فريديريك الثالث وملك هـنغاريا فريديـريك جوزيـف وولي عهد إمارة ويلز البريطانية إدوارد الثالث ومحمد علي باشا في القاهـرة لتصـويرهم. ومـن المصورين الأوائل في المنطقة يسايي قره بيتيان ــ 1857 في القدس وليكيجـيان ــ 1868 في القاهرة وهناك عشرات المصورين الأرمن حتى نهاية القرن 19 في جميع المـدن العثمانـية الرئيسية لا نجد ضرورة هنا لذكرهم. وأول مصور ضوئي استقر للعمل في حلب هو كريكور مصرليان في عام 1880. وقد عمل في المدينة حتى الستينات من القرن الماضي كوكبة مـن المصـورين الفنانين مثل كولبنك وزوجته راميلا وهاروتيون زولوميان (الذي نزح إلى باريس وكـان من أشهر الرسامين الفرنسيين وله مدرسته الخاصة في الفن الفرنسي لذلك تم اختياره عضواً

فــي أكاديمـية الخالدين في باريس) وأونيك رئيسيان وخاتشيك آراراتيان ونوبار وأواديس شاهينيان وديرونـــيان وغيرهم العديدين. أدخل الأرمن فن التصوير الفوتوغرافي في المدن التالية: القسطنطينية ــ 1856 والقــدس ــ 1857 وطوكــات ــ 1890 وآماسيا ــ 1895 وسيواس 1898 وخربوط ــ 1880 ومــرعش ــ 1884 وأدنة ــ 1894 وعينتاب ــ 1884 وحلب ــ 1880 والموصل 1892 وبيروت ــ 1893. وللمزيد من التفصيلات:

Dickenson Jenkins Miller (Armenians and the Growth of Photography in the Near East 1857-1981) Center for Arab and Middle East Studies, A.U.B. Beirut.

Ter-Sarkissian, P.Kebabjian, J.C.Pazoumian (Scenes et Portrait,1880-1930)

36 rue de Trevise, Paris-75009

الحركة الرياضية بين الأرمن

دخلــت الرياضـــة الحديـــثة فـــي مقررات المدارس الأرمنية قبل 100 عاماً تقريباً على شكل "الحــركات الســـويدية" وخاصة بعد أولمبياد ستوكهولم في عام 1912 وصدرت أول دورية رياضية أرمنــية عام 1911 في القسطنطينية باسم "الرياضي". وبعد بضع سنوات فقط دخلت لعبة كرة القدم في الحياة الرياضية الأرمنية عن طريق الإنكليز وتأسس أول ناد رياضي أرمني في القسطنطينية في عـــام 1921 ثم تأسست نواد عديدة في جميع مناطق تواجد السكان الأرمن في المدن التركية قبل عام 1915. تأسســت أولى النوادي الرياضية في حلب بعد الهجرة الجماعية للأرمن بين عامي 1915-1930: فـــي عام 1925 تشكلت 4 نواد من طلاب ميتم الأرمن التي اتحدت وشكلت فريقاً واحداً هو "نـــادي الـــيرموك" الحالـــي. وتشـــكل نـــادي باســـفرجان أول العهد الجديد عام 1929. وكان نادي "الهومنتمـــن" أو الـــيرموك ذا شـــهرة واســـعة لـــيس في حلب فحسب بل في منطقة الشرق الأوسط وخارجهـــا لأنـــه كان ينظم المهرجانات الرياضية السنوية في الملعب البلدي في حلب ابتداء من عام 1926 يشـــترك فـــيه 13 فـــريقاً من فروعه المختلفة في الدول العربية والأجنبية إلى جانب الكشاف وفرقـــته الموسيقية ورياضيي مختلف الألعاب وكان يحضره رجال الدولة الرسميون وحشد كبير من محبـــي الرياضـــة. وقد برع فريقا الباسفرجان والهومنتمن وتتابعا على حيازة بطولة سوريا في كرة القـــدم مدة 25 سنة بشكل متواصل حتى بداية 1970. وهناك فرق عديدة أرمنية في كرة القدم والسلة وغـــيرها لا مجـــال لذكـــرها. وعلـــيّ التنويه هنا أيضاً بأن نواة فرق كرة القدم في الجيش العربي الســـوري والشرطة والدرك في الفترة الأولى لتشكلها ولسنوات طويلة جداً كانوا من اللاعبين الأرمن الذيـــن طارت شهرتهم خارج حدود الوطن وكان لهم دور حيوي لترغيب الناشئة العربية في الدخول إلـــى الحركة الرياضية في حلب على وجه الخصوص التي تعتبر عن حق موطن الرياضة السورية

الأم. وقد أصدرت النوادي الأرمنية مدة طويلة جرائد ومجلات رياضية وقدمت أخبار الرياضة في المشرق العربي والعالم منها "أزتاك سبور" و"آرارات سبور" وزارتونك سبور" في بيروت و"أريويللك مارزاشخاره" في حلب وغيرها ووصل عددها إلى 10 دوريات. وبمقدور القارئ العربي الرجوع إلى المجلات الرياضية Le Echo du Damas و Le Echo Du Syrie و Le Matin وفيها إشارات إلى نجاحات النوادي الأرمنية في المشرق العربي إلى جانب "الفيحاء" و"الأيام" و"الموقف الرياضي" والجرائد الحكومية السورية الأخرى.

الضباط القادة الأرمن في الجيش العربي السوري

جاء في العدد 6583 و6602 لعام 1945 من جريدة التقدم الحلبية ما يلي:

(1) من أنباء العاصمة: نقل نائب الزعيم هرانت Hrant من قيادة اللواء الأول في دمشق إلى قيادة اللواء الثاني في حلب وعهد إليه إضافة لقوات الدرك في سوريا الشمالية مديرية شرطة حلب بدلاً من نائب الزعيم حسن البحرة الذي نقل إلى دمشق. وتسلم صباح أمس مهام مديرية الشرطة وباشر بأعماله فور تسلمه الوظيفة....

من أنباء العاصمة أنه تقرر تعيين نائب الزعيم هيرانت (مالويان) رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش السوري وتعيين السيد رياض الميداني مديراً لشرطة حلب.

(2) اللواء آرام قره مانوقيان كان القائد العام للمدفعية السورية ومن مؤسسيها وعضو هيئة الأركان العامة بين عامي 1949-1950 وخريج الأكاديمية العسكرية الفرنسية ومن الذين اشتركوا في حرب فلسطين عام 1948. وقد عينت قيادة الجيش الإسرائيلي في حينه مبلغ مليون ليرة سورية لمن يقتله أو يأسره حياً لدقة إصابة مدفعيته لأهداف العدو. وقد مُنح أرقى الأوسمة من قبل الحكومات السورية واللبنانية والمصرية ومنحته الحكومة الفرنسية وسام الشرف من الدرجة الأولى ثم انتخب عضواً في البرلمان السوري عام 1961 عن حلب. وفي عمر متقدم وبعد تقاعده جهز آرام بحثاً لنيل الدكتوراه من جامعة السوربون بعنوان "الأجانب في الجيوش الوطنية" فنصح اللواء أمين النفوري قيادة الجيش بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية بسبب إغنائه للمكتبة العسكرية.

ومن الضباط القادة الأرمن الآخرين نذكر العميد ألبير كيليجيان المشهور بشجاعته وإقدامه والرائد جوزيف بيراميان والنقيب كريكور هندويان وغيرهم.

النواب الأرمن في المجلس النيابي السوري

(1) فتح الله أسيون (2) نيقولا جانجي عام 1928

(3) نيقولا جانجي (4) هراج بابازيان (5) موفسيس دير كالوستيان (6) هنري هندية 1932

(7) بدروس ميللتباشيان (8) هرانت سولاهيان (9) موفسيس دير كالوستيان (10) أرداشيس بوغيكيان (11) هنري هندية وزيراً للمالية 1936 (12) نظاريت يعقوبيان (13) موفسيس سلاطيان (14) هراج بابازيان (15) ثابت عريس وزيراً للدولة 1943 (16) فريد أرسلانيان (17) عبد الله فتال (18) ديكران جراجيان (19) فويس هندية 1947 (20) فتح الله أسيون (21) ديكران جراجيان (22) إيتيان هندية عضواً في المجلس التشريعي 1949 (23) كريكور أبليغاتيان 1953 (24) كريكور جراجيان 1954 (25) كريكور أبليغاتيان (26) اللواء آرام كارامانوكيان (27) كريكور أبليغاتيان 1961 (28) كريكور أبليغاتيان (29) روبين ديراريان عضواً في المجلس التشريعي 1971 (30) ليون غزال 1973 (31) كريكور أبليغاتيان 1977 و1981 و1985 و1982 (32) سيمون ليباريان 1995 و1999 (33) سومبول سومبوليان 2003.

شوارع في حلب تحمل أسماء شخصيات أرمنية مرموقة

بسبب نشاطهم الواسع ودورهم العملي الفعّال في مختلف مجالات الحياة كرّمت الدولة السورية الجالية الأرمنية الوفية المخلصة فأعادت تسمية بعض شوارع حلب الرئيسة بأسماء بعض الأعلام الأرمن مثل: شارع عميد الطب الحلبي أسادور ألطونيان وشارع الملحن الموسيقي العالمي آرام خجادوريان وشارع الكاردينال أغاجانيان الذي كاد ينتخب بابا للكنيسة الكاثوليكية في روما وشارع الكاثوليكوس زاريه الأول الذي وقف مع الحكومة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي وشارع الدكتور زاريه أرسلانيان وشارع رزق الله المعروف بأنه مؤسس صحيفة عربية خاصة في المغتربات.

مساهمات الأرمن في مجالات البناء والتعمير

مساهمات المهندسين والمتعهدين الأرمن أكثر من أن تحصى لذلك أقدم باقة من أشهرها:

قصر الحكومة في حلب 1936 على الجهة المقابلة لمدخل قلعة حلب، ومبنى قيادة الدرك في حي الجميلية الذي تحول إلى بناء للمحاكم المختلطة لاحقاً، وقصر الناعورة مكان المتحف الوطني الحالي وجسر على نهر قويق في نهاية شارع بارون، وأربعة جسور على طريق حلب ـ المسلمية ومستشفى ضخم للأمراض الزهرية قرب محطة الشام تحول إلى مستشفى للعيون (مستشفى الرازي الحالي) وشق طريق معبد بين حارم ـ يني شهير ـ عين دلفي ـ تليب مع تشييد بعض الجسور.

قدمت عائلة يعقوبيان المؤلفة من مهندسين ومتعهدين كبار على مستوى الشرق الأوسط خدمات كبيرة جداً في مجال البناء نذكر أهمها: شق شارع بغداد في دمشق ـ 1924 وتشييد المبنى المركزي لجامعة دمشق ـ 1928 وشق طريق دمشق ـ القنيطرة 66كم ـ 1929 وبناء المستشفى العسكري الكبير في منطقة المزة ـ 1930 وقصر حسن باشا الأطرش في السويداء ـ 1936 وشق

طـريق السويداء ــ أزرع 22كم ــ 1940 وتشييد بناية وزارة المواصلات ــ 1943 وبناء عملاق الشـركات السـورية وتحديداً بناية الشركة الخماسية وشق طريق الست زينب في العام ذاته وتشييد مجمـع سـميراميس المؤلـف من الفندق الشهير وسينما العباسية وحوانيت عديدة والقيام بالترتيبات الأولـية لمـد أنابيـب شـركة التابلاين البترولية (بين) من الحدود السورية الجنوبية وحتى الجنوب اللبنانـي ــ 1951 وشـق طـريق المالكي 4كم ــ 1953 وتشييد مراكز ضخ بترول شركة I.P.C قـرب تدمـر وبعـض سـاحات العاصـمة ــ 1956 وبناء سد جعيدين الكبير على نهر العاصي وأوتوسـتراد دمشـق ــ المطار 35كم ــ 1965 وأوتوستراد المزة العريض وأوتوستراد دمشق ــ حمـص 160كـم ، 1970 ومسـتودعات silo الحبوب الباطونية في جميع مناطق البلاد ــ 1970 وجسـر الرستن 36م على نهر العاصي ــ 1977 وتزفيت طريق دمشق ــ حمص ــ حلب 360كم ــ 1978 ونصـب الجـندي المجهول ــ 1985 وتشييد فندق فرات الشام في دير الزور ــ 1989 ومشاريع ضخمة جداً في بقية أنحاء سورية والسعودية والإمارات العربية المتحدة وغيرها.

المهن والحرف اليدوية وبعض الصناعات التي أدخلها الأرمن إلى حلب

جهـاز للتصـوير بأشعة رونتغن أو X عام 1897 (ج. أسادور ألطونيان) والتصوير الضوئي عـام 1880 (مصرليان وحلاجيان) وأدخلوا أول سيارة إلى حلب عام 1909 (جورج الأحول) وأول شـخص حصـل علـى شهادة سواقة (الميكانيكي الأرمني لدى الألمان غالب مختار). أدخلوا المهن التالـية في المدينة للمرة الأولى (الخراطة ومختلف طرق اللحام والبرشيم وصناعة بطاريات الآليات والسـيارات وتصـنيع وتصـليح قطـع السيارات والحصادات والتراكتورات وأضواء كهربائية من الفـانوس المضـيء بغاز الكبريت ومؤشرات ضوئية مختلفة للتأكد من صحة عمل المحرك وإبراز الأعطـال وجهـاز تأميـن الشـرارة للبنزين وبذلك ظهر معلمون لكهرباء الآليات ولف المحولات (الديـنامو) بسـبب غلاء النماذج الأوربية. وأدخل أول تراكتور إلى سوريا في منطقة تل السمن في عام 1926 وكان معظم عمال الخط الحديدي البغدادي ومهندسيه في هذه الحقبة من الأرمن وبعد مدة قصـيرة ظهـر الصـواجون ونجارو صناديق الشاحنات الكبيرة المدعومة بمساند حديدية وصناعة القاطـرة ــ المقطـورة التـي كانت تصنع محلياً حتى السنوات الأخيرة. وفي فترة الحرب العالمية الثانـية نجـح المهنـيون فـي صنع الغلاف الخارجي لسيارات البيك آب وكان بمقدورها السفر إلى أقاصـي الجزيـرة السورية. إلى جانب ذلك صنع المعلمون الأرمن الدافعات (الباستونات) لمحركات المـاء مـن الألمنـيوم كما قاموا بتصليح مسننات نقل الحركة (علبة الفيتيس) التي تحتاج إلى مهارة وحـذق كبيريـن. وأيضـاً صـناعة مـراجل الحمامات الضخمة وأجهزة التقطير المختلفة ومكابس ضـاغطة بقـوة 600 طناً وإنتاج معدات ولوازم طبية بما فيها الأيدي والأرجل الاصطناعية وعيون بلاستيكية ومحولات ومنظمات كهربائية مختلفة ومغناطيس قوي لاستخراج المواد المعدنية من باطن

العين أثناء العمل الجراحي وأجهزة أطباء الأسنان وتصليح المذياع وصنع مضخات ماء آلية ومطاحن مختلفة لطحن البذور وكسارات حجر ومدافئ حطب وكهرباء وغاز مع أنابيبها وتدفئة مركزية وبرادات ومحركات تدور بطاقة البخار وآلات لضخ الغاز وجبالات الإسمنت الآلية وصناعة حفارات ضخمة لاستخراج المياه الجوفية. وساهم المهندسون الأرمن في عمليات تركيب وتشغيل العنفات الثمانية لسد الفرات الكبير وتأسيس معامل البلاستيك وصناعة قبابين لحمولات كبيرة وهناك براءات اختراعات عديدة مسجلة لدى هيئات الدولة المختصة. وقد وصل الأمر إلى درجة أن ألف بعض هؤلاء المعلمين كتب لتعليم الناشئة المهن المختلفة كالخراطة والفريزة. ومن المهن الأخرى استخراج الزيت من الزيتون بالآلات الحديثة وصناعة النحاسيات للمطابخ والزينة. علاوة على ذلك كان جميع فنيي مؤسسة السكك الحديدية والكهرباء وشركة المياه من التقنيين الأرمن وتبوأ بعضهم منصب المدير العام للشركة. وأدخل الأرمن المهن التالية كالزينكوغراف والصياغة والنجارة الفنية وتصليح الألبسة العتيقة وأعمال الإبرة وصناعة السجاد والكوي على البخار وافتتحوا أول مدجنة ومعمل تفقيس للبيض عام 1927 والخياطة الأوروبية الحديثة وصناعة الأحذية المختلفة وكانوا الوحيدين في الشرق الأوسط في صناعة أحذية كرة القدم. ومن الأمور اللافتة للنظر أيضاً بأن معلمي المهن لم يبقوا سر مهنهم طي الكتمان بل قدموا كل ما عندهم من خبرة للشبان العرب والأكراد الذين يعدون بالآلاف على كامل مساحة البلاد اليوم. من الصناعات التي برع فيها الأرمن أيضاً صناعة الجلود فقد أسس أوهانس دباغ معمله الكبير مكان قبر هنانو الحالي في عام 1906 وصناعة الأثاثات المنزلية اليدوية الباهرة ومعمل للزبدة ومعامل للمنسوجات المختلفة وصناعة السجاد والبسط وصناعة الطرابيش الحمر وكويها وقولبتها فقد توفي آخر معلم أرمني في هذه الصناعة قبل عقدين تقريباً من أيامنا. وهناك أيضاً صناعة الأمشاط من الخشب والعظم التي زالت وصناعة سكب مختلف أنواع المعادن وخراطتها وتسويتها والحفر على النحاس وصناعة القوالب الصناعية وتصليح الساعات الجدارية واليدوية والكوي على البخار وصناعة الأطراف الطبية. وكانت النساء الأرمنيات وخاصة في الفترة الأولى للهجرة إلى سوريا يعملن "بشغل الإبرة" فهو عمل فني رائع ويتطلب جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً وكانت تصدر هذه القطع إلى الولايات المتحدة على وجه الخصوص وكانت تدر مالاً وفيراً لسد حاجات البيت اليومية.

في المجال الصحي

مستشفى آلتويان عام 1911

مستشفى جيه يان الجراحي الصغير 1922

مستشفى كولبنكيان للتوليد عام 1925

مستشفى روبيرت جيه جيان العيني 1950

مستشـــفى عربيان 1970 وغيرها من المستشفيات إلى جانب المستوصفات والمصحات والميتم ودار العجـــزة. وكان معظم أطباء وصيادلة حلب في بداية القرن الماضي من الأرمن 30 طبيباً و15 صـــيدلية و10 أطـــباء أســـنان و3 أطـــباء عيون وجميع الممرضات في مستشفيات المدينة الأرمنية والمحلـــية مـــن الفتيات والنساء الأرمنيات. تبوأ بعض الأطباء الأرمن الرئاسة الفخرية لنقابة أطباء حلب (آسادور آلطونيان) ومنصب مدير الصحة (ليفون بابازيان عام 1922).

المصادر المستخدمة

1 ــ "أدبـــاء أرمـــن حلبـــيون أبدعوا باللغة العربية" مهران ميناسيان كتاب كيغارت ــ 2000 السنوي.

2 ــ " تاريخ أرمن حلب"، المطران أرادفازد سوريامان الجزء 2، باريس ــ 1950.

3 ــ "الجاليات الأرمنية في البلاد العربية" م. هوري عزازيان دار الحوار، اللاذقية ــ 1993.

4 ــ (صـــفحات وثائقـــية مـــن جـــريدة التقدم الحلبية 1908 ــ 1947 حول الأحوال الأرمنية والعربية في الدولة العثمانية والبلاد الشامية) د. ألكسندر كشيشيان دار طلاس ــ 1995.

5 ــ "قـــراءة في تاريخ الترجمة الأرمنية ــ العربية في سوريا ــ المطران بطرس مراياتي ــ 2000").

6 ــ الكتاب السنوي "كيغارت" للأعوام 1975 ــ 2002.

7 ــ (الكلمات العربية في اللغة الأرمنية) د. ألكسندر كشيشيان كتاب "العاديات" 2003.

8 ــ محمد هلال دملخي (مسرح حلب في مئة عام 1900 ــ 2000) حلب ــ 2001.

الساعات الشمسية
في مباني حلب القديمة

أمل الحريث

***لم** يكن للوقت أهمية تذكر عند الإنسان البدائي، فقد كان يؤقت نشاطاته اليومية اعتماداً على شروق الشمس وغروبها، وعلى ساعته البيولوجية، أي تبعاً لحالة الجوع في معدته. ولو تيسر لأحد سكان ذلك الزمن الغابر أن يحصل على أدق أنواع الساعات لما كان به حاجة إليها.*

لقد كانت حياته بسيطة خالية من القيود والالتزامات، فهو لا يستيقظ من نومه إلا عند شروق الشمس، ولا يأوي إلى كهفه إلا عندما يخيم الظلام، يأكل عندما يجوع دون تحديد لأوقات وجباته اليومية، ولم يكن يغنيه في قليل أو كثير أن يعرف الوقت أو في أية ساعة هو من ساعات النهار أو الليل.

ومع تطور الحياة بدأ الإنسان يشعر شعوراً غائماً بسريان الوقت ووجود علاقة ما أو شيء ما يسير، وأن لهذا علاقة بالمكان وبه نفسه، إذ بدأ يلاحظ تبدل أوقات النهار والليل وتبدل مواقع الشمس والقمر وتغير أماكن النجوم. وبدأ يراقب ظهور هذا الحيوان وغيابه ووقت هروبه واختفائه، وذلك في عهد المشاعية البدائية، فأصبحت هذه المعرفة شيئاً جوهرياً في حياته، وبدأ يضع إشارات معينة لرصد هذه الأوقات وكيفية التعامل والسلوك تجاهها[1].

وعندما عرف الزراعة وأصبحت الحاجة ملحة لمعرفة مواقيتها وأيامها وأوقات الحراثة والحصاد، صار يحدد بصورة أكثر وضوحاً هذه المعايير لتحديد الأوقات، إلى أن اقترب من تحديد الوقت تحديداً دقيقاً، وبدأ يشعر بضرورة أدوات ترصد هذا التحديد وتعطيه الوقت الصحيح أو القريب من الصحة[2].

(1) مجلة الفيصل: أسرة التحرير، العدد /26/ يوليو 1979م ص 92.

(2) المصدر السابق: ص 92.

وقد لعبت الظواهر الطبيعية آنذاك دوراً أساسياً في تحديد الوقت، واستطاع إنسان ذلك الزمن أن يعتمد على تلك الظواهر وأن يتخيل الطرق والوسائل لقياس الوقت بهدف التعامل اليومي في الحياة العملية وضروراتها، معتمداً في ذلك على الشمس والنجوم والظل[3].

فقد فرضت ظاهرة شروق الشمس وغروبها على الإنسان منذ القديم فترات زمنية معينة، فعمل في النهار ونام في الليل. ثم لاحظ أن أعماله التي ينجزها في النهار أو الليل تستغرق أوقاتاً معينة دعته ضرورات الحياة اليومية لقياسها. وثمة طريقة لقياس الوقت عرفت عند الإنسان القديم، عندما تكون الشمس مرئية بعد الزوال، وأكثر سكان البوادي، كانوا يستخدمونها قبل أن تتوفر الساعات لديهم. وهذه الطريقة صحيحة ومطبقة على أدق القواعد العلمية، فهم يضعون أيديهم على هيئة معينة، ويرصدون ظل إحدى السبابتين الواقع على الأخرى فيعرفون الوقت.

والطريقة المتبعة في تحديد الوقت من خلال النجوم تتم عندما نتصور أن سماء الشمال تبدو وكأنها ساعة مركزها النجم القطبي، وأن هذا الوجه مقسم إلى اثني عشر قسماً متساوياً. وبدلاً من ترقيم الأقسام هذه من 1 إلى 12 نضع أسماء شهور السنة في ترتيب يضاد اتجاه عقارب الساعة، بحيث يكون مارس "آذار" في قمة القياس، ويكون إبريل "نيسان" في الوضع الحادي عشر، ومايو "أيار" في الوضع العاشر، وهكذا تمثيل شهور السنة الاثني عشر كلها[4].

أما قياس الوقت بوساطة الظل، فله طرق عديدة أدركها الإنسان عندما لاحظ وجود صلة بين حركة الشمس والتوقيت، من خلال ملاحظته لتغير طول ظل الأشجار والصخور والجبال مع حركة الشمس الظاهرية من الشرق إلى الغرب. ففي الصباح يكون هذا الظل طويلاً ثم يأخذ بالقصر حتى تعتلي الشمس قبة السماء، ليأخذ بالطول، ولكن باتجاه معاكس حتى الغروب، فما كان من الإنسان إلا أن غرس وتداً في الأرض واستخدمه لقياس وقته، وهكذا كانت لديه ثلاث فترات واضحة في النهار: الصباح والظهيرة والمساء أوحت هذه إلى السومريين بفكرة تقسيم اليوم إلى ست ساعات، ثلاث للنهار، وثلاث، لـ الليل. وكان البعض يقيس الوقت برقعة الشمس على الأرض أو الجدار، قبل الظهر، ثم هم مضطرون كذلك أن يقيسوا عصراً بظل الإنسان على الأرض، بحيث يقف المعني بقياس الوقت في الشمس في بقعة مستوية من الأرض، ثم يقيس بقدمه، ليعرف الوقت[5].

*الساعات

بقي الإنسان يتطور رويداً رويداً، واستطاع معرفة معالم كثيرة عن الزمن، ثم حدد دورة الفصول والأشهر والسنة، واختلاف السنة القمرية عن الشمسية ومقدار الخلاف؟ وبتقدم الوعي

(3) مجلة الكويت: إحسان محمد جعفر، العدد /91/ مارس 1990 ص 101.

(4) المصدر السابق: ص 104.

(5) المصدر السابق: ص 104.

والفكر وبتطوير علاقات إنتاج جديدة، واكتشاف علاقات زمنية أكثر، تجددت الأدوات البسيطة واستطاع الإنسان في النهاية اكتشاف الساعة الشمسية والمائية والرملية:

1. الساعة الشمسية: ربما كانت هذه الساعة أول أداة صنعها الإنسان لمعرفة الوقت، وتدعى (المِـزْوَلَة) لأنها تعتمد على زوال ظل شاخصها ليكون وقت الظهر. ويرجع تاريخها إلى 3500 ق.م. وتتألف في أبسط أشكالها، من عصا عمودية أو شاخص رأسي مغروس في الأرض. ويتحدد الزمن بتحديد طول الظل الساقط للعمود على الأرض، أو على المستوى الأفقي، وهكذا فإن المزولة تحدد الوقت بحركة الظل تبعاً لحركة الشمس الظاهرة[6]. ولم تكن المزولة الأولى تقسم النهار إلى أكثر من أربعة أقسام، ولكن بتطور الزمن أصبح من المألوف أن يقسم الوقت فيما بين شروق الشمس وغروبها إلى اثني عشر جزءاً متساوياً، أي اثنتي عشر ساعة.

ويعتقد أن الصينيين هم أول من استخدم المزولة، ثم نقلتها عنهم الشعوب الأخرى. وقد وجدت المزولة لدى قدماء المصريين، ويبدو أن ظهورها في القرن الثالث عشر ق. م، قد ترافق مع ظهور (المسلّة الفرعونية) التي يعتقد أنها استخدمت كمزولة.

وقد أخذ الإغريق المزولة عن المصريين، وصنعوا منها أنواعاً كثيرة. وكان للمزولة ثلاثة عيوب:

أ ــ لا يمكن استخدامها إلا نهاراً عندما يكون الطقس صحواً.

ب ــ يجب استخدامها في المكان الذي تم صنعها فيه حسب خط العرض.

ج ــ الوقت الذي تقيسه غير متساوٍ لأن الأيام تختلف أطوالها باختلاف الفصول[7].

2. الساعة المائية: أدرك الإنسان سريعاً الحاجة لإيجاد آلات تقيس الوقت دون الحاجة لوجود الشمس، فاستخدم الساعة المائية ليلاً ونهاراً، وفي حالة الطقس الغائم. وهي قديمة قدم المزوال أو تكاد، وكانت تستخدم في مصر القديمة وفي بلاد الإغريق منذ أكثر من ألفي سنة[8].

والساعات المائية، عبارة عن إناء يملأ بالماء ثم يتسرب منه الماء عن طريق ثقب صغير في قاعدته. وكانت هذه الأواني تختلف باختلاف فصول السنة حتى تصبح ساعة الصيف أطول من ساعة الشتاء.

وكانت التدريجات على الإناء من الداخل تشير إلى الزمن الذي انقضى. وكانت الساعات المائية من الأدوات المألوفة في بلاد الإغريق، واستخدمها كثير من خطبائهم في تلك الأيام لتوقيت خطبهم.

---

(6) مجلة الكويت: فؤاد نصر الدين حسين، العدد /58/ يونيو 1987م ص 94.

(7) مجلة الفيصل: مصدر سابق ص 94.

(8) المصدر السابق: ص 94.

وقـد وجـدت ساعة مكونة من قنينة من المعدن في قاعها ثقب، فكانت تملأ بالماء الذي يتسرب من خـلال الثقـب، فـإذا نفذ الماء طلبوا من الخطيب أن يكف عن الخطابة وبالطبع لم تكن هذه الساعة دقـيقة نظـراً لاختلاف ضغط السائل في إناء ممتلئ حتى حافته عنه في حالة نقص الماء إلى نصفه مثلاً، كما أنها كثيراً ما كانت تفسد، لا سيما حينما يتجمد ماؤها[9].

3. **السـاعات الرملـية:** ومن بين الساعات التي استخدمها المصريون (الساعات الزجاجية أو الرملـية) وسـميت (بالسـاعة) لأن الـرمل كان يستغرق ساعة من الزمن لينسكب من زجاجة إلى أخرى.

وكانـت الساعة الرملية تشبه الساعة المائية كثيراً. لكنها لم تتطور وتصبح ساعات تبين الوقت أو أية ساعة من ساعات اليوم، إلاّ عندما قام العرب بتطويرها.

وقـد اسـتخدمت طـرائق أخـرى لقـياس الوقت قبل اختراع الساعة المعروفة. مثل الشموع المشتعلة، والحبال المبللة بالزيت والمعقود على مسافات منتظمة، والمصابيح الزيتية[10].

*الساعات عند العرب

كـان عـرب الجاهلـية يتعرفون على الأوقات بظلال الجدران والتلال والجبال وقامة الإنسان وتلون السماء، حتى قال قائلهم:

هـل الدهـر إلا لـيلة ونهارهـا — وإلا طلـوع الشـمس ثـم غـيابه

وعـندما جـاء الإسلام، كان المسلمون بأمس الحاجة إلى تحديد مواقيت الصلاة بصورة دقيقة. ومـن هنا استطاع العرب تطوير المزولة الكلدانية والإغريقية، وقسموها إلى اثني عشر قسماً، فقاموا بعمـل نمـاذج عديدة منها مستخدمين مبادئ (علم المثلثات) وأصبح طول الفترة الزمنية في المزولة التـي صـنعها المسلمون لا يختلف في الشتاء عنه في الصيف، على الرغم من اختلاف طول النهار تبعاً لفصول السنة[11].

وعنـي العـرب بالمزوال من أفقية ورأسية واعتدالية، فنصبوها في المساجد والمدارس ومعاهد العلم، فهي بمثابة ساعة التوقيت المحلي، وأناطوا العناية بها إلى المهندسين والمؤقتين.

---

[9] المصدر السابق: ص 95.
[10] المصدر السابق: ص 95.
[11] مجلة الكويت: العدد /58/ مصدر سابق ص 96.

وكـان العرب المسلمون يعرفون نوعين من الساعات، وسموا الساعة التي هي 1/24 من اليوم، سـاعة معـتدلة أو مسـتوية، وسـموا الساعة التي هي 1/12 من الليل أو النهار، ساعة زمانية أو معْوَجَّة، لاختلاف مدتها بالنسبة إلى الفصول.

ومـن أروع الساعات المائية التي صنعها العرب، تلك التي أهداها الخليفة (هارون الرشيد) إلى الإمـبراطور (شـارلمان) وكانت مصنوعة من البرونز المطعّم بالذهب، وكان بمينائها اثنا عشر باباً صـغيراً يمثل كل منها ساعة من الساعات، بحيث ينفتح كل باب إذا حلت الساعة، ويصحب ذلك كل مـرة سقوط كرات من النحاس الأصفر على قرصٍ من النحاس الرقيق، بحيث يدل عدد الكرات على السـاعة التي حلت بها من النهار أو الليل. ولقد تملّكت الدهشة والعجب الإمبراطور وحاشيته من تلك الآلـة الغريبة التي تقيس الزمن، وهكذا لم تعرف أوربا الساعة إلا عن طريق العرب في نهاية القرن الثامن الميلادي[12].

ومـن العلماء العرب الذين قاموا بدراسة متعمقة في اختراع الساعات وتطويرها (ثابت بن قرة) ومـن أوائل أعماله، تأليف كتاب عن (المزولة الشمسية) التي كانت تستخدم لتعيين مواقيت الصلاة، وقـد توفـي فـي بغداد سنة 901 م و(إبراهيم بن سنان) المتوفى سنة /365 هـ، 976م/ وله كتاب جـامع في الساعات الشمسية. كما قام أبناء (موسى بن شاكر) الثلاثة المشهورون باسم (بني موسى) بوضع بحث في الحِيَل الميكانيكية في الآلات الذاتية الحركة، وقد كتب (رضوان ابن الساعاتي) 600 هـ/1204م، دراسة مطولة تتحدث عن قيامه بإصلاح ساعة مائية عملاقة كان أبوه قد ركبها فوق (باب جيرون) في مدينة دمشق[13].

وثمـة مصـنفات عديدة تتكلم عن هذا النمط من الساعات المزولية العربية، ذكر بعضها العديد مـن العلماء العرب كابن النديم، ومحمد بن موسى الخوارزمي، ومحمد بن كثير الفرغاني، وغيرهم. ولا تـزال فـي بعض المساجد الإسلامية القديمة، ساعات شمسية عديدة، منها المزوال الموجودة في مسـاجد فـاس بالمغرب، ومزوال جامع عقبة بن نافع في القيروان بتونس، والجامع الأموي بدمشق، ومـتحف طـوب قابـي فـي اسـتانبول، والجامع الأزهر في مصر. بالإضافة إلى المزاول العديدة الموجودة في مساجد ومباني حلب السورية التي سيأتي ذكرها فيما يلي بالتفصيل.

*الساعات الشمسية في حلب

لقـد امـتازت حلـب عـبر تاريخهـا العربي الإسلامي بحياة اجتماعية وثقافية وفكرية ودينية واقتصـادية متعددة الألوان، واسعة النشاط. فقد كانت حلب من الحواضر العلمية المعروفة، شأنها في ذلـك شأن كل من بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وغيرها. واشتهرت من الناحية العلمية بمدارسها

(12) مجلة الكويت: العدد /91/ مصدر سابق ص 104.
(13) المصدر السابق: ص 106.

ومجالسها وعلمائها، إبان عصر الحضارة الإسلامية، وإلى جانب دور العلم العديدة فيها، انتشرت المكتبات العامة في المدارس والمساجد والبيمارستانات والمشافي. ولقد بقي كثير من تلك المكتبات حتى يومنا هذا، ووجدت فيها مخطوطات تتعلق بكثير من العلوم كالحساب والمساحة وأنواع العلوم الفلكية، كالميقات والتنجيم، وغيرها من العلوم الأخرى، مما أضفى على حياتها وناسها قدراً كبيراً من الحيوية الحركة والازدهار والتقدم، بشكل لا نجد له مقاربة في بقية الحواضر الإسلامية الأخرى. وقد ورثت حلب علم الفلك البابلي والحثي والآرامي. ومع تحولها إلى حاضرة عربية إسلامية صارت تهتم بمواقيت الصلوات الخمس، فأقيمت المزاول الشمسية على كل حائط في أغلب مساجدها، كما تمت الاستعانة بالإسطرلاب والآلات الفلكية التي تجمع بين الساعة الشمسية والإسطرلاب. وكانت هذه العناصر بكل ما فيها من تطور وفنون هي الخلاصة التاريخية والحضارية لهذه المدينة العربية التي تحمل نكهة خاصة تميزها عن غيرها من دول العالم القديم[14].

ومن وسائل التوقيت القديمة التي لازالت آثارها باقية حتى اليوم ما نجده في المباني الأثرية التالية:

1. الجامع الأموي الكبير:

وهو أكبر الجوامع التي أقيمت في حلب وأوسعها، ويقع في قلب المدينة القديمة، وبانيه هو الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وقد أنشأه وتأنق في بنائه ليضاهي به الجامع الأموي في دمشق، الذي بناه أخوه الوليد[15].

يضم الجامع العديد من الكتابات المتنوعة المنقوشة في الأروقة وعلى الأبواب، وكتابات المئذنة، وغير ذلك الكثير من الآثار والمعالم الرائعة التي تدل على قدرات الفنان الحلبي وعظمة الفن الإسلامي في مختلف العهود. كما يضم ثلاثاً من وسائل التوقيت التي تعتمد على حركة الشمس هي:

أ ـ خط الظل المحفور على جدار الرواق الشرقي للجامع، وهو خط مستقيم جنوب شمالي، متى انحسر عنه ظل الجدار القائم فوقه يكون قد حل وقت أذان الظهر. وينسب هذا الخط إلى عبد الله الحنبلي الميقاتي الذي حفره سنة 1808 م. والجدير بالذكر أن هذه الطريقة لازالت تستخدم من قبل القائمين على الجامع حتى الآن لبساطتها (في الأيام الشمسية) إلا أنها غير دقيقة لاعتمادها على الخبرة الشخصية لا على الحسابات الفلكية[16].

---

(14) مجلة المعرفة: علي القيم، العدد /508/ يناير 2006 م ص 12.

(15) موسوعة حلب: خير الدين الأسدي ج 6 ص 312.

(16) جريدة تشرين: نجم الدين سمان، العدد /9503/ 6 مارس 2006 ص 7.

ب ــ الرخامة الجنوبية المعلقة على واجهة الرواق الشمالي، وهي أقرب إلى المربع (22 100 سم) وقد حفرت عليها خطوط متفاوتة الطول بينها زوايا متفاوتة الدرجة على هيئة نصف دائرة كبرى انطلاقاً من دائرة صغرى. وقد تم تثبيت مؤشر معدني في مركزها، وحين يقع ظله على أحد الخطوط يكون قد دل على توقيت معين[17].

وهذه الرخامة أو المزولة تتشابه مع معظم المزاول التي استخدمت في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وتعتمد دقة معرفة الوقت. ويبدو أن الجامع الأموي الكبير بحلب، قد لعب دوراً هاماً في تقدم العلوم الفلكية فقد كانت فيه مدرسة للفلك، إذ كان الشيخ خليل بن أحمد، المعروف (بابن النقيب) 1494 ــ 1563م قد درس في القاهرة علوم الفلك، وعندما عاد إلى حلب اشتغل بتدريس هذه العلوم في الجامع المذكور مدة طويلة حتى ذاع صيته فتم استدعاؤه إلى الباب العالي في الدولة العثمانية، وعندما وصل إلى هناك احتفي به، مما ساعده على متابعة الدرس والتأليف في علوم الفلك، فأصبحت حلب في عهده مقصد الطلبة للاشتغال بالعلوم الرياضية والفلكية. وممن اشتهروا بعلوم الفلك في حلب أيضاً (أحمد آغا الجزار) الذي ألف زيجاً في بروج الأفلاك ودلالات الكواكب وكيفية معرفة طول البلاد وعرضها وسرعة دوران الكواكب السيارة، كما وضع تقويم النيربين. ونسخة من هذا الزيج الفلكي موجودة في مكتبة باريس الكبرى، وتمت ترجمتها من التركية إلى العربية نقلاً عن الفرنسية سنة 1845م. وقد انتقلت مكتبة أحمد الجزار بمخطوطاتها وآلاتها الفلكية البالغة /870/ كتاباً و/34/ قطعة فلكية، إلى أحد أبنائه الذي جعلها وقفاً في الجامع الأموي الكبير سنة 1893م، وبذلك افتتحت فيه أكبر مكتبة للمخطوطات والآلات الفلكية في حلب[18].

ومما يذكر أن وظيفة ميقاتيي الجامع الأموي في حلب متوارثة في أسرة عبد الله الحنبلي الميقاتي منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وقد عرف من أحفاده الشيخ كامل المؤقت المتوفى سنة 1920 م، والذي نقل إلى ولديه أحمد ومحمد معارفه وعلومه الفلكية، لكنهما قتلا في إحدى معارك الحرب العالمية الأولى، وبهذا خلت حلب من عالم الفلك والمواقيت. إلا أنها لا تزال تحتفظ من آثار ذلك الماضي المجيد، بعدد من المزاول الشمسية في أغلب مبانيها[19].

ج ــ وأهم آلة توقيت باقية حتى اليوم في جامع حلب الكبير، تلك الآلة التي تجمع بين الساعة الشمسية والإسطرلاب. وتقع في عرض صحن الجامع، وهي عبارة عن قرص من المرمر الأبيض، قطره 53 مم مثبت على عمود حامل من الحجر، ويحيط به صف من الأسنان الحديدية عددها 35، وترتسم على سطح القرص عدد كبير من الخطوط المستقيمة والمنحنيات المتقاطعة أو المتوازية أو

---

(17) *المجلة العربية: محمد صبحي صقار، العدد /80/ يوليو 1992م ص 103.*
(18) *المصدر السابق: ص 103.*
(19) *المصدر السابق: ص 103.*

المتـــناظرة، حول أربع مؤشرات معدنية تشير بظلها أو سمتها إلى مواقع ستة أبراج فلكية على قوس إلـــى اليمين، يناظره إلى اليسار قوس ستة أبراج أخرى، كما تبين مغرب التساوي ومشرق التساوي، إضافة إلى خط الزوال ومواقيت العصر والمغرب[20].

وهـــناك مســـتقيم يبين خط منتصف النهار، كما توجد دائرة صغيرة تشتمل على ثلاثة مدارات بيضـــاوية حـــول مؤشر مركزي للدلالة على مواقع البروج الفلكية أيضاً، وهي تشبه في شكلها العام البنـــية الكلاســـيكية للـــذرة. هـــذا ومن المحتمل أن تكون للأسنان الحديدية على المحيط فائدة تسهل اســـتخراج المعلومـــات، وذلـــك لأن الوصـــل بين كل سنين متقابلين بوساطة مسطرة تمر بالمركز، وبالتالـــي يمكن مطابقة أو مقارنة ظل واحد أو أكثر من المؤشرات باستقامة المسطرة التي تتقاطع أو تـــتوازى مـــع الخطـــوط التي تملأ صفحة الميناء، وذلك بمساعدة ستة جداول حسابية محفورة على صـــفائح نحاســـية ومثبـــتة على حجر القاعدة خارج الأسنان الحديدية. وللحماية فقط غطيت الساعة بغطـــاء نحاســـي محـــدب متقن الصنع، مجهز بقفل يفتح في أوقات محددة، ولا يفتحه سوى ميقاتية الجامع، حيث دلت الجريدة الرسمية في العهد العثماني على وجود موظف مختص يعرف (بالميقاتي) ويتقاضى راتباً شهرياً لضبط مواقيت الصلاة، حيث يعطي الإشارة لمؤذن الجامع فيبدأ بالأذان، بينما يحمـــل مســـاعده علمـــاً أخضر يدور به الجهات الأربع لمئذنة الجامع فيراه مؤذنو الجوامع الأخرى ليبدؤوا أذانهم، ويحمل ذاك المساعد في الليل قنديلاً، وبهذا تنطلق مواقيت الصلاة من الجامع الأموي الكبير إلى الجوامع الحلبية الأخرى[21].

وتذكـــر المصادر التاريخية، أن الشيخ عبد الحميد دده بن حسن البيرامي، قد صنع هذه الساعة أو الإسطرلاب سنة 1297 هـــ/1881م، وصنع مثلها سنة 1300 هـــ، للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني، لتوضع في قصره المعروف باسم (سراي يلدز) في استانبول.

2. جـــامع العثمانـــية: تـــم بناء هذا الجامع سنة 1370م وهو يعرف بالمدرسة الرضائية، وفيه مزولـــتان شمسيتان أولاهما: على رخامة جنوبية متقنة الصنع وبحالة جيدة، لها مشير نظامي طويل وتدريجـــات واضـــحة. وثانيـــتهما: على رخامة غربية جميلة، غير أن مؤشرها مفقود، وقد استبدل أخـــيراً بمؤشـــر معدنـــي، ولا يعرف مدى مطابقته للمؤشر القديم. وفي الجامع أيضاً خط ظل على درجـــة الشرقي. ويبدو من خلال المقارنة، الشبه الواضح بين أدوات التوقيت في هذا الجامع وأدوات التوقيـــت فـــي الجـــامع الأمـــوي الكبـــير بدرجة توحي بتقارب زمن إقامة هذه الوسائل في كل من المسجدين[22].

[20] المصدر السابق: ص 103.
[21] جريدة تشرين: مصدر سابق ص 7.
[22] المصدر السابق: ص 7.

3. جامع الطروش: تم بناء هذا الجامع سنة 1398 م، وفيه ثلاث ساعات شمسية، اثنتان جنوبيتان على طرفي مدخله الشمالي، منحوتتان بشكل ربع دائرة، طول نصف قطرها 75 سم، وهي تحوي خمس تدريجات رئيسية.

وتتجه المزولة الشرقية إلى الشرق ومهمتها تحديد موعد صلاة العصر، بينما تتجه المزولة الغربية إلى الغرب، وتفيد لتحديد موعد صلاة الظهر[23].

4. قشلة الترك: القشلة، كلمة جاء من التركية (قيش) بمعنى (الشتاء) وهم أطلقوها على الثكنة العسكرية، وأصلها معناها المشتى.

وهي كلية الشؤون الإدارية العسكرية حالياً، وفيها مزولة جنوبية محفورة على حجر مربع الشكل يبلغ قطر المزولة 75 سم، وهي أكثر دقة إذ تم تقسيم خطوطها إلى 13 خطاً ساعياً تتضمن أحد عشر خطاً نصف ساعي[24].

5. المكتبة الوقفية: يوجد في هذه المكتبة ساعة شمسية، أطلق عليها مخترعها علاء الدين ابن الشاطر الدمشقي اسم (صندوق اليواقيت لأعمال المواقيت) وأهم أجزائها إبرة مغناطيسية لمعرفة الجهات الأربع، ثم رسوم لمعرفة القبلة في بعض البلدان، إضافة إلى مزولة شمسية تمال إلى الأفق بقدر عرض البلد، ثم دائرة استوائية كلية يقاس بها الوقت ليلاً ونهاراً، ثم أقواس مختلفة المطابع الفلكية[25].

6. جامع المهمندار: تم بناء الجامع سنة 1247 م وفيه مزولة شمسية تم حفرها على قاعدة المئذنة، وهي ذات نقوش فريدة، غير أن مشيرها مفقود ولا يمكن رؤية هذه الساعة إلا أثناء صعود مؤذن الجامع إلى شرفة المئذنة مما يدل على أنهم كانوا كثيراً ما يشترطون على المؤذن ضرورة إلمامه بعلوم الفلك وكيفية استخراج المواقيت من خلال المزاول[26].

*ساعات باب الفرج

ومع انحسار المواقيت الشرقية وهيمنة التوقيت الغربي، تم وضع حجر الأساس لمنارة ساعة حلب المعروفة (بساعة باب الفرج) أحد أبواب حلب الأثرية السبعة في (15 ربيع الأول سنة 1316 هـ/ 1898 م) وقد تبرع أبناء حلب من ذوي الثروة واليسار لعمارتها بنحو 600 ليرة ذهبية عثمانية.. وانتهت عمارتها في سنة 1317هـ، فتفردت عما حولها من أبنية بارتفاعها عشرين متراً، وبوجوهها الأربعة، حيث تم تخصيص وجهيها الشمالي والجنوبي للتوقيت الغربي، والوجهين

(23) المصدر السابق: ص 7.
(24) المصدر السابق: ص 7.
(25) المجلة العربية: سابق ص 102.
(26) المصدر السابق: ص 104.

الشـرقي والغربـي للتوقيـت الشرقي. وكان المهندس لهذه الساعة (شارتيه أفندي) مهندس الولاية، (وبكـر صـدقي أفـندي) مهـندس المركـز. وفـي حفل الافتتاح، أنشد الشاعر الأديب عبد الفتاح الطرابيشي أبياتاً فيها، ومنها قوله:

قـد شـاد بالشـهبا مـنارةَ سـاعة — تـزهو بإتقـان وحُسْـن صـناعة

فـي دولـة الملـك الحمـيد المُرتَجى — الثانـي الـذي سـاسَ الـوَرى بدرايـة

وبهمَّـة الوالـي الرؤوف أخي الحمَى — وصـنيع قـوم مـن أعـاظم سـادَة

فهـم رجـالٌ قـد روي تـاريخُهم — لعلائهـم حـتى قـيام السـاعة[27]

وخطـب المـؤرخ الشـيخ كامل الغزي آنذاك، ذاكراً خطابه في كتابه: (نهر الذهب في تاريخ حلـب) ومـنه قولـه: ((هاهي ــ حلب.. الآن يتعزز جمالها، ويتوج هام كمالها، بتاج يحلو للعيون مـنظره، ويلـذ للآذان خبره، ويعم نفعه البعيد، والقريب، ويشمل شرفه الوطني والغريب.. به تفضل الشـهور والأعمـار، وتعلـم الأوقـات من الليل والنهار، ألا.. وهو الساعة التي كانت ولادتها في الشرق.. وحضانتها في الغرب، فما أحرى بالولد أن يحضن ولده)).[28]

المصادر والمراجع:

1 ــ إحسان محمد جعفر: مجلة الكويت، العدد /91/ مارس 1990م.

2 ــ أسرة تحرير مجلة الفيصل: مجلة الفيصل، العدد /26/ يوليو 1979.

3 ــ خير الدين الأسدي: موسوعة حلب المقارنة، الجزء السادس.

4 ــ فؤاد نصر الدين حسين: مجلة الكويت، العدد /58/ يونيو 1987م.

5 ــ محمد صبحي صقار: المجلة العربية، العدد /180/ يوليو 1992م.

6 ــ نجم الدين سمان: مجلة تشرين الأسبوعي، العدد /27/ 7 سبتمبر 1998م.

7 ــ نجم الدين سمان: جريدة تشرين، العدد /9503/ 6 مارس 2006 م.

[27] موسوعة حلب مصدر سابق ص 312.

[28] مجلة تشرين الأسبوعي: نجم الدين سمان، العدد /27/ سبتمبر 1998م ص 42.

عاصمة الثقافة الإسلامية
وأولى المطابع العربية

د.سهيل الملاذي

اليوم، ونحن نحتفل بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية لعام 2006، لابد أن نذكر أمراً له دلالته الخاصة، وهو أنّ حلب التي كان عبر العصور المتعاقبة مركزاً لإشعاع ثقافي عربي إسلامي، كانت أيضاً ممراً ومقراً للثقافات الإنسانية في رحلتها شرقاً وغرباً. أخذت حلب منها وأعطتها وتفاعلت معها، ممّا أهّلها لتكون من أهم مراكز الحوار الحضاري بين الشرق والغرب، الأمر الذي مهّد بكل تجلياته لدخول العرب عصر النهضة الحديثة.

ومن هذه التجلّيات تعرّفت حلب على فنّ الطباعة منذ فجر العصر الحديث، فكانت أوّل مدينة سورية تمارس هذا الفن، وأوّل مدينة في الشرق تعرف الطباعة بالحروف العربية(1).

يقول جرجي زيدان: "السوريون أسبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية، وأسبق المدن إلى هذا الفضل حلب"[2].

ويذكر المؤرخ عيسى إسكندر المعلوف أنّ "للحلبيين اليد الطولى في صناعة الطباعة. كان منهم رهبان في رومانيا اشتغلوا بمطبعتها، وكذلك في حلب بعد انتقالها إليها، وفي لبنان وغيره. فالثابت منذ القديم أنّ لهم يداً بيضاء في فن الطباعة وإنشاء المطابع، ولهم خدمات في مضمار العلم والأدب"[3].

---

(1) المطبعة الأولى في بلاد العرب كانت مطبعة أقيمت في دير قزحيا بلبنان عام 1610، لكنها كانت بحروف سريانية.

(2) جرجي زيدان "تاريخ آداب اللغة العربية" مصر (1914): 4/44.

(3) "الضاد" حلب. العدد 10 (1947): 346.

تعود علاقة حلب مع الطباعة إلى أواخر القرن السابع عشر، حين ارتحل أثناسيوس الرابع الإنطاكي الحلبي ابن الدبّاس الدمشقي بطريرك الروم الملكيين الأرثوذكس في إنطاكية والمشرق إلى القسطنطينية، ليفضَّ الخلاف الذي استفحل في الكرسي الانطاكي، ومنها سافر إلى بلاد الأفلاق[4] عام 1968، واتصل بحاكمها الأمير يوحنا قسطنطين برنكوفان[5]، وسعى لديه بإنشاء مطبعة تخدم الدين، بطبع كتب كنيسة بالعربية واليونانية. وقد حقق له الأمير رغبته، وساعده في إنشاء مطبعة في بخارست، التي كانت آنئذ غنية بالمطابع، وخصوصاً باللغتين اليونانية والرومانية.

وكان الأمير برنكوفان قد أنشأ مطبعة عربية في سيناغوفو في جزيرة قرب بخارست، وكلّف الأب أنتميوس الكرجي رئيس دير السيدة فيها بالإشراف عليها والقيام بصنع حروفها العربية، وقامت بنشر عدد كبير من الكتب الدينية، وبذلك أصبح للأب أنتميوس خبرة واسعة في فن الطباعة وصنع الحروف، فانتدبه الأمير مجدداً للتعاون مع البطريرك الدّباس في إنشاء مطبعة بخارست.

قام الأب أنتميوس بنقل معدّات المطبعة الجديدة من سيناغوفو إلى بخارست، وحفر أمّهات الحروف العربية لها، وما إن أصبحت جاهزة حتى طبع فيها أول كتاب وهو (القنداق: خدمة القدّاس الشريف) باليونانية والعربية عام 1701، و(السواعي) عام 1702، وما عرف من كتبها آنذاك سوى هذين الكتابين.

إلاَّ أنّ سامي الكيالي يضيف إليهما كتاب (الليتورجيات الثلاثة)، ويقول: إنّه طبع باليونانية والعربية عام 01701، قبل كتاب (القنداق)[6]. ولعلّ ذلك الكتاب لم يكن مطبوعاً في المطبعة نفسها، بل في مطبعة "سيناغوفو"، أو في إحدى مطابع بخارست.

وحين عاد الدّباس إلى حلب وزع (القنداق والسواعي) مجاناً على كهنة الروم الأرثوذكس، وأنشأ مطبعته المعروفة.

إنّ جميع من أرّخوا للطباعة يتفقون على أنّ الدبّاس صاحب الفكرة والفضل في تأسيس أول مطبعة عربية في المشرق في حلب، لكنّهم يختلفون على تأريخ تأسيسها وعلى مصدرها ومصيرها.

---

(4) الأفلاق أو الأفلاج تشكل مع البغدان دولة رومانيا اليوم. ولها علاقات وثيقة مع كنسية حلب الشرقية. وقد زارها في القدم كثير من البطاركة الملكيين الإنطاكيين، يذكرهم عيسى إسكندر المعلوف في مقالته في "مجلة النعمة البطريركية" بدمشق، إثر زيارته حلب عام 1909 ("الشعلة" حلب، 8/2 (آذار 1922): 383.

(5) أصبح أميراً عليها عام 1688 (م.س)، وكان شديد الاهتمام بحالة رعاية الكنسية الملكية، يزودهم بكتب الصلاة المختلفة التي كانوا بحاجة إليها للقيام برسالتهم الدينية على الوجه الأكمل (خليل صابات "تاريخ الطباعة في المشرق العربي" القاهرة (دار المعارف) ط1 (1958): 93). وكان البطريرك الدّباس على صلة وثيقة معه منذ توليه البطريركية عام 1685.

(6) سامي الكيالي "الحركة الأدبية في حلب" القاهرة، ط1 (1957): 205).

فأمّــا تأسيســها فيحدده بطرس البستاني بعام 1698[7]، وهو عام وصول الدبّاس إلى بخارست. ويذكــر آخرون أنّه تم في عام 1702[8]، وهذا التاريخ لا يتناقض مع ما ذكره الأب لويس شيخو عن إنشــاء المطبعة في العشر الأول من القرن الثامن عشر[9]، ويتفق مع ما أورده جرجي زيدان عن أنّ أحد المحامين بحلب كان بحوزته نسخة من كتاب باليونانية والعربية مطبوع فيها عام 1702[10]. في حيــن يذكــر خليل صابات أنّ إنشاءها كان في عام 1706[11]، ولعلّه يستند في ذلك إلى صدور أول كتاب لها وهو (المزامير) في هذا العام.

وأمّــا أصــلها فمختلف فيه أيضاً، فالمؤرخ شنورد Schnurrer يؤكد أنّ حروف "مطبعة حلب" هــي نفســها حــروف "مطبعة سيناغوفو"، وأنّ الدبّاس جلبها معه من بخارست، وهذا ما يذهب إليه المؤرخــون: شــارون Sharon وغراف Graf ولوفنك Leveng، الذين يجزمون بأنّ المطبعة إنّما جاءت من الأفلاق.

غــير أنّ المــؤرخ سليفســتر دي ساسي De Sacy يرى فرقاً بيّناً بين حروف مطبعتي حلب وبخارســت، بالمقارنــة بيــن كتــبهما. فإذا قارنا حروف كتاب (المزامير)، وهو أول ما طبع بهذه المطــبعة فــي حلــب، وعليه شعار الأمير برنكوفان، بحروف كتاب (القداس) المطبوع في الأفلاق، وجدنــا الفرق شاسعاً، وهذا يدفع إلى الاعتقاد أنّ لكل مطبعة منها حفاراً خاصاً[12]. فإذا كان ما قاله دي ساسي صحيحاً. فكيف سبك الدبّاس حروف مطبعته؟

هــنا لابــدّ أن نســتنتج أنه اصطحب معه الراهب الكرجي انتميوس إلى حلب، فحفر له حروفاً جديــدة، أو أنّــه تعلّم سبك الحروف بنفسه في رومانيا، فلما عاد لقّن هذا الفن لبعض الحلبيين[13]، أو أن يكــون أمــير الأفــلاق قــد أرسل إليه الطابعة دون الحروف، فقام عبد الله زاخر بحفر الحروف العربية لها[14].

---

(7) بطرس البستاني "أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث" بيروت. ط1 (1937): 150.

(8) فيليب حتي "تاريخ سورية" لندن (1951): 677 ــ إبراهيم عبده "تطور الصحافة المصرية" القاهرة (1945): 17.

(9) "المشرق" بيروت، السنة 3 (1900): 355 ــ 157، والسنة 9 (1906): 691.

(10) زيدان: 56/4 ــ 57.

(11) صابات: 18، 93، حيث يذكر أنّ الدبّاس عاد إلى حلب عام 1704، وأسس مطبعته عام 1706. وهذا الكلام يعتمده عبد الله يوركي حلاق في مقالته (مطبعة حلب) في "الضاد" 5/53 (أيار 1983): 3 ــ 11.

(12) صابات: 94.

(13) لويس شيخو،في "المشرق" بيروت، السنة 3 (1900): 355.

(14) كان راهباً في الساباتية على علاقة طيبة بالدبّاس، وقد نسخ له عدداً كبيراً من المخطوطات، وألف له عدة مؤلفات. قبل أن يناصب الأرثوذكس العداء عام 1720، ويهــرب إلى لبنان، ويؤسس "مطبعة الشوير". فهو أول من صنع حروفاً عربية في المشرق العربي. (صابات: 94) نقلاً عن مجلة "الرسالة المخلصية" (1948): 248.

ولعلّ اقتران اسم زاخر بالمطبعة، هو ما دعا يواكيم مطران أن يتصور أنه مؤسسها[15]، ودفع الأب يوسف الصائغ البولسي الحلبي (المطران مكسيموس صائغ) مدير مجلة "المسرّة" أن يقول:

"يظهر بجلاء أنّ مؤسس هذه المطبعة وصانع آبائها وأمهاتها إنما هو عبد الله زاخر، فيكون قد أحرز مجداً أثيلاً بإنشائه أول مطبعة عربية نشرت الكتب المفيدة في بلادنا".

ويضيف: "صنع مطبعة في حلب بمساعدة أخيه، وعملا آباءها وأمهاتها وجميع آلاتها، وطبعا بها عدة كتب، وذلك بدون أن يشاهدا المطابع، وبغير أن يرشدهما أحد إلى هذا العمل"[16].

ومن الواضح أنّ الأب يوسف الصائغ بكلامه السابق، يسحب من الدّباس كل فضل له بإنشاء المطبعة، ويعزوه إلى زاخر، واضعاً في اعتباره ما ذكر عن انفصال زاخر عن كنيسة الدّباس الأرثوذكسية، وهربه إلى لبنان واعتناقه الكثلكة.

وفي كلّ الأحوال فإنّ قول الدباس في مقدمة (المزامير) المطبوع في حلب: "حيث أن الله وفقنا إلى عمل طبع الحرف العربي"، يوحي بأنّ حروف المطبعة التي عرف نمطها (بالحرف العربي) قد حفرت بأيدي الحلبيين، وسبكت في مدينتهم[17]. وكانت حروفاً خشنة والطبع عليها غير متقن، وإن كان جلياً نضراً[18].

طبعت المطبعة بين عامي (1706 ـ 1711) عشرة كتب[19]، استخدمت فيها ثلاثة أشكال من الحروف: استعمل الأول منها في طبع (المزامير 1706 ـ 1709) و(الإنجيل 1706 ـ 1708) و(النبوءات والرسائل وفصول الإنجيل 1708)، واستعمل الآخران اللذان يحاكيان خط النسّاخ المسيحيين في طبع بقية الكتب، وهي (عظات أثناسيوس بطريرك أورشليم تلتها مقالاته والمعزي 1711) و(سلك الدر النظيم في سر التوبة والاعتراف القويم 1711)، وقد جمعت العناوين كلّها بحرف واحد لم يتغير منذ نشأة المطبعة إلى حين توقفها عن العمل[20].

---

(15) مجلة "المسرّة" (1948): 387.

(16) مجلة "الشعلة" حلب 8/2 (آذار 1922): 400، نقلاً عن "المسرّة" السنة 4/ الجزء 6.

(17) الكيالي: 205، عمر الدقاق "فنون الأدب المعاصر في سورية" دمشق، ط 1 (1971): 16. وديع قسطوت، في "الشعلة" حلب 1/1 (تموز 1920): 4.

(18) لويس شيخو، في "المشرق" بيروت، السنة 3 (1900): 355 ـ 357.

(19) مقالة المعلوف في "الشعلة" : 384، ومقالة الحلاّق في "الضاد": 9 ـ 10.

(20) صابات: 95، وذكر أنها ظلت تعمل إلى عام 1711، بينما قال (ص 17): إنها لم تعش إلاّ سبع سنوات، معتبراً إنشاءها عام 1706.

ما يزال الغموض يحيط بمصير "مطبعة حلب". وقد تكون الأسباب التي أدّت إلى إهمال "مطبعة ديــر قزحــيا" في لبنان، حيث وجدت في سيل الكتب المجانية المطبوعة في "مطبعة روما" إغناء لها عــن بــذل المجهــود والكلفة في سبيلها؛ هي نفسها التي أدّت إلى إهمال "مطبعة حلب"، فإنّ الكتب المطــبوعة في الأفلاق كانت تغدق بسخاء على كنيسة الروم الملكيين في حلب، فما وجدوا حاجة في مطــبعة تكلفهــم فوق طاقتهم. وهكذا وئدت أولى المطابع العربية المشرقية في مهدها، ولم تجد مناخاً ملائماً للحياة والتطور[21].

ويعــتقد بعضـــهم أنّ الرهبان الحلبيين الكاثوليك نقلوا المطبعة إلى دير البلمند، ثم حُملت بعض أدواتهــا إلـــى "مطبعة الشوير" العربية في عهد عبد الله زاخر والأب نقولا الصائغ الحلبيين[22]. لكنّ هــذا الاعتقاد غير صحيح، بدليل أن الرهبان الحلبيين تركوا دير البلمند عام 1697، قبل سنوات من إنشــاء "مطــبعة حلــب"، التي كانت ما تزال تعمل في عام 1711، بعد مغادرتهم الدير بأربع عشرة سنة[23]. كما أنّ "مطبعة الشوير" لم تتمكن من طباعة أول كتاب إلاّ في عام 1733.

ونستطيع القول: إنّ عبد الله زاخر الذي انشق عن الكنسية الأرثوذكسية وترك حلب عام 1720، ثــم أسس "مطبعة الشوير" قد صنع بنفسه الحروف العربية للمطبعة الجديدة، مما أوحى لهؤلاء أنّه حمل أدوات "مطبعة حلب" إليها.

ويــرى عيســى إســكندر المعلوف أنّ "المطبعة الحلبية" صارت خلفاً لمطبعة الدباس، وأنّ من مطــبوعاتها عام 1721 كتاب (صخرة الشك). وأنّها ظلت في حارة أبي عجور، قرب محلة التدريبة في منطقة الجديدة، مقر البطريركية قديماً، وبيت باسيل أفندي الإنطاكي اليوم[24].

نستخلص أنّ المطبعة بقيت حيث هي، وإن أصبح نشاطها ضعيفاً، ثم أهملت، خصوصاً بعد أن تخلّــى زاخر عنها، عقب الخلاف الذي نشب بينه وبين الدباس، واستفحل عام 1720. ولا نرى دليلاً علــى انــتقالها إلى مكان آخر قبل وفاة الدباس عام 1724[25]. وهذا الرأي يؤيده الأب لويس شيخو،

(21) م. س: 95.

(22) مقالة المعلوف في "الشعلة": 385.

(23) صابات: 95.

(24) مقالة المعلوف في "الشعلة": 385.

(25) تــوفي عام 1724، بعد أن بقي في اسقيفته (38) سنة، شارك فيها البطريرك كيرللس بثماني سنوات، واستقل أربع سنوات، والــباقي كلّــه مشاحنا وخصام شديدان. خلفه البطريرك سليبسترس القبرصي الذي كان تلميذاً له، ومن رهبان الجبل المقدس (آنــوس)، وهــذا سار إلى رومانيا عام 1745، وشيّد فيها دير القديس اسبيريدون، وأعاد تجديد "المطبعة العربية" التي أنشأها معلمه أثناسيوس الدباس، وذلك في باشي وبخارست، وطبع وأعاد طباعة عدد من الكتب الدينية (م. س: 384 ــ 385).

حيــن يذكــر أنّها بطلت بوفاة منشئها، ثم أهملت. وبذلك يجعل عمرها يمتد حتى عام 1724[26]. ولا يمكــن أن يكون زاخر قد تمكن من نقل معداتها إلى الشوير، وهو الذي ناصب الكنيسة الأرثوذكسية العــداء، ولكن قد يكون استطاع نقل الحروف التي صنعها بنفسه فيها إلى الشوير. وما كتاب "صخرة الشك" الذي يذكر المعلوف أنّه طبع فيها عام 1721 إلا دليل على بقائها في حلب.

ومهما قيل عن دور هذه المطبعة ومصيره، فمن الإنصاف أن نقول: إنها كانت المقدمة الحقيقية لظهــور الطــباعة فــي الوطن العربي وتطورها، لتكون مظهراً أساسياً من مظاهر النهضة العربية الحديثة.

ومــن الواجب اليوم، ونحن نحتفل بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2006، أن نستعين بما كتــبه المؤرخ عيسى إسكندر المعلوف، عن المطبعة وموقعها، إثر زيارته لحلب عام 1909، فنحدد مكانها، ونضع فيه لوحة تشير إلى أن هذا المكان شهد إنشاء أول مطبعة عربية في المشرق.

هو رجاء نسوقه إلى الأمانة العامة لاحتفالية حلب.

(26) لويس شيخو "الآداب العربية في القرن 19" بيروت (1908): ½.

التعددية والمسامحة المذهبية الإسلامية في حلب

في عهد الدولة الحمدانية (333 ـ 414) هـ

د.محمد عبد الرزاق الأسود(*)

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

***فإن** مذهب المسلمين السنة كان ولا يزال أعظم فئة إسلامية وجدت في مدينة حلب الشهباء قديماً وحديثاً، وقد كانت بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم على مذهب أبي حنيفة النعمان لارتباط حلب ببغداد مقر أبي حنيفة الذي اختار مذهبه المنصور؛ ومن بعده من الخلفاء إلى أن كانت أواخر أيام سيف الدولة بن حمدان؛ وقد من حران إلى حلب رجل يقال له أبو إبراهيم محمد الممدوح المتصل نسبه بعلي بن أبي طالب ﷺ وهو جد بني الزهراء الذين كانوا نقباء حلب وسراة رجالها؛ فظهر حينئذ التشيع في حلب؛ وفشا مذهب الإمام الشافعي، وفي تلك الأيام حدثت بدعة الزيادة في الأذان، ثم في حدود سنة (360 هـ) دخل مذهب الإمام مالك إلى حلب مع جماعة قدموا عليها من المغرب بواسطة استيلاء المعز العلوي على مصر.*

وأما المذهب الحنبلي فالظاهر أنه دخل حلب في حدود سنة (500 هـ) تقريباً؛ ولم يزل هذان المذهبان في فشوٍّ وشيوع إلى سنة (748 هـ)، وفيها عيّن لكل واحد منهما قاض مستقل؛ كالمذهب الحنفي والشافعي، وكان لكل منهما قبل ذلك نائب غير مستقل، وحينئذ اجتمع في حلب أربعة قضاة لكل مذهب قاض، وكان أول قاض حنبلي موسى أبا الجود فياضاً ابن عبد العزيز بن فياض المقدسي النابلسي وأول قاض مالكي أحمد بن ياسين بن محمد بن شهاب الدين أبا العباس الرياحي المالكي، ولم يزل لكل مذهب قاض مستقل إلى أن استولت الدولة العثمانية على حلب؛ فأفردت القضاء في

(*) رئيس التفتيش الديني بمديرية الأوقاف في حلب.

قاض واحد حنفي، ومن ذلك الوقت أخذ المذهب المالكي والحنبلي بالاضمحلال إلى سنة (948 هـ) وبها توفي علي بن محمد بن عثمان علاء الدين البابي المعروف بابن دغيم، وهو آخر العلماء الحنابلة؛ وآخر حنبلي من أهل حلب.

وأما المذهب المالكي فلم أقف على نص بانقراضه من حلب، ويمكن أن يقال: إنه انقرض في عصر انقراض المذهب الحنبلي تقريباً[1].

أما الآن فمعظم أهل حلب على مذهب أبي حنيفة ثم على مذهب الشافعي،ويوجد مفتي للحنفية والشافعية حتى عهد قريب.

ولم يزل حتى الآن يوجد بعض القرى التابعة لمدينة حلب على المذهب الجعفري من شيعة الإمامية الإثني عشرية؛ مثل قرية الفوعة والنغاولة ونبّل وغيرها[2].

وسأعرض لكم في ورقتي هذه خمسة محاور هي:

أولاً: علماء وقضاة مذاهب السنة المسلمين قبيل قدوم الدولة الحمدانية.

ثانياً: علماء وقضاة مذاهب السنة المسلمين في عهد الدولة الحمدانية.

ثالثاً: الحرية المذهبية الإسلامية في عهد الدولة الحمدانية.

رابعاً: علماء وقضاة المذهب الشيعي المسلمين في عهد الدولة الحمدانية.

خامساً: مدى التزام المسلمين بالتسامح المذهبي في حياتنا المعاصرة.

المحور الأول: علماء وقضاة مذاهب السنة المسلمين قبيل قدوم الدولة الحمدانية:

هناك الكثير من العلماء المحدثين والقضاة السنة من أتباع المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي الذين كانوا قد أقاموا في مدينة حلب الشهباء قبيل قدوم الدولة الحمدانية إليها، وذلك في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين؛ وسوف نعدد بعض هؤلاء العلماء لمعرفة الحركة العلمية الإسلامية في هذه المدينة العتيدة:

1 ـ موسى بن خالد بن الوليد الحلبي، سمع أبا إسحاق الفزاري ومعمر بن سليمان، وروى عنه عباس الرفقي وعبد الله الدارمي وغيرهم، وتوفي ما بين سنة (210 ـ 220 هـ).

---

(1) نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي الحلبي: 154/1.
(2) نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي الحلبي: 156/1.

2 ــ عبيد بن جنّاد الكلابي نزيل حلب وقاضيها، روى عن ابن المبارك وابن عيينة، وروى عنه أحمد بن يحيى الحلواني وأبو زرعة وغيرهم، قال ابن أبي حاتم: "سئل عنه أبي فقال: صدوق"، وتوفي ما بين سنة (220 ــ 230هـ).

3 ــ يعقوب بن كعب الأنطاكي الحلبي، روى عن عبد الله بن وهب والوليد بن مسلم، وروى عنه أبو داود وأبو بكر بن أبي عاصم وغيرهم، قال أبو حاتم عنه: "ثقة"، وتوفي ما بين سنتي (230 ــ 240 هـ).

4 ــ أبو توبة الحلبي الحافظ الثبت الربيع بن نافع، حدّث عن معاوية بن سلام وأبي المليح الرقي وإبراهيم بن سعد وشريك وابن المبارك، وروى عنه أبو داود، وأخرج الشيخان عن رجل عنه، وحدّث عنه أحمد والدارمي وأبو حاتم وغيرهم، وقال أبو حاتم: "ثقة حجة"، وتوفي سنة (241 هـ).

5 ــ أحمد بن خليل الكندي الحلبي، سمع أبا نعيم وأبا اليمان والحميدي ومحمد بن عيسى بن الطباع وزهير بن عباد وطبقتهم، وله رحلة واسعة ومعرفة جيدة، وروى عنه علي بن أحمد المصيصي وأحمد بن مروان الدينوري وسليمان الطبراني وآخرون، وتوفي ما بين سنتي (280 ــ 290 هـ)[3].

6 ــ محمد بن معاذ بن سفيان البصري ثم الحلبي، سمع مسلم بن إبراهيم وعبد الله بن رجا الثغني وعمرو بن مرزوق ومحمد بن كثير العبدي وغيرهم، وروى عنه أبو بكر النجار ومحمد بن أحمد الرافقي وأبو القاسم الطبراني ومحمد بن جعفر الحلبي وغيرهم، وكان أسند من بقي بحلب، عمّر دهراً وتوفي سنة (294 هـ).

7 ــ عمر بن الحسن بن طرخان الحلبي أبو حفص، ولي قضاء دمشق، روى عن محمد بن أبي سمينة، وروى عنه الآجري وأبو حفص الزيات وأبو بكر الوراق، وثّقه الدار قطني، وتوفي سنة (307 هـ).

8 ــ يحيى بن علي بن محمد الكندي الحلبي، روى عن عبيد بن هشام وإبراهيم بن سعيد الجوهري، وروى عنه أبو علي بن شعيب وابن عدي وابن المقري، وتوفي سنة (310 هـ).

9 ــ يحيى بن عمران الحلبي، روى عن هشام بن عمار، وروى عنه الطبراني وأبو بكر النقاش وأبو عدي وحمزة الكيالي، وتوفي سنة (310 هـ).

---

(3) أعلام النبلاء، بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 10/4 ــ 11.

10 ــ علي بن أحمد بن علي الجرجاني، حدّث بحلب عن بندار وأبي حفص القلاسي وابن ميني، وروى عنه أبو بكر بن المقري وأبو أحمد بن عدي، سكن حلب، وتوفي سنة (311 هـ).

11 ــ علــي بــن عــبد الحميد الغضايري، نزيل حلب، سمع عبد الله بن معاوية وبشر بن الوليد وعبــيد الله القواريــري، وروى عنه عبد الله بن عدي وأبو بكر بن المقري وغيرهم، وتوفي سنة (313 هـ).

12 ــ ســعيد بــن عبد العزيز بن مروان الحلبي الزاهد، سمع عبد الرحمن بن عبيد الحلبي، وأبا نعــيم بــن هاشم والقاسم الجوعي، وروى عنه محمد بن عبد الله الرازي وأبو احمد الحاكم وغيرهم، قال أبو أحمد الحاكم: "كان من عباد الله الصالحين"، وتوفي سنة (318 هـ).

13 ــ جعفــر بن أحمد الوزّان الحلبي، سمع أيوب بن محمد الوزان بن خالد الأزرق، وروى عنه ابن المقري وعلي بن محمد الحلبي، وتوفي سنة (320 هـ).

14 ــ عــبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد المطلب الحلبي، وحدّث عن محمد بن قدامة المصيصي وإبراهــيم بن سعيد الجوهري، وروى عن محمد بن سليمان الربعي وابن المقري وابن عدي وغيرهم، وتوفي سنة (320 هـ).

15 ــ عــبد الرحمــن بــن عبــيد الله بن عبد العزيز الحلبي، سمع من عبد الرحمن بن عبيد الله الحلبي وبركة بن محمد الحلبي، وروى عنه ابن عدي وغيرهم، وتوفي سنة (320 هـ).

16 ــ إســحاق بن محمد بن أحمد الحلبي، حدّث بدمشق وبغداد عن عبد العزيز بن معاوية العتبي ومحمــد بــن عبد الله السويني، وروى عنه أبو الحسن الدار قطني ويوسف بن عمر القواس وغيرهم، توفي ما بين سنتي (321 ــ 330 هـ).

17 ــ الحســن بــن علي بن عمر الحلبي المعروف بابن كوجك، روى عن علي بن عبد الحميد الغضايري وسعيد بن نفيس المصري، وروى عنه تمام بن محمد ويحيى بن الغمر وغيرهم، وتوفي بعد سنة (320 هـ).

18 ــ محمد بن بركة بن الحكم القنسريني الحافظ، سكن حلب، روى عن أحمد بن شيبان الرملي ومحمــد بن عوف، وروى عنه أبو بكر الربعي وابن المقري وغيرهم، قال أبو أحمد الحاكم: "رأيته حسن الحفظ"، وقال ابن ماكولا: "كان حافظاً"، توفي سنة (327 هـ).

19 ــ جعفر بن سليمان الشلحاوي الحلبي، سمع من أبي شعيب السوسي، وروى عنه أبو الطيب عبد المنعم بن غلبون وعبد الله بن المبارك، توفي ما بين سنة (320 ــ 330 هــ)[4].

20 ــ ولي قضاء حلب عبيد بن جناد بن أعين بني كلاب الشافعي، وذلك سنة (215هــ).

21 ــ وفي سنة (264 هــ) ولي قضاءها عبيد الله بن عبد العزيز العمري الشافعي.

22 ــ وفي سنة (286 هــ) وليه مع قضاء قنسرين أبو زرعة محمد بن عثمان الشافعي الدمشقي.

23 ــ وفي سنة (290 هــ) ولي قضاء حلب محمد بن محمد الجدوعي الشافعي.

24 ــ وفي سنة (297 هــ) كان القاضي بحلب وقنسرين محمد بن أبي موسى عيسى الضرير الفقيه الشافعي.

25 ــ وفي سنة (300 هــ) كان القاضي عمر بن الحسن بن نصر الحلبي الشافعي.

26 ــ وفي سنة (309 هــ) ولي قضاء حلب إبراهيم بن جابر الشافعي[5].

المحور الثاني: علماء وقضاة مذاهب السنة المسلمين في عهد الدولة الحمدانية:

كان لعلماء وقضاة مذاهب السنة الحرية التامة في الحفاظ على مذاهبهم السنية وتقلدهم للمناصب الدينية العامة؛ في الدولة الحمدانية ذات المذهب الشيعي، وإليكم بعض هؤلاء الأئمة الأعلام الذين عاشوا في زمن الدولة الحمدانية وهم يخالفونها في المذهب:

1 ــ محمد بن جعفر الغرياني البغدادي ثم الحلبي، روى عن عباس الدوري وإسحاق القاضي، وروى عنه عبد المنعم بن غلبون وأبو حفص بن شاهين وغيرهم، وثقه الخطيب، توفي ما بين سنة (330 ــ 340 هــ).

2 ــ أحمد بن علي بن الفرج الحلبي الحبال الصوفي، روى عن البغوي ويحيى بن علي الكندي، وأبو قاسم الزجاجي، وروى عنه تمام الرازي وأبو نصر بن الجبان وغيرهم، توفي ما بين سنتي (330 ــ 340).

(4) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 4/19 ــ 26.
(5) نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي الحلبي: 1/299.

3 ـ يحيى بن علي بن محمد الكندي الحلبي، حدّث عن أبي نعيم عبيد بن هشام وعبد الله بن نصر الأنطاكي، وروى عنه محمد بن يوسف الرافعي وابن المقري وابن عدي وغيرهم، توفي ما بين سنتي (333 ـ 334 هـ).

4 ـ خلاّد بن محمد بن هاني الأسدي الخناصري، حدّث بدمشق وحلب عن اليمان بن سعيد والمسيب بن واضح، وروى عنه محمد بن مروان وأبو بكر محمد بن الحسين الحلبي وغيرهم، توفي ما بين سنة (340 ـ 350 هـ).

5 ـ محمد بن العباس بن الفضلا البزاز، نزل حلب وحدّث بها عن إسماعيل القاضي ومحمد ابن عثمان بن أبي شيبة، وروى عنه علي بن محمد الحلبي، قال الخطيب: "أحاديثه مستقيمة"، توفي سنة (350 هـ).

6 ـ نظيف بن عبد الله الحلبي المقري، كان من كبار المقرئين، قرأ على عبد الصمد بن محمد العسوني، وأخذ عنه عبد الباقي بن الحسن وغيرهم، توفي سنة (350 هـ).

7 ـ محمد بن إسحاق بن محمد الحلبي، سمع أبا بكر بن خزيم ومحمد بن عبد الحميد الفرغاني وغيرهم، وروى عنه ابنه القاضي أبو الحسن وابن ابنه الحسن بن علي بن محمد، توفي سنة (354 هـ).

8 ـ عبد الله بن أحمد السراج الحلبي الفقيه، حدّث عن عبد الرحمن بن عبيد الله الحلبي وعمر ابن إسحاق الجرمي، وروى عنه أبو القاسم تمام بن محمد وأبو الحسن الميداني وغيرهم، توفي بعد سنة (368 هـ).

9 ـ الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان الهمذاني النحوي، سمع الحديث من محمد بن مخلد العطار وغيره؛ وأملى الحديث بجامع المدينة، ثم سكن حلب واختص بسيف الدولة بن حمدان وأولاده، وهناك انتشر علمه وروايته، قال الداني في طبقاته: "كان ثقة مشهوراً، وكان شافعياً"، توفي سنة (370 هـ).

10 ـ الحسن بن أحمد بن صالح الهمداني السبيعي الحلبي، كان حافظاً متقناً رحالاً عالي الرواية خبيراً بالرجال والعلل؛ فيه تشيع يسير، سمع من أبي معشر الدارمي ومحمد بن جرير الطبري، وروى عنه الدار قطني وأبو بكر البرقاني وأبو نعيم الأصبهاني وغيرهم، وثقه ابن أبي الفوارس، وقال ابن أسامة الحلبي: "لو لم يكن للحلبيين من الفضيلة إلا أبو محمد الحسن بن أحمد السبيعي لكفاهم"، كان وجيهاً عند سيف الدولة؛ وكان يزوره في داره، توفي سنة (371 هـ).

11 ــ عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الخطيب صاحب الخطب المشهورة، كان إماماً في علوم الأدب ورزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها؛ وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته، وكان خطيب حلب؛ وبها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة بن حمدان، توفي سنة (374 هـ).

12 ــ محمد بن العباس الأموي مولاهم الحلبي نزيل الأندلس، سمع أبا الجهم بن كلاب ومحمد ابن عبد الله مكحولاً، وغيرهم، توفي سنة (376 هـ).

13 ــ محمد بن محمد بن عمرو النيسابوري المحدّث، نزل حلب ومدح سيف الدولة، روى عن إمام الأئمة ابن خزيمة والبغوي، وروى عنه زكريا الساجي وابن الأهوازي وغيرهم، توفي سنة (370).

14 ــ الحسن بن علي الحلبي العبسي، روى عن الغضايري ومحمد بن جعفر المنبجي، وروى عنه عبد الوهاب الميداني ومكي بن عمر وغيرهم، توفي سنة (370 هـ).

15 ــ أحمد بن إسحاق أبو جعفر الحلبي الحنفي الملقب بالجرد، ولي قضاء حلب لسيف الدولة، وحدّث عن عمر بن سنان المنبجي ومحمد بن معاذ، وحدّث عنه علي بن محمد بن إسحاق وتمام الرازي وغيرهم، توفي سنة (370 هـ).

16 ــ صالح بن جعفر بن عبد الوهاب الهاشمي الحلبي القاضي، سمع أبا بكر أحمد بن عبد الله البصري وأبا عبد الله بن خالويه النحوي وغيرهم، وروى عنه أبو الفتح أحمد بن علي المدائني، توفي أواخر القرن الرابع الهجري.

17 ــ عبد المنعم بن عبيد الله غلبون الحلبي المقري؛ نزيل مصر، ولد سنة (309 هـ)، قرأ على محمد بن جعفر الغرياني وإبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي وغيرهم، قال الحافظ الذهبي: "كان ثقة"، وقال أبو عمرو الداني: "كان حافظاً للقراءة ضابطاً ذا عفاف ونسك وفضل وحسن تصنيف" توفي سنة (389 هـ).

18 ــ الحسين بن علي بن محمد الحلبي المحدّث، قدم بغداد وحدّث بها عن قاسم الملطي والمحاملي وابن عقدة، وغيرهم، قال الخطيب: "كان يوصف بالحفظ وما علمت من حاله إلا خيراً رحمه الله"، توفي سنة (390 هـ).

19 ــ أحمد بن علي بن جعفر الحلبي الوراق المعروف بالواصلي، سكن دمشق وحدّث عن أحمد بن عبد الله البرامي، وأحمد بن إدريس الإمام الحلبي وغيرهم، وحدّث عنه أبو محمد ابن أبي نصر ومكي بن محمد بن الغمر، وغيرهم، توفي أواخر القرن الرابع الهجري.

20 ـ علي بن محمد بن إسحاق الحلبي القاضي الفقيه الشافعي، سمع من جده إسحاق بن محمد الحلبي وخيثمة بن سليمان، وغيرهم كثير، وروى عنه عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد والحسين بن الرواس وغيرهم، توفي سنة (396 هـ)[6].

21 ـ وفي سنة (333 هـ) كان قاضي حلب أحمد بن مائل الشافعي.

22 ـ ثم أصبح علي بن عبد الملك بن بدر الرومي الشافعي قاضي حلب في نفس العام.

23 ـ وفي عهد سيف الدولة من حكمه لحلب (333 ـ 356 هـ) تولى قضاءها سلامة بن بحر الشافعي وأحمد بن إسحاق بن أحمد الإصطخري الشافعي.

24 ـ وفي سنة (404) ولي قضاء حلب محمد بن أحمد بن محمود نبهان الشافعي، وكان عالماً فاضلاً متكلماً على مذهب الأشعري، وفي هذه السنة أيضاً وليه أبو يحيى أحمد بن يحيى من بني العديم الشافعي، وهو أول من ولي قضاء حلب من أهل هذا البيت وتلاه أحمد بن محمد بن أبي أسامة الشافعي[7].

المحور الثالث: الحرية المذهبية الإسلامية في عهد الدولة الحمدانية:

بعد استلام الدولة الحمدانية زمام السلطة والحكم في مدينة حلب الشهباء؛ تبنت المذهب الشيعي وذلك حسب قول المهلبي: "إن مذهب أهل حلب كان مذهب أهل السنة والجماعة حتى سنة (351 هـ) عندما نقل إليها سيف الدولة[8] بن حمدان جماعة من الشيعة مثل الشريف إبراهيم العلوي وغيره، وكان سيف الدولة يتشيع فغلب على أهلها التشيع لذلك الناس على دين ملوكهم"،[9] وقال القرماني في تاريخه: "كان بنو حمدان شيعة؛ لكن كان تشيعهم خفيفاً، ومفضّلين قط، ولم يكونوا كبني بويه، فإن بني بويه كانوا في غاية القباحة سبابين"[10].

ولذلك لم نجد من الناحية المذهبية أي معارضة بين مذهب الحاكم ومذهب الرعية؛ فقد كان الحمدانيون من الشيعة المتساهلين، ولم يكونوا متعصبين يوماً؛ إلا في حب آل البيت، ومن منا لا

---

(6) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 26/4 ـ 27، 36 ـ 69.
(7) نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي الحلبي: 230/1.
(8) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان (303 ـ 356 هـ)، وكان شيعياً متظاهراً مفضلاً على الشيعة والعلويين، انظر للتوسع: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 249/1 ـ 253.
(9) انظر: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 253/1.
(10) انظر: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 1252 ـ 253، نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي الحلبي: 155/1.

يحسبهم؟ ولهذا فهم كانوا يميلون إلى الخليفة العباسي ويحمونه ويدعون له على المنابر، في حين أنهم لم يكونوا على وئام مع الفاطميين يوماً وهم لم يتبعوهم إلا صاغرين حين أحسوا بالضعف؛ وبسطوتهم عليهم فاضطروا عندئذ إلى إضافة "حي على خير العمل" في آذانهم[11]، ومع ذلك لم تتعصب هذه الدولة الفتية لمذهبها التي انتمت إليه.

ومما يدل على ذلك انه لما دخل سيف الدولة حلب وأقام دولته فيها سنة (333 هـ) ولى قضاءها أحمد بن إسحاق أبو جعفر الحلبي الحنفي المقلب بالجرد؛ فقد كان أكثر بالناس في حلب الشهباء على مذهب السادة الحنفية[12]، حيث كان في هذه الدولة القاضي الحنفي والقاضي الشافعي، وعلماء الحديث الشريف من أتباع أهل السنة من المذاهب الأربعة المشهورة.

وقد ضربت هذه الدولة الفتية أروع الأمثلة في التعددية والمسامحة المذهبية، وهذا الاستقرار الداخلي حدا بالدولة الحمدانية ممثلة بسيف الدولة أن تعلن الجهاد والنفير العام المستمر على بلاد الروم المتاخمة لأرض المسلمين؛ الذين كانوا يغيرون ويحتلون بعض أراضي المسلمين ويقتلونهم ويأسرونهم ويخربون ديارهم؛ وذلك بين عامي (335 ــ 356 هـ)، حتى قيل إن سيف الدولة غزا الروم أربعين مرة[13]، ومما يثير الانتباه إلى اعتزاز سيف الدولة رحمه الله تعالى بالجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام أنه قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً؛ وعمله لبنة بقدر الكف؛ وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده؛ فنفذت وصيته بذلك، والذي قام بتغسيله وتكفينه قاضي الكوفة عبد الرحمن بن سهيل المالكي[14].

وإذا كان الانهيار الكبير الذي كان يعدّ الإطار العام لهذه الفترة من الزمن؛ وتفرق كلمة المسلمين واختلافهم فيما بينهم وكيد بعضهم بعضاً قد جعل جهود سيف الدولة ومعاناة مدينته حلب المجاهدة لا تصل إلى خاتمتها المرجوة من دحر أعداء الإسلام؛ فإنه كان وكانت معه في جهاده وتضحياته شعلة مضيئة في تاريخ الجهاد الإسلامي ضد الطغاة المستعمرين يستوحي منها المسلم المعاصر العبرة والقدوة في آن معاً؛ وخاصة في أيامنا هذه[15].

---

(11) حلب طراز الذهب في عهد سيف الدولة: د. محمد التونجي: 233، حلب والتشيع: ابراهيم نصر الله: 25.

(12) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 232/1، الوضع الاجتماعي والسياسي لمدينة حلب في عهد سيف الدولة والفارابي: د. محمد حمود: 253 ــ 254.

(13) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 260/1، وانظر للتوسع: حلب طراز الذهب في عهد سيف الدولة: د. محمد التونجي: 230 ــ 233، الوضع الاجتماعي والسياسي لمدينة حلب في عهد سيف الدولة والفارابي: د. محمد حمودة: 258، 266، حلب والتشيع: إبراهيم نصر الله: 22 ــ 23.

(14) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي: 252/1، 257، الوضع الاجتماعي والسياسي لمدينة حلب في عهد سيف الدولة والفارابي: د. محمد حمودة: 269، حلب والتشيع: إبراهيم نصر الله: 23.

(15) الوضع الاجتماعي والسياسي لمدينة حلب في عهد سيف الدولة والفارابي: د. محمد حمودة: 271.

المحور الرابع: علماء وقضاة المذهب الشيعي المسلمين في عهد الدولة الحمدانية:

كتب أحد علماء الشيعة في عصرنا الحاضر عن الشيعة في حلب زمن الحمدانيين فأحصاهم وبلغو (17) عالماً أكثرهم ليسوا من علماء الدين فمنهم الأديب والشاعر، أمثال: أبي فراس الحمداني، وأبي الطيب المتنبي، وأحمد بن محمد الصنوبري، ومحمود بن محمد الرماي (كشاجم)، وعلي بن إسحاق الزاهي البغدادي، ومنهم النحوي واللغوي أمثال: الحسين بن أحمد بن خالويه، وعلي بن محمد العدوي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي علي الفارسي، وأبي القاسم القاضي التنوخي، ومنهم الفيلسوف أمثال: أبي نصر الفارابي، وأما علماء الدين الذين يتبنون المذهب الشيعي فهم قلة، وإليكم هؤلاء العلماء:

1 ـ الحسن بن أحمد بن صالح السبيعي الحافظ، كان وجيهاً عند سيف الدولة، وكان يزوره في داره، وصنف له كتاب التبصرة في فضيلة العترة المطهرة.

2 ـ علي بن عبد الملك أول من ولاه سيف الدولة منصب القضاء في حلب.

3 ـ علي بن عبد الله الناشي البغدادي، كان أحد من تضلع في النظر في علم الكلام، وبرع في الفقه، ونبغ في الحديث.

4 ـ الشريف أبو إبراهيم الممدوح الذي ولاه سيف الدولة نقابة الطالبيين بحلب، وكان ذا مكانة سامية عند سيف الدولة.

5 ـ علي بن إسماعيل الذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن؛ وهو المعروف بأمير اشكنبه، وكان ذا مكانة سامية عند سيف الدولة.

6 ـ الحسن بن علي بن الحسين الحراني الحلبي[16].

ونستنبط من ذلك قلة علماء المذهب الشيعي في حلب، على الرغم من أنه المذهب الرسمي للدولة الحمدانية؛ والذي عبّر عن المذهب الشيعي ومدحه وأعلى من شأنه هم الشعراء والأدباء أكثر من علماء الدين الذين قلّت مؤلفاتهم وكتبهم في بيان وشرح مذهبهم؛ وذلك للتقرب من سيف الدولة حاكم البلاد؛ وللحصول على المال الذي أغدقه هذا الحاكم عليهم.

[16] حلب والتشيع: إبراهيم نصر الله: 33 ـ 83.

المحور الخامس: مدى التزام المسلمين بالتسامح المذهبي في حياتنا المعاصرة:

بعـد هـذا كلـه فهـل نعي الدروس والعبر من تاريخنا وحضارتنا المضيئة، إننا بحاجة اليوم للاستفادة مـن هـذه الحقـبة التاريخية من حضارتنا الإسلامية، لنكون من دعاة التسامح فيما بين المذاهب الإسلامية، ولكن نرى بعض المسلمين اليوم يتعصبون لمذاهبهم وأفكارهم مما يؤدي للأحقاد والضـغائن؛ ويوقـظ الفتـن والشـرور، مـا لـنا نرى اليوم بعض أتباع المذهب الحنفي في تركيا وأفغانسـتان يضيقون ذرعاً بالمذاهب الأخرى، ومالنا نرى بعض أتباع المذهب الحنبلي في السعودية يـتذمرون بغـيرهم، ومـا لـنا نرى بعض أتباع المذهب الشافعي في اليمن ولبنان لا ينفتح صدرهم للآخريـن، وما لنا نرى بعض أتباع المذهب الجعفري في إيران والعراق يغلقون الباب دون حوار أو استيعاب للآخرين... والأمثلة على ذلك كثيرة.

وينبغـي علينا إذا أردنا أن نوقظ النهضة والحضارة الإسلامية؛ أن تتسع عقولنا لأفكار الآخرين ومذاهـبهم، فكلـنا نعيش للإسلام؛ ومن أجل الإسلام؛ وبالإسلام وكل واحد منا هو جزء من الإسلام، وكـل مذهب هو أيضاً جزء من الإسلام، وليس الواحد منا هو الإسلام كله؛ وليس المذهب الواحد هو الإسلام كله.

كمـا قـال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[17]، وقال: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحـدة وأنا ربكم فاتقون﴾[18]، وقال: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[19]، وقال: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[20].

[17] سورة آل عمران، الآية: 103.
[18] سورة المؤمنون، الآية: 53.
[19] سورة الأنفال، الآية: 46.
[20] سورة آل عمران، الآية: 105.

فهرس المراجع والمصادر

1 ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي، تعليق: محمد كمال، ط 2، (1409 هـ، 1989م)، دار القلم العربي: حلب.

2 ـ حلب طراز الذهب في عهد سيف الدولة: د. محمد التونجي، من كتاب مؤتمر أبو نصر الفارابي فيلسوف الإسلام والمعلم الثاني، ط 1، (1409 هـ، 1989م)، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية: دمشق.

3 ـ حلب والتشيع: إبراهيم نسر الله، ط 1، (1403 هـ، 1983م)، مؤسسة الوفاء: بيروت.

4 ـ نهر الذهب في تاريخ حلب: كامل الغزي الحلبي، تعليق: د. شوقي شعث، محمود فاخوري، ط 2، (1412 هـ، 1991م)، دار القلم العربي: حلب.

5 ـ الوضع الاجتماعي والسياسي لمدينة حلب في عهد سيف الدولة والفارابي: د. محمد حمودة، من كتاب مؤتمر أبو نصر الفارابي فيلسوف الإسلام والمعلم الثاني، ط 1، (1409 هـ، 1989م)، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية: دمشق.

حلب في شعر شعرائها زمن الأيوبيين

د.أحمد فوزي الهيب(*)

***ظلت** حلب على مدى الأزمان عقبة كأداء مستعصية أمام الطامعين، وحباً تخفق به قلوب العاشقين، وأغنية تصدح بها حناجر المغنين، وسفراً عظيماً كتبت فيه الحضارة العربية الإسلامية أسمى صفحاتها، وقصيدة عصماء يزين بها كبار الشعراء دواوينهم. نجد ذلك واضحاً في دواوين شعراء سيف الدولة الحمداني قاهر الروم، وفي مقدمتهم شاعر العربية الأول المتنبي وأبو فراس الحمداني وغيرهما،*

كما نجد ذلك جلياً أيضاً في شعر شعرائها، من أبنائها أو من غيرهم الذين اتخذوها موطناً لهم، زمن صلاح الدين الأيوبي وأبنائه من بعده، صلاح الدين قاهر الصليبيين ومحرر القدس من رجسهم، والذين قال يوم فتحت له قلعة حلب ذراعيها، وصعد إليها حامداً لله تعالى معبراً عن سعادته بها: "ما سُررت بفتح قلعة أعظم سروراً من فتح حلب"[1]، ومثلما سعد هو بها سعدت هي وأهلوها به، وعبر عن ذلك الشعراء بعامة وشعراؤها بخاصة، ومنهم سعيد بن محمد الحلبي بقوله[2]:

وصبّحتَ شهباء العواصم مُصْلتاً ... قواضبَ عزم لا يُفلّ شهيرُها
فأمطيتَ منها غارباً فيك راغباً ... وعاد يسيراً في يديك عسيرُها
وأوطأتَ منها أخمصيك تنوفةً ... يعزُّ على الشعرى العبور عبورُها

(*) اتحاد الكتاب العرب ـــ حلب.

1 البداية والنهاية، أبوا لفداء، مطبعة السعادة، مصر 1932، 313/12،

2 الروضتين، أبو شامة، ت: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر 1956، 45/2.

وردٌ إليها رَوح عدلك روحَها   وكانت رميماً لا يُرجّى نشورُها[3]

وسأكتفي هنا بالحديث عن الشعر الذي قاله فيها، وفيها فقط، شعراؤها زمن الأيوبيين،مادحين لها أو واصفين لما فيها، أو معبرين عن مشاعرهم اتجاهها في حِلّهم فيها، أو متحدثين عن أشواقهم في ترحالهم عنها، سواء أكانوا من أبنائها أم من الذين طاب لهم المقام فيها، فاتخذوها لهم موطناً وسكناً.

أعجب الشعراء بمعالم حلب الكثيرة الغنية، وأهمها قلعتها الفريدة المنيعة الشماء التي أخافت صروف الدهر وأخجلتها، وسخرت من الزمان ومعاوله وكسرتها، وقهرت الملوك القاهرين، وردتهم على أدبارهم مهزومين، قال ابن أبي منصور، علي بن ظافر[4]:

وفسيحة الأرجاء سامية الذُّرى   قلبتْ حسيراً[5] عن عُلاها الناظرا
كادت لفرط سموّها وعلوّها   تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردتْ قواطنُها المجرَّة منهلاً   ورعتْ سوابقُها النجومَ أزاهرا
شماءُ تسخر بالزمان وطالما   بشواهق البنيان كان الساخرا
ويظل صرف الدهر منها خائفاً   وجِلاً فما يمسي لديها حاضرا
ويشوقُ حُسْنُ رُوائها مع أنها   أفنت بصحتها الزمان الغابرا
فلأجلها قلب الزمان قد انثنى   قلقاً وطرْفُ الجوّ أمسى ساهرا
غلاّبة غُلْبَ الملوك فطالما   قهرت من اغتصب الممالك قاهرا

ووصف محمد بن محمد بن علي أبراجها العالية الحصينة وسورها المنيع[6]:

طلعتْ نجومُ النصر من أبراجها   فبروجُها تحكي بُروجَ سمائها
والسور باطنُه ففيه رحمةٌ   وعذابُ ظاهره على أعدائها

وأُعجب عبد الرحمن بن النابلسي بالميدان الأخضر الذي جدده الملك الظاهر حتى غدا مرجاً من مروج الجنة، ليكون مجرى للخيل وملعباً للكرة[7]:

---

[3] مصلتاً: مجرّداً، قواضب: سيوف، شهيرها: مسلولها، الغرب: ما بين الظهر والعنق، تنوفة: فلاة، الشعرى: كوكب، روح: رائحة.
[4] الأعلاق الخطيرة، ابن شداد، ت: دومينيك سوديل، المعهد الفرنسي، دمشق 1956، 170/1.
[5] حسيراً: كليلاً.
[6] إعلام النبلاء، الطباخ، المطبعة العلمية، حلب 1343هـ، 548/3.
[7] الأعلاق الخطيرة 167/1.

فحبذا من حلب مسارحٌ للحسن روح الروح في عيانها
وحبذا ما تمرح الأعين في مروجه الفيحاء من ميدانها
وما اكتست أقطارهُ من حُلل تنوّقَ الصانع في ألوانها
وما جرى حوليه من جداول عينُ الحياة الوردُ من غدرانها
رَحْبُ مجال الخيل ممتدّ مدى الـ ـسابق في الحلبة من فرسانها
لا يبلغ الغاية من أقطاره إلا فتى يُطلق من عنانها
يشرح إذ يحلُّه صدرَ الفتى وتمرح الجياد في أرسانها
فما لمَلْك لذة أحلى به من كرة اللعب وصولجانها
كأنه بعض مروج الجنة الـ ـفيحاء قد زُحزح عن رضوانها

وكان لنهر حلب "قُويق" منزلة هامة لدى الشعراء، فتأنقوا في وصفه والتشوق إليه، فمحمد بن محمد الخضري لا يعدل به أنهار بردى ودجلة والنيل، ويتلهف على جرعة منه تبلّ غليله[8]:

ما بردى عندي ولا دجلة ولا مجاري النيل من مصر
أحسنُ مرأى من قُويق إذا أقبل في المدّ أو الجزر
يا لهفتا منه على جرعة تبلّ مني غلة الصدر

وكذلك تمنى ابن المعجمي أن يضع فمه فيه، ويشرب منه مباشرة، ليبل شوقه الشديد إليه، ويروي منه عطشه الشديد[9]:

فيا ليت شعري والأماني تعلّةٌ أيضحي بعيدُ الدار وهْو قريبُ
وأكرع من صافي قويق بمرود[10] هو الدهرَ لي دون المياه حبيب

ويرى ابن سعيد الأندلسي في شط قويق ملاعب لنسيم الصبا العليل لا تستطيع العين أن تتجاوزها إلى غيرها:

ومجرّ الصبا بشطّ قويق لا عدَتْهُ حدائق الأحداق

---

[8] المصدر نفسه 143/1،
[9] إعلام النبلاء 557/3.
[10] نفح الطيب، المقري، ت: إحسان عباس، بيروت 1968، 326/2.

وكـان جبل الجوشن المطل على حلب مغنى للشعراء، وصفوه وتغنوا به وتشوقوا إليه، مثل ابن نوفـل الـذي سفح الدمع شوقاً لنفحة تأتيه منه رطبة بماء قويق، ليسألها عن أحبابه الغالين في حلب، وليطمئن عليهم، ويتلذذ بذكرهم والحديث عنهم[11]:

صـبٌّ بـأنواع الهمـوم موكّـلُ ... وأقلُّهـا لا يُسـتطاع فـيُحملُ
فدموعـه لا تأتلـي مسـفوحة ... لومـيض بـرق أو حمـام يهـدل
أو نفحـة نقلـت لـه مـن جوشـن ... وهضـابه الأخبـار فـيما تـنقل
تأتـي وذيـلُ ردائهـا مـن مـاء ور ... د قويقـه عطـرُ النسـيم مُصـندل
فـتظل وهْـو مكـرّرٌ تسـآلها ... تـتلو علـيه وذو الصـبابة يسـأل
فتعـيد جامحَـهُ ذلـولاً طائعـاً ... والشـوق للصـعب الجمـوح مذلّـل

كما تغنى أيضاً ابن سعدان برقة نسيم الجوشن العليل وتلذذه بشمه واستنشاقه[12]:

والله مـا خفَـقَ النسـيم بأرضـكم ... إلا طربـتُ مـن النسـيم الخـافق
وإذا الجـنوب تخطّـرت أنفاسـها ... مـن سـفح جوشـن كنـتُ أول ناشـق

ورجـا ابـن العجمـي أحبابه أن يخلّوا بينه وبين نسيم الجوشن، ليحمّله أشواقه وسلامه إليهم، وليسرح طرفه في ملاعب صباه في شعابه وهضابه الخضراء[13]:

فخلّـوا نسـيم الريح من سفح جوشن ... بمـا فـيه مـنه نسـمة وهـبوبُ
أحمّلهـا شـوقاً سـلامي إلـيكمُ ... فيعـبق مـنها للجـنوب جـيوب
فيسـرح طرفـي فـي ثـنايات جوشن ... بـروض رعـاه العـز وهْـو خصـيب

وذكر محمد بن محمد الخضري معالم أخرى من حلب، مثل بطياس وحيلان والميدان وغيرها، كما أقسم ألا ينسى ساعات الأنس فيها والرياض والأشجار والمنازل مدى الحياة[14]:

كـم فـيكِ مـن يـوم ومـن لـيلة ... مـرَّ لـنا مـن غُـرَرِ الدهـر
مـا بيـن بطـياس وحـيلانَ والـ ... ـمـيدان والجوشـن والجسـر
مـنازلُ لا زال خلْـفُ (15) الحـيا ... علـى رباهـا دائـمَ الـدَّرّ

[11] الأعلاق الخطيرة 168/1.
[12] معجم البلدان 2، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979، 417/2.
[13] إعلام النبلاء 557/3.
[14] الأعلاق الخطيرة 166/1.

تـالله لا زلـتُ لهـا ذاكـراً ما عشتُ في سري وفي جهري
وكيف ينساها فتى صيغ من تربتها الطيبة النشر
وكلُّ يوم مرَّ في غيرها فغير محسوب من العمر
يا ليت شعري هل أراها وهل يسمح بالقرب بها دهري

وأُعجب ابن سعيد أيضاً بمتنزهات حلب التي تسر العين والقلب بتغريد طيورها وأزهار غصونها التي تتمايل للعناق[16]:

كم بها مرتع لطرف وقلب فيه تُسقى المنى بكأس دهاق[17]
وتَغنّي طيوره لارتياح وتثني غصونه للعناق

ثم دعا لها ولجبل الجوشن ومنتزه بطياس والسعدي بالسُّقيا[18]:

لا خلا جوشنٌ وبطياسُ والسعـ ـديُّ من كل وابل غيْداق[19]

وكذلك فعل ابن سعدان[20]:

يا ديار الشام حيّاك الحيا وسقى ساحتَك الغيثُ الهمولُ
وتمشَّتْ في نواحي حلب شارداتُ الروض والساري البليل

هذا الحب الشديد لحلب من أبنائها، ومن الذين نزلوا فيها، وآثروها على بلادهم، فاتخذوها موطناً و مقاماً، جعلهم جميعاً يشتاقون إليها إذا ما ابتعدوا عنها شوقاً شديداً، غنوه بأشعار رقيقة موارة بآلام الشوق والعاطفة الصادقة، مثل عيسى بن سعدان الذي ابتعد عن حلب فاشتاق إليها فمثّلها لـه البرق لامعة أمام ناظريه[21]:

يا لـبرق كلما لاح على حلب مثّلها نُصبَ عياني

---

15 هو للناقة كالضرع للشاة.
16 نفح الطيب 326/2.
17 ممتلئة.
18 نفح الطيب 326/2.
19 كريم.
20 الأعلاق الخطيرة 165/1.
21 معجم البلدان 307/1.

كما ذكر أيضاً في قصيدة أخرى لـه تلعات حلب الخضراء والأطلال الدارسة بسفح الجوشن مشتاقاً، واستنجد بنسيم منها يطفئ نيران آلام بعده عنها الذي طال[22]:

يا حبذا التلعاتُ الخُضْرُ من حلب ... وحبذا طللٌ بالسفح من طلل

يا ساكني البلد الأقصى عسى نفسٌ ... من سفح جوشنَ يطفي لاعجَ الغُلل

طال المقام فوا شوقاً إلى وطن ... بين الأحصّ وبين الصَحْصح الرمل[23]

وسافر محمد بن محمد الخضري إلى دمشق، فلم يطق اغترابه عن حلب، فغدا حرّان من الوجد والشوق، فقال يخاطبها ويذكر بعض معالمها مثل العين والفيض[24]:

أصبحتُ في جلّقَ حرّانَ من ... وجد إلى مربعك النضر

والعينُ من شوق إلى العين والـ ... ـفيض غدتْ فائضة تجري

ومثلما اشتاق الشعراء إليها، في أثناء بعدهم عنها، اشتاقوا إلى أهلها، سواء أكانوا من أبنائها أم نزلائها، أو من الملوك والخاصة أم العامة، فهذا ملكها الأيوبي الناصر يوسف الذي سافر عنها فمنعه شوقه إليها من التهويم، بل من النعاس، فلم يجد بدّاً من أن يرسل إليها تحياته على جناح السرعة مع مسافر تحمله ناقة سريعة شديدة أصيلة[25]:

أيا راكباً يطوي الفلاةَ بشملّة ... عُذافرة وجْناءَ من نسل شَدقم

إذا حلباً وافيتها حيِّ أهلها ... وقل لهم: مشتاقكم لم يُهوّم

وهذا أيضاً ابن العجمي أحمد بن عبد العزيز لم يُنسه بعدُهُ عن حلب وأهلها حبَّه الكبير لهم في حالتي القرب والبعد[26]:

فيا جيرةَ الشهباء إنْ طال نأيُنا ... وحالت حزونٌ بيننا وسهوبُ

صفوتُ لكم حباً على القرب والنوى ... فسيّان منكم مشهدٌ ومغيب

كما رأى أن بُعدَهُ عنها صيّر كل ما يلقاه من حسنات دهره ذنوباً، فقال[27]:

وكل الذي يأتيه من حسناته ... زماني مع هذا البعاد ذنوبُ

---

[22] المصدر نفسه 102/2.

[23] الأحص: موضع قرب حلب، الصحصحان: موضع بين حلب وتدمر (معجم البلدان 112/1، 394/3.

[24] الأعلاق الخطيرة 166/1.

[25] ذيل مرآة الزمان 2، اليونيني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 143/2.

[26] إعلام النبلاء 557/3.

[27] المصدر السابق.

فـيا ليـت شـعري والأمانـي تعلّـةٌ أيضـحي بعـيدُ الـدار وهْـو قريـب

وأمـا الحسن بن نوفل فقد اجتاحته لبعده عن حلب هموم عظيمة، أقلُّها لا يمكن تحمّله، وقد كاد يهلك كلما عنَّ لـه ذكرُها، فلم يجد سوى الآمال يلوذ بها لعلها تتحقق[28]:

صـبٌّ بـأنواع الهمـوم موكَّـلُ وأقلُّهـا لا يُسـتطاع فـيُحملُ

شـوقاً إلـى بلـد يكـاد لذكـره يقضـي جـوى لكـنه يـتحمّل

ويلـوذ بالآمـال عـلّ بعـيدَها يدنـو وجامحَهـا يلـين ويسـهل

والشـاعر شميم الحلّي العراقي، وهو الغريب عن حلب، يتمنى أن تتسنى لـه زيارتها، ويستقر بها، ليحمد بذلك غربته في حلب، تلك الغربة التي لا تُحمد في سواها[29]:

لئـن سـمحَتْ أيـدي الليالـي بـرحلة إلـى حلـب حـلّ الحيا عندها الحبا[30]

شـكرتُ لمـا أولـت يـداً غربةُ النوى زماني بها شُكْرَ المُجازي على الحبا[31]

وابـن سـعيد، وهـو الأندلسي، ينكر على قائد القافلة التي كانت تنقله إلى حلب كثرة وقفاتها، ويطلب منه الإسراع إليها، لأنها مقر حبه وقبلة أشواقه[32]:

حـاديَ العـيس كـم تنـيخ المطايـا سـقْ فروحـي مـن بعدهـم في سباق

حلـبٌ إنهـا مقـرُّ غرامـي ومرامـي وقـبلةُ الأشـواق

وأمـا محمد بن محمد بن علي فقد رأى حلب تفوقت على غيرها من المدن بكل ما فيها، بمائها وهوائهـا وأبـنائها ومبانيها المتميزة، فقد أزرت بضوء الشمس وبالشهب، وأنسى كرم ضيافة أهلها الغريب غربته، فقال[33]:

حلـبٌ تفـوق بمائهـا وهوائهـا وبـنائها والزُّهـر مـن أبـنائها

نـور الغـزالة دون نـور رحابهـا والشـهب تقصـر عـن مدى شهبائها

بلـدٌ يظـل بـه الغريـب كأنـه فـي أهلـه فاسـمعْ جميلَ ثـنائها

---

28 الأعلاق الخطيرة 168/1.
29 المصدر السابق 164/1.
30 قام للرحيل.
31 العطاء.
32 نفح الطيب 326/2.
33 الوافي بالوفيات، الصفدي ت: هلموت ريتر، فيسبادن 1969، 186/1.

وكذلك رآها الشاعر ابن أبي طيّ النجار أسَّ الفخار ومحل العلياء، مَن ملكها ملكَ الأرض كلها، فقال[34]:

هي أسُّ الفخار مَن نال أعلا ها تعالى فخامة وتغالى

ومحل العلاء مَن حلَّ فيها تاه كبْراً وعزة وجلالا

مَن حواها مملّكاً ملك الأر ض اقتساراً سهولة وجبالا

هذا غيض من فيض مما قاله الشعراء في حلب وعنها في العصر الأيوبي الذي أخذت فيه حلب حيّزاً كبيراً من شعر شعرائه الذين أحبوها حباً جماً، وتساووا جميعاً في هذا الحب، سواء أكانوا من أبنائها أم من غير أبنائها الذين اتخذوا منها موطناً أنساهم بلادهم وأهليهم، فمدحوها جميعاً، ووصفوها واشتاقوا إليها، وبكوها إذا ابتعدوا عنها بأشعار صادقة رقيقة وعواطف ساخنة، كما بدؤوا قصائدهم بتحيتها تحية حب وإجلال وإكبار، ودعوا لها بالسقيا على عادة الأقدمين، ووصفوا معالمها، ومدحوا أهليها، وأعطوها حقها من التقدير والتبجيل، وتحدثوا عما وجدوه فيها من منزلة ومنعة وإباء، شأنهم معها شأن كل الشعراء معها في كل زمن من الأزمان، لذلك لا غرو إذا اختارتها الأمة الإسلامية ــ هذا العام ــ عاصمة للثقافة الإسلامية.

34 الروضتين 45/2.

حلب في النصوص الفارسية
عند الجغرافيين والرحالة والشعراء

شهباز محسني

***أضع** بين أيديكم تقريراً عن مدينة حلب خلافاً للمعتاد. فإن المعلومات المقدمة محدودة بمصادر الكتاب الإيرانيين. فحري بنا أن نرى صورة هذه المدينة في مرآة الأقوام والثقافات الأخرى بالإضافة إلى الكتب والتقارير الكثيرة التي كتبها الكتّاب العرب على مرّ التاريخ حول حلب وخصائصها وميزاتها.*

إنّ المصادر المعتمدة في هذه المدونة متنوعة فهي مستقاة من مصادر تاريخية وجغرافية وكتب الرحلات ومن الشعر والنثر أيضاً. ما يقدم في هذه المقالة لا يضم كل ما كتب ولكنه يحتوي على نبذة منها.

إن دراسة انعكاس العناصر الثقافية لقوم ما أو مكان ما في آثار الأقوام والملل الأخرى من الأبحاث المهمة في الدراسات الثقافية.

ولبلاد الشام بمدنها الجميلة وعلى رأسها حلب مكانة ممتازة في العالم الإسلامي لا تدانيها أية مدن أخرى مرتبة.

هذه البلاد ملتقى الأقوام والأديان المنتشرة والثقافات المتعددة وبتعبير آخر هي مرج البحرين شرقيّ وغربيّ العالم. ودائماً كانت هذه المدينة تتمتع بأهمية ثقافية وسياسية خاصة قبل وبعد الإسلام وظهرت حضارات كبيرة وكثيرة على تراب هذه البلاد حيث نستطيع القول حقيقة إنها كانت بلاداً مفرزة للحضارات ومولدة لها.

صحيح أن دور حلب السياسي والعسكري في تاريخ بلاد الشام مهم وحيوي لكن دورها الحضاري وأرضياتها الثقافية أكثر أهمية وتلألؤاً، فالمدونات التي وصلتنا عن الرحالة والمؤرخين تصف لنا عظمة وجلال هذه المدينة من جوانبها المتعددة المتمثلة. بالمساجد والمعابد والمدارس والمشاهد والمقامات والقلاع والحصون والعمارات الجميلة كما يبهجنا ذوق أهلها وفنّهم بحيث لو كان قارئ هذه الآثار في أدنى الأرض لأحب أن يمتلك جناحين ويطير بهما ليرى عن قرب هذه المدينة ويقيم فيها.

حلب ليست مدينة وحسب بل مجموعة ثقافية وحضارية. أسواقها ليست أسواق بيع وشراء وحسب بل مع وجود آثار أخرى كالقلعة والحمامات التاريخية والمساجد والمعابد تجعلها تشتمل على مجموعة ثقافية بالقرب منها تضفي عليها جمالاً متألقاً.

لقد جاء وصف حلب في أقدم الآثار الفارسية حيث سنقوم بتعريف بعض منها ومدونات كتابها ومؤلفيها.

1. تاريخ كزيده (التاريخ المختصر) تأليف حمد الله مستوفي

ألّف هذا الكتاب في عام 730 هجرية ولحمد الله مستوفي كتب أخرى من بينها: ظفر نامه حيث كتبها عام 735هـ ونزهة القلوب في الجغرافيا التي دونها عام 740هـ. قبر المستوفي في مدينة قزوين وقد قام بذكر حلب في مناسبة تاريخية ويبدو أن الأسطر التالية مهمة من الناحية التاريخية: "أصبح كشتاسب بن لهراسب بن اروند شاه بن كيقباد ملك إيران في مدينة حلب، زردشت دعى في زمانه لدين المجوسية. داخل كشتاسب في الدين المجوسية والزم الإيرانيين باختيار المجوسية وأرسل إلى الروم ليدخلوا في ديانة المجوسية لكنّ الروميين أظهروا عهد فريدون المشتمل على عدم التعرض للروم مهما كان الدين الذي اختاروا. فقال كشتاسب: إن الامتثال لأوامر جدي أولى، فتركهم [1].

2. حدود العالم من المشرق إلى المغرب

كتاب في وصف البلاد والتقسيمات والأقوام المختلفة وأحوالهم ألف عام 372 للهجرة في زمن محمد بن أحمد فريغون من آل فريغون المعاصر لنوح بن منصور الساماني في خراسان. مؤلفه غير معروف. [2]

---

(1) تاريخ كزيده، ص 92.
(2) فرهنك فارسي 5 /456

يوجد في وصف حلب في هذا الكتاب ما يلي:

"حلب مدينة كبيرة من الشام، عامرة وفيها سكان كثر ومليئة بالثروات. لها سور عريض يمكن الفارس من العبور عليه." (3)

3. آثار البلاد وأخبار العباد

وهو من تأليف زكريا بن محمد القزويني في الجغرافيا والتاريخ. تم تأليف هذا الكتاب ما بين سنة 630 ــ 674 هجرية ويعدّ من أهم المصادر. يقول القزويني:

"حلب مدينة عظيمة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة التربة لها سور حصين وقلعة حصينة. قال الزجاجي: كان الخليل عليه السلام يحلب غنمه بها ويتصدق بلبنها يوم الجمعة فيقول الفقراء: حلب. فسميت بذلك. ولقد خص الله تعالى هذه المدينة ببركة عظيمة من حيث يزرع في أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكرم والمشمش والتفاح والتين عذيا يسقى بماء المطر فيأتيّ غضّاً روياً يفوق ما يسقى بالسيح في غيرها من البلاد. قال كشاجم:

أرتك يد الغيث آثارها وأخرجت الأرض أزهارها

وما منعت بلدة جارها كما منعت حلب جارها

هي الخلد يجمع ما تشتهي فزرها فطوبى لمن زارها

والمدينة مسوّرة بالحجر الأسود، وفي جانب السور قلعة حصينة لأن المدينة في وطاء من الأرض وفي وسطها جبل مدوّر مهندم والقلعة عليه. ولها خندق عظيم وصل حفره إلى الماء. وفي وسطه مصانع للماء المعين وجامع وبساتين وميدان ودور كثيرة وفيها مقامان للخليل عليه السلام، يزاران إلى الآن، فيها مغارة كان يجمع الخليل فيها غنمه، وفي المدينة مدارس ومشاهد وبيَع وأهلها سنية وشيعية. وبها حجر بظاهر باب اليهود على الطريق، ينذر له ويصبّ عليه الماورد المسلمون واليهود والنصارى. يقولون: تحته قبر نبي من الأنبياء. وفي مدرسة الحلاوي حجر على طرف بركتها كأنه سرير، ووسطه منقور قليلاً يعتقد الفرنج فيه اعتقاداً عظيماً، وبذلوا فيه أموالاً. ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا اجتازها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف

(3) حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ص 445.

العجيبة والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد التحف والهدايا وكذلك سوق المزوّقين ففيها آلات عجيبة مزوّقة." [4]

4. سفرنامه (كتاب الرحلات) لناصر خسرو (394. 481 هجري)

هو من أشهر الشعراء والكتاب في إيران. في عام 437 شاهد مناماً وعلى حد زعمه صحا من نوم عميق دام أربعين سنة فترك الأعمال الديوانية وقام بالأسفار الأنفسية والآفاقية وقد زار الحجاز وآسيا الصغرى وسورية ومصر وارتبط بالإسماعيليين والفاطميين في مصر. وأصبح على مذهبهم ومن دعاتهم الأشداء ولقب (بحجة) خراسان. وقد ألّف رسالته المشهورة بعد عودته من سفره الذي دام سبع سنين. كان لديه دقة وافرة في وصف مشاهداته عن المدن التي زارها. وله ديوان أشعار (قصائد) وآثار أخرى. [5]

"جئنا يوم السبت في شهر رجب عام ثمان وثلاثين وأربعمائة إلى المروج وعبرنا في اليوم الثاني من الفرات ووصلنا إلى منبج. وتلك هي أول مدينة من مدن الشام. كان أول شهر بهمن القديم وكان جوّها رائعاً جداً لم يكن هناك أي عمارة خارج المدينة. لها حصن عظيم، قست ارتفاعه فكان حوالي خمسة وعشرين أرشاً، وفيها قلعة عظيمة تعادل عدة أضعاف قلعة بَلْخ. هي مدينة عامرة وأبنيتها تقع فوق بعضها بعضاً. ولها موقع استراتيجي بين هذه البلدان: الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ويأتي من كل هذه البلدان التجار إليها ولها أربعة أبواب: باب اليهود وباب الله وباب الجنان وباب أنطاكية.

ومن هناك إذا اتجهت نحو الجنوب ستجد مدينة حماة على بعد عشرين فرسخاً وبعدها حمص ودمشق على بعد خمسين فرسخاً عن حلب ومن حلب حتى أنطاكية اثنا عشر فرسخاً ولطرابلس المقدار نفسه ويقال إن مئتي فرسخ للقسطنطنية هناك. وخرجنا في الحادي عشر من رجب من مدينة حلب." [6]

5. كلستان (روضة الورد)

من الآثار المعروفة للشيخ مشرف الدين عبد الله الشيرازي المشهور بالسعدي الشاعر والكاتب الكبير في القرن السابع الهجري. مهارته الأساسية تبدو في الغزل وهو في هذا الشأن لا نظير له

---

(4) آثار البلاد وأخبار العباد، ص 184 ـ 185.

(5) فرهنك فارسي 4/6 209.

(6) سفرنامه، صص 16 و17.

وقد أوصل كتابه البديع ـ كلستان ـ النثر الفارسي وكتابة المقامات إلى أوجه. وقد تتبع أساطين اللغة الفارسية شعر سعدي ونثره حتى زماننا هذا. كان له أسفار كثيرة ومن بينها إقامته في الشام وحلب لعدة سنوات كما قام بنقل تجاربه ومشاهداته عن الشام في كلستان. وكان معتكفاً بجانب ضريح سيدنا يحيى ـ عليه السلام ـ في الجامع الأموي حسب ما نقله في كلستان. ويدون سعدي في الباب الثالث من كلستان حول فضيلة القناعة خاطرةً، يشير في خلالها إلى سوق البزازين في حلب ويقول: "كان سائل مغربي ينادي بسوق البزازين بحلب: يا أرباب النعمة لو أنكم كنتم منصفين وكنا قانعين لارتفع رسم السؤال من الدنيا" (7).

وفي قصة جميلة أخرى في ذم الطمع والحرص لدى أحد التجار يشير إلى المرايا الحلبية المعروفة التي كان لها رونق كبير في المعاملات التجارية وكانت تباع إلى أقصى بلاد المعمورة.

"رأيت غنياً يملك من المال مئة وخمسين جملاً وله أربعون عبداً ومثلهم من الغلمان دخل عليّ غرفتي ليلةً في جزيرة (كيش) ولم يسترح طول الليل من كثر الهذر .فكان يقول: فلان شريكي بتركستان ولي بصناعة بهندستان وهذه البطاقة سند بأرض على فلان والشيء الفلاني بكفالة فلان وتارة كان يقول: إن السفر إلى الإسكندرية يملك عليّ فكري لأن جوّها لطيف ويقول: لا، لأن بحر المغرب مخوف وقال لي غير مرة: يا سعدي ورائي سفر آخر فإذا انتهيت منه فسأجلس بزاوية اعتزالي بقية عمري وأترك التجارة فقلت: أي سفر ذلك؟ فقال: أريد أن أذهب بالكبريت الفارسي إلى الصين لأنني سمعت أنه هناك ذو قيمة عالية ومن هناك سأجلب الأقداح الصينية إلى بلاد الروم والديباج الرومي إلى الهند والفولاذ الهندي إلى حلب والمرايا الحلبية إلى اليمن والبرود اليمانية إلى فارس ومن بعد ذلك سأترك التجارة وأتخذ لي دكاناً أجلس فيه وظل يهذي هذيان المحموم بمثل هذه الأفكار الفاسدة ولمّا لم يبق بجعبته شيء من ذلك الهراء قال لي: يا سعدي حدثني أنت بما رأيت أو سمعت فقلت:

أما سمعت بجاري الركب حين هوى	بجانب (الغور) (8) عن إحدى نجائبه
فقال: لا تمتلي عين الحريص سوى	من التراب فهل ينأى بجانبه (9)

ويذكر سعدي أيضاً خاطرة أخرى عن مدينة حلب فيقول:

(7) روضة الورد (كلستان)، ترجمة محمد الفراتي، ص 134.
(8) غور منطقة في أفغانستان جنوب غزنين.
(9) روضة الورد (كلستان) ترجمة محمد الفراتي، ص 150.

"كنت مشوّش الخاطر من أصدقائي في دمشق فخرجت لصحراء القدس وأنست بالوحش فأسرت بيد الصليبيين وأجبروني على العمل في خندق طرابلس بالطين حتى رآني أحد تجار حلب الكبار على هذه الحال وكان لي معرفة به فتعجب ودفع غرامتي. أخذني معه إلى حلب وكانت له ابنة فعقد لي نكاحها بمئة دينار وبعد أن بنيت بها ظهر لي أنها سيئة الطبع مجبولة على العناء مخلوعة العنان سليطة اللسان، فنغصت على عيشي.. وذات مرة أطالت لي لسانها واستمرت تقول: أنت أنت ذاك اشتراك أب فأعتقك من قيد الفرنجة بعشرة دنانير فقلت: بلى هو الذي اشتراني بذلك المقدار ولكنه أوقعني بأسر يديك بمائة دينار..." [10]

6. المثنوي المعنوي لجلال الدين محمد مولوي (604. 5672. ق.)

ولد ببلخ. كان والده أحد العلماء والصوفيين الكبار في زمنه. والده ـ بهاء الدين ـ هاجر مع أهل بيته إلى قونية حين كان جلال الدين طفلاً صغيراً. درس جلال تحصيله عند أبيه وبعد وفاته انضم لدروس برهان الدين المحقق الترمذي وإرشاداته. أرسل برهان الدين، مولوي لإكمال تعليمه ومعلوماته إلى حلب ودمشق حيث كانت من أكبر المراكز العلمية والأدبية في ذلك الزمان. كان أستاذه في الفقه والعلوم الدينية كمال الدين ابن العديم وبعد تحصيله العلمي في حلب لمدة ثلاث سنوات انتقل إلى دمشق وأقام سبع سنين وأفاض علماً ومعرفة.. أهم آثار مولوي نثراً وشعراً

1 ـ مثنوي المعنوي في 6 مجلدات ويشتمل 26 ألف بيت على بحر الرمل ويحتوي على حكايات منظومة يؤخذ منها عبَرٌ دينية وعرفانية وتقدم الحقائق المعنوية بلغة بسيطة 2 ـ ديوان غزليات ويدعى بالديوان الكبير أو ديوان شمس يشتمل علي 50000 بيت 3 ـ الرباعيات 4 ـ المكتوبات 5 ـ فيه ما فيه 6 ـ المجالس السبعة.

ترتبط دمشق وحلب بحياة مولوي ارتباطاً قوياً وقد ذكرهما في آثاره وأقام في دمشق في مدرسة المقدمية وقد عرّف الأستاذ محمد كرد علي في كتابه (خطط الشام) ذيل عنوان مدارس الحنفية بدمشق، مدرسة المقدمية ويقول: "إنه كان هناك مدرستين باسم المقدمية، المقدمية الجوانية والمقدمية البرانية. المقدمة الجوانية داخل باب العمارة إنشاء الأمير شمس الدين محمد بن المقدم في الأيام الصلاحية أنشئت سنة 575 وهي في حكم المفقود استصفي قسم منها وجعل دوراً وداخلها غرف تؤجر وحرمها مخزن، والمقدمية البرانية تجاه الركنية بسفح قاسيون شرقي الصالحية إنشاء

[10] روضة الورد (كلستان) ترجمة محمد الفراتي، ص 114.

فخر الدين إبراهيم بن المقدم، غير موجودة ولعلها دار الشريباني وحوض مائها لم يزل كما كان أمام حمام. [11]

ويقول صاحب كتاب "الدارس في تاريخ المدارس" أيضاً: المدرسة المقدمية الجوانية داخل باب الفراديس الجديد. منشئها الأمير شمس الدين محمد بن المقدم في الأيام الصلاحية". [12]

قضى مولوي عشر سنوات من عمره في بلاد الشام في البداية سنتان أو ثلاث في حلب في المدرسة الحلاوية وأفاد من وجود كمال الدين ابن العديم (المتوفي 660) وهو من العلماء والفقهاء الحنفيين المعروفين والمميزين في زمانه. وكان له مؤلفات عديدة وأقام سبع سنين في دمشق أيضاً وسكن المدرسة المقدمية الجوانية في الشام. وارتكب عبد الباقي كولبينارلي أحد المهتمين بمولوي والمحققين بشأنه باسم هذه المدرسة سماها المقدسية خطأ." [13]

كانت كل من دمشق وحلب في هذا العهد من المراكز المهمة للعلوم الإسلامية ولجأ العديد من العلماء الإيرانيين إلى هذه النواحي بعد هجوم المغول وقضوا جل أوقاتهم في نشر العلم والعديد من العرفاء أقام في تلك النواحي لأن دمشق ونواحي جبل لبنان من الأمكنة المقدسة ومكان الأبدال والتجليات الغيبية وبوارقها. وكان يصلون ليلهم بنهارهم في جبل لبنان على أمل رؤية رجال الغيب كما أن الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي كان في الشام.

والمدرسة الحلاوية التي درس فيها مولوي ثلاث سنوات كانت في البداية من الكنائس الرومية الكبيرة وكانوا يحبونها كثيراً بسبب قدمها والروايات الدينية القائلة بقدوم المسيح وحواريه إليها وإقامتهم فيها، ولأن الصليبيين قاموا بالهجوم على حلب عام 518 قام المسلمون كرّد فعل عليهم بتحويل أربع كنائس كبيرة في حلب إلى مساجد وكانت من بينها تلك الكنيسة فأطلقوا عليها مسجد سراجين، بعد ذلك أضاف الملك نور الدين محمود بن زنكي المعروف بالملك العادل عام 544 عدة حجرات وإيوان فأصبحت كمدرسة وقفها لأصحاب وأتباع أبي حنيفة وفي عام 634 قام عمر بن أحمد المعروف بابن العديم بتجديد عمارة هذه المدرسة وكان لديه هناك أوقاف كثيرة وعاش الطلاب بشكل مرفه وبفراغ بال هناك.

مولوي في المجلد السادس من المثنوي في تشبيه المغفل الذي يضيع العمر وعند الموت في تلك الشدة أخذ في التوبة والاستغفار بقيام شيعة حلب بالتعزية كل سنة في أيام عاشوراء على بوابة أنطاكية، ووصف وصول شاعر غريب من السفر وسؤاله قائلاً: ما هذه الضجة أي تعزية؟

---

(11) *خطط الشام 6/ 9 و95.*

(12) *الدارس في تاريخ المدارس، ص 594.*

(13) *مولانا جلال الدين، زندگاني، فلسفه، آثار وگزيده أي از آنها، ص 98.*

يقـول: في يوم عاشوراء يكون كل أهل حلب على باب أنطاكية حتى الليل، يتجمع جمع عظيم مـن الـرجال والنسـاء ويقـيم مأتم تلك الأسرة من آل البيت ويصرخ الشيعة وينوحون باكين، في عاشـوراء ذكـرى كربلاء ويعددون ذلك الظلم والبلاء الذي لقيه آل البيت من شمر ويزيد. وتمضي صـيحاتهم وتهديداتهـم بالويل والثبور حتى تمتلئ بها الصحراء والوادي، فوصل شاعر غريب من الطـريق يـوم عاشـوراء وسـمع تلـك الضجة. فترك المدينة واتجه إلى تلك الناحية بهدف البحث والتفتيش عن سرّ هذه الضجة. مضي متسائلاً بإمعان: ما هذا الحزن؟ وعلى من أقيم هذا المأتم؟ أهو رئـيس عظـيم ذلك الذي مات؟ إن مثل هذا التجمع لا يكون بالشيء الهيّن.. حدثوني عن اسمه وعن ألقابـه، فأنا غريب وأنتم أهل هذه البلاد. ما اسمه؟ وما عمله وما هي أوصافه؟ حتى أنظم مرثية في مناقبة ولأنظم مرثية.. فقال له أحدهم.. ماذا؟ هل أنت بمجنون، ألا تعلم أن اليوم عاشوراء وهو مأتم لروح تفضل رجال قرن بأجمعهم. بالنسبة للمؤمن، متى يكون هذا الحزن هيناً... قال الشاعر: نعم.. لكـن أيـن عهد يزيد؟ ومتى كان هذا الحزن؟ ولم وصل هذا متأخراً؟ إذن فأقيموا العزاء على أنفسكم أيهـا الـنائمون، ذلـك أنـه موت سيئ هذا النوم الثقيل. إنّ روح سلطان من السلاطين قد فرّت من السجن، فلماذا نمزّق الثياب؟ لماذا نعض البنان؟ ولماذا كان سيداً للدين يكون وقت سرور ذلك الوقت الـذي كسر فيه القيد. لقد أسرع نحو سرادق الإقبال إنه يوم الملك والسرور والسلطان لو كان علمك بهم مثقال ذرّة. إن لم تكن عالماً فامض وابك على نفسك، ذلك أنك منكر للانتقال والمحشر ونح علي قلبك ودينك الخربين. [14]

جديـر بالذكـر أنّ لمولوي غزلاً جميلاً جدّاً في وصف دمشق فقد كرّر كلمة (دمشق) في جميع الأبيات كما أن وزن الغزل وزن مفرح لطيف. ويذكر فيه مناطق من دمشق كالخضراء وباب البريد والـربوة وعيـن أبي نواس وباب الفرج وباب الفراديس والنيرب والمزّة والباب الشرقي والسويداء والصالحية وكما ذكر سابقاً أقام سبع سنين من عمره في طلب العلم في هذه البقعة.

مـا عاشق وسركشته وشيداى دمشقيم　　　جـان داده ودل بسـته سـوداى دمشقيم

(نحن عاشقو دمشق متيّمون والهون بها)

زان صـبح سعادت كه بتابيد از آ سو　　　زان جـامع عشـاق بـه خضراى دمشقيم

(منذ أن انفصلنا عن الحبيب أقمنا في باب البريد وجامع العشاق والخضراء)

از جشـمه بونـواس مكر آب نخورى　　　مـا عاشـق آن سـاعد سـقاى دمشقيم

[14] مثنوي، ترجمه الدكتور إبراهيم الدسوقي شتاء، صص 948 و949.

(هل شربت ماءً من عين أبي نواس؟ نحن عاشقو تلك اليد السقاءة التي سقتنا من مائها العذب)

بـــر مصـــحف عثمان بنهم دست به سوكند — كـــز لؤلـــؤي آن دلـــبر لالاى دمشـــقيم

(أقسم بالقرآن أننا عشقنا دمشق أثر ذلك المعشوق كاللؤلؤ الساكن في دمشق)

از بـــاب فرج دورى واز باب فراديس — كـــي دانـــد كـــاندر جـــه تماشاى دمشقيم

(ابتعدت عن باب الفرج وباب الفراديس لا أحد يعلم لماذا استغرقنا في رؤية دمشق)

بـــر ربـــوه برآييم جو در مهد مسيحيم — جـــون راهـــب سرمست ز حمراى دمشقيم

(نحن كالمسيح في المهد، نصعد الربوة وكالرهبان نعشق حمراء دمشق)

در نـــيرب شـــاهانه بديديـــم در خـــتى — در ســـايه آن شســـته ودرواى دمشـــقيم

(رأينا شجرة عظيمة في النيرب فجلسنا في ظلالها وتهنا في حب دمشق)

اخضـــر شـــده مـــيدان وبغلتيم جو كويى — از زلـــف جـــو جـــو كـــه به صحراى دمشقيم

(اخضرّ الميدان ونحن كالكرة تحركنا غرة الحبيب التي هي كالصولجان)

كـــى بـــى مزه مانيم جو در مزّه در آييم — دروازه شـــرقى ســـويداى دمشـــقيم

(لو دخلنا للمزّة والباب الشرقي وسويداء دمشق فلن يكون ذلك خاليا من اللطف)

جـــون جنـــت دنياست دمشق از پى ديدار — مـــا منـــتظر رؤيـــت حســـناى دمشـــقيم

(ولأن دمشق جنة الدنيا، نحن ما زلنا بانتظار رؤية جمال دمشق).

انـــدر جـــبل صـــالح كـــانى است زكوهر — زان كوهـــر مـــا غـــرقه دريـــاى دمشـــقيم

(في جبل الصالحية منجم للجواهر نحن غرقى بحر دمشق أثر ذلك المنجم)

از روم بـــتازيم ســـوم بـــار ســـوي شام — كـــز طـــره جـــون شـــام مطـــراى دمشـــقيم

(للمرّة الثالثة سوف نيمّم شطر الشام من قونية لأن عشق دمشق حرّك الأشواق فينا والدواعي)

مخدومـــى شمس الحق تبريز كر آنجاست — مـــولاى دمشـــقيم وجـــه مولاى دمشقيم (15)

(15) *ديوان جامع شمس تبريزي 1 /767.*

(إذا كان سيدي شمس التبريزي في دمشق فسوف أبقى عاشقاً ومولهاً بدمشق)

7. ظرايف وطرايف

هـذا الكـتاب هو من تأليف الدكتور محمد آبادي باويل من المحققين والمؤلفين المعاصرين في إيران وقد درس هذا المؤلف خصوصيات كل مدينة من جهة شهرتها فقال بشأن مدينة حلب:

"حلب مدينة كبيرة وقديمة وفيها قلعة ماثلة وكبيرة. فيها يوجد مقام سيدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ تـبعد عـن معرة النعمان 36 ميلاً. يقول ياقوت: ما رأيته من حلب وأعمالها جميعه يدل على أن الله تعـالى اصـطفاها وفضـلها على كل المدن الأخرى وخلاصة الأمر أنه في أراضيها يتم زراعة القطـن والسمسـم والبطيخ الأصفر والخيار والتنباك والعنب والمشمس والتين والتفاح وكل هذا دون سـقاية وتعطـي أكلها بشكل ديمي. ويقول ناصر خسرو أيضاً: زراعتهم كلها حنطة وفيها الكثير من أشـجار التيـن والزيـتون والفسـتق واللوز والعنب فيها كثير وفستق حلب كان مشهوراً في الشرق الأوسط وبطيخ أيضاً.

يقـول المقدسي: منتجات مدينة حلب تشمل القطن والمنسوجات والأشنان والورد الأحمر وحلب أكـثر شـهرة فـي صناعة المرايا بين البلاد الشرقية. وعلى حد قول ناصر خسرو لا يوجد في كل أنحـاء العالم صناعات زجاجية كالتي في حلب. هذا الرحالة الإيراني يقول: عندما يرد الإنسان إلى سـوق الزجاج في حلب ينجذب لجمال أنواع الزجاج فيصبح قصد الخروج من السوق صعباً للغاية. والمصنوعات الزجاجية في حلب تصدر لجميع البلاد.

وفـي هذه المدينة تصنع أنواع من الأنابيب والأباريق والكؤوس الزجاجية الخاصة بالكيميائيين. يقـول حمـد الله المستوفي: جوهر الزجاج حجر الصوّان وأفضله موجود في حلب والمرايا الحلبية عريقة بالوصف ومشهورة جداً (نزهة القلوب، المقالة الثالثة)

نشـان جـام مـى وآب خضر مى طلبى　　　زشيشـه حلـبى جـوى وبـاده عنـبى

(ديوان جامي، ص 716)

(إذا كنت تسعى لكأس الدن وماء الخضر الأبدي، فاطلبه في الزجاج الحلبي وبنت العنب)

الـيوم أيضـاً ثمـة نـوع من الألواح الحديدية الرقيقة المطلية بالزنك يصنعون منها السماور والأبـاريق رخيصـة الثمن حيث يطلق عليها في إيران لفظ حلبي وسطح هذه الألواح المعدنيّة براق كالمرايا.

الكرباس الحلبي ــ وهو نوع من القماش ــ مشهور كثيراً، حيث يقول فرخي السيستاني شاعر القرن الرابع هجري:

نامه صاحب يا نامه او باشد همچو كرباس حلب يا قصب مقرن

(ديوان فرخي، ص 325)

نتائج البحث:

1 ــ كانت حلب محط أنظار الكتاب الإيرانيين الكبار على مرّ العصور.

2 ــ سافر الرحّالة والجغرافيّون والعلماء الإيرانيّون منذ الأزمان الغابرة وعبّر هؤلاء عن مشاهداتهم في هذه المدينة بمدوناتهم.

3 ــ إن ما يميز حلب منذ القدم مكانتها الاقتصادية في المنطقة وخصوصاً وجود أسواق ذات رونق كبير وصناعيين مهرة ومحلات صناعة الزجاج والمرايا.

4 ــ كانت الخصائص الثقافية لهذه المدينة مثل السكان والأقوام والأديان المختلفة والمدارس والمساجد والمعاهد الدينية والعلمية والقلعة وسورها القديم ومشاهد ومقامات عظمائها محمد أنظار زوّار هذه المدينة وموضع اهتمامهم.

5 ــ خلّدها الشعراء ممن زاروها بأشعارهم ووصفوها بأدق التعابير.

6 ــ وصف الرحّالة دمشق أيضاً بأحسن الأوصاف التي اشتركت بها مع حلب.

المصادر:

1 ـ آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد قزويني، دار صادر، بيروت. (دون تاريخ).

2 ـ تاريخ كزيده، حمد الله مستوفي، تحقيق عبد الحسين نوائي، ط4، نشر اميركبير، تهران، 1381 ش.

3 ـ حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تحقيق دكتر مريم ميراحمدي ودكتر غلام رضا وهرام، ط2، دانشكاه الزهرا، تهران، 1383ش.

4 ـ خطط الشام، محمد كرد علي، ط3، مكتبة النوري، دمشق، 1983م.

5 ـ الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، دون مكان، (دون تاريخ).

6 ـ ديوان جامع شمس تبريزى، جلال الدين مولوى، فردوس، تهران، 1374ش.

7 ـ سفرنامه، ناصر خسرو، به كوشش دكتر محمد دبير سياقى، زوّار، تهران، 1356 ش.

8 ـ ظرايف وطرايف، دكتر محمد آبادى باويل، انجمن استادان زبان وأدبيات فارسى، تبريز، 1356 ش.

9 ـ فرهنك فارسي، دكتر محمد معين، ط10، أمير كبير، تهران، 1375ش.

10 ـ كلستان (روضة الورد)، سعدي شيرازي، ترجمة محمد الفراتي، دار طلاس، دمشق، (دون تاريخ).

11 ـ مثنوى معنوى ، جلال الدين مولويي، ترجمة الدكتور إبراهيم الدسوقي شتاء، دون مكان، 1966م.

12 ـ مولانا جلال الدين، زندكانى، فلسفه، آثار وكزيده اى از آنها، عبد الباقي كولبينارلى، ترجمه توفيق سبحانى، ط3، بزوهشكاه علوم انسانى ومطالعات فرهنكى، تهران، 1375ش.

الإبداع في جماليات
عمر أبو ريشة

عصام حلبي

***يحار** الباحث، أي باحث، أو أي ناقد أدبي، كيف يلم بإبداعات الشاعر العربي الكبير عمر أبو ريشة، إذ تنوعت هذه الإبداعات تنوعاً فريداً، بشكل يكاد الناقد يعجز عن حصرها في بحث واحد وفي وقت قصير كهذا الوقت الذي نخصصه لهذا الموضوع الهام.*

الإبداع الأول: بيت المفاجأة والبيت الأخير.

هذه طريقة جديدة في مسار القصيدة، حيث يبدأ الشاعر بسرد قصة أو حكاية تسير برتم متسلسل على أن تصل إلى البيت الأخير حيث يغير الشاعر كل الموضوع وينقل القارئ إلى زاوية مختلفة تماماً عن كل الموضوع الأصلي للقصيدة.

وأورد فيما يلي مثالاً على ذلك في قصيدة عودي.

قصيدة عودي

قالت مللتك. اذهب لست نادمة
على فراقك.. إن الحب ليس لنا
سقيتك المر من كأسي شفيت بها
حقدي عليك ومالي عن شقاك غنى
لن أشتهي بعد هذا اليوم أمنية
لقد حملت إليها النعش والكفنا

حسبت دنيا نعيمي فيك ماثلة

فخاب ظني فألفيت النعيم ضنى

قالت وقالت ولم أهمس بمسمعها

ما ثار من غصصي الحرى وما سكنا

تركت حجرتها والدفء منسرحا

والعطر منسكباً والعمر مرتهنا

وسرت في وحشتي والليل ملتحف

بالزمهرير وما في الأفق ومض سنا

ولم أكد أجتلي دربي على حدس

وأستلين عليه المركب الخشنا

حتى سمعت ورائي رجع زفرتها

حتى لمست حيالي قدها اللدنا

نسيت ما بي هزتني فجاءتها

وفجرت من حناني كل ما كمنا

وصحت يا فتنتي ما تفعلين هنا

البرد يؤذيك عودي.. لن أعود أنا

ديوان عمر أبو ريشة ص 202

وأورد فيما يلي مثالاً آخر يبرز فيه الشاعر عبقريته الفذة في تعبيره عن حبه لكوكب الأرض، وأنه يخالف كل من يشكو من الدنيا وتعبها والحظ العاثر فيها، يخالف آراء الكثير من الأدباء والشعراء ووصفهم للدنيا بأنها دنيا عذاب ودنيا زوال إلى ما هنالك.

والإبداع في هذه القصيدة هو سرده للموضوع بشكل جذاب يجلب انتباه السامع أو القارئ للمتابعة والانتباه للوصول إلى نهاية القصيدة ليفاجأ في البيت الأخير بالرأي النهائي للشاعر:

حب الوطن

ملاك الموت طاف بي الأعالي
وشق بها غياهب كل تيه
وأبرز لي النجوم وكل نجم
يتيه بما لديه على أخيه
وقال لي انتق المأوى فإني
أريدك تنتقي ما تشتهيه
فأنت شقيت في دنياك مما
بلوت بها من العيش الكريه
وأنت قضيت عمرك في التغني
بفردوس الجمال وساكنيه
فأين تريد أن تحيا بعيداً
عن القلق المرير وعن بنيه
ولاح إلي نجم من بعيد
تفلت من مواكب راصديه
توشح بالغيوب فكان بدعاً
يتيم الند منفرد الشبيه
فقلت هناك! قال بكل رفق
هو النجم الذي قدمت فيه

ديوان: أمرك يا رب

الإبداع الثاني الخيال الجامح

الخيال الجامح والحقيقة الإنسانية الأزلية في أن البشر، معظم البشر لا يعترفون بكبر السن وأنهم قد وصلوا إلى خريف العمر، وهذا الموضوع عالجه الشاعر بكل حنكة وبراعة بخيال قل نظيره. وخلاصة القول أن الإنسان يعزو المتغيرات دائماً إلى أشياء محيطة به لا علاقة لـه بها ولا علاقة لتقدمه في السن ولوصوله إلى خريف العمر، وهذا موضوع تجاهله الإنسان منذ زمن بعيد وما أراد أن يفكر فيه، إلا أن الشاعر تجرأ وبحث هذا الموضوع بكل أمانة وصدق إلا أن خياله قد وضع هذا البحث في قالب جميل يكاد نقول إنه قالب ساخر.

الإنسان يسخر من نفسه وكأن يقول لا مجال من التهرب أو الهرب من موضوع كبر السن:

عناد

هـــذي الـــربى كـــم ضـــاق فـــيَّ قضـــاؤها
مالـــــي علـــــى جنـــــباتها أتعـــــثر
شـــب الحصـــى فـــيها ودون زحامـــه
درب يغيـــــب وآخـــــر يتكســـــر
وملاعبـــــي ومجـــــر أذيالـــــي بهـــــا
بعـــدت فمـــا تـــرقى إلـــيها الأنســـر
مـــــا كنـــــت أحســـــب أنهـــــا تتغـــــير
والخمـــر ويـــح الخمـــر كـــان أقلهـــا
يـــوري أمانـــي الـــرحاب ويســـعر
ويطـــوف بـــي دنـــيا مخضـــلة الجـــنى
لا أنتقـــي مـــنها ولا أتخـــير
والـــيوم لا وهـــج ولا أرج بهـــا
فكأنهـــا مـــن مـــزنة تـــتحدر
مـــــا كنـــــت احســـــب أنهـــــا تتغـــــير

وأرى الشـــتاء تطاولـــت أيامـــه
وازداد عســـفا قلـــبه المـــتحجر
كـــم زارنـــي وكشـــفت عـــن صـــدري له
فأقـــام لا يـــزهو ولا يتكـــبر
مـــا زلـــت أذكـــر كـــيف كـــان لهاثـــه
مـــن دفء أضـــلاعي يـــذوب ويقطـــر
مـــا كنـــت أحســـب أنـــه يتغـــير
وأتيـــت مرآتـــي وعطـــري فـــي يـــدي
فبصـــرت مـــا لا كنـــت فـــيها أبصـــر
فخفضـــت طرفـــي ذاهـــلاً مـــتوجعا
ونفـــرت مـــنها عاتـــباً أســـتنكر
خانـــت عهـــود مودتـــي فتغـــيرت
مـــا كنـــت أحســـب إنهـــا تتغـــير!!!

ديوان عمر أبو ريشة ص 184

إبداع الوصف:

لـو أردت إنصـاف عمـر أبـو ريشة في التحدث عن إبداعه الشعري في مجالات عديدة لما اسـتطعت أن أفـيه حقـه في ذلك كله ولكنني كلما تطرقت إلى خصوصية أو ناحية معينة من تلك الإبداعـات وجدت أنني لا أزال في أول الطريق في اكتشاف المواهب الكثيرة الكثيرة التي وهبها الله تعالى لهذا الشاعر الكبير.

وإذا أتيـنا إلى الوصف والرؤيا البعيدة والخيال الخصب، خطر بالبال بشكل طبيعي ودون تكلف معابد كاجوراو في الهند التي وصفها الشاعر بقصيدة رائعة، كتبها أيام كان سفيراً لسوريا في دلهي.

ومعـابد كـاجوراو تتألف من سبعة عشر معبداً نقشت عليها الرسوم والتماثيل بأشكال وأحجام مخـتلفة وهـي تمثل أوضاعاً جنسية، طبيعية وغير مألوفة، ممكنة ومستحيلة تصور الإنسان بأسمى تساميه وأدنى تدنيه وتعبر بكل وضوح عن أهوائه الجنسية الطبيعية، والغريبة، والخيالية.

حدثني الشاعر أنه عندما زار المعابد مكث هناك قرابة أسبوع ينهل من معاني هذه الرسوم والنقوش ليخرج بنظرية مخالفة لكل ما قيل عن هذه المعابد.

يقول عمر: إن السواد الأعظم من زوار تلك المعابد تقول إن الرسوم والنقوش قد تمثل عبادة الجنس، أنا لم أقل ذلك، أقول إن كل إنسان قد يرى نفسه في هذه النقوش والرسوم ويرى موقعه في الحياة إن كان في السمو أو في الحضيض.

كتب القصيدة واصفاً تلك الصور والرسوم بأسلوب أدبي رفيع دون أن يجرح سمع القارئ بكلمة نابية واحدة أو أن يسف في تصوير ووصف تلك المناظر وانتهى بالقصيدة إلى حكمة فلسفية رائعة في حياة البشر وإلى رأي بالغ الأهمية في أن الإنسان يظهر غير ما يخفي أو يخفي غير ما يظهر ويبقى الإنسان يقنع حقيقة ما في داخله بأشياء وهمية.

يبدأ بوصف المعابد ونحت الرخام ثم يصف المناظر الجنسية كلاً على حدة وينهي القصيدة بحكمة بالغة تتعلق بالإنسان ومشاعره ورغباته في الحياة:

معبد كاجوراو

من منكما وهب الأمان
لأخيه، أنت أم الزمان؟
شقيت على أعتابك الغارا
تُ وانتحرت هوان
وتمزقت أملاكها
تاجا وفضت صولجان
وبقيت وحدك فوق هذا
الصخر وقفة عنفوان
يا هيكلاً نثر الفتون
ورنح الدنيا افتتان
وثب الخيال إلى لقاك
ورد وثبته العيان

وتكلمـــــــت أحجـــــارك الصـــــماء

مشـــــــــــرقة البـــــــيان

وتلفتــــــــت مــــــــنها الدمـــــــى

بيــــــن افـــــــتراق واقـــــتران

نضـــت الوقـــــار عـــــن الحـــياة

فمـــــا اســـتقر لــــــه مكـــــان

عينـــــــيَّ.. مـــــــا تـــــــتأملان

وأي دنـــــــــيا تجلــــــــــوان

مســــــــح الذهـــــول علـــــيكما

يــــــده فمــــــا تــــــتحولان

كـــــــم دمــــــية ذل الـــــــرخام

علـــــى انتفاضـــــتها وهــــــان

طلبــــــت فـــــأعطى، واشــــرأبت

فانحـــــنى وقســــت فَـــــلان

هـــــــذان نضــــوا صـــــبوة

مجـــــــــنونة، يـــــــــتعانقان

وعلـــى ارتخـــاء الســـاعد الـــريان

تخفــــــــق خصـــــــــلتان

شـــــفة علـــــى شـــــفة تفـــــتح

بـــــــرعما وتلـــــــف بـــــان

وإلـــــى جوارهمــــــا تثنــــــت

ســــــــروة، بـــــــل ســــــروتان

غابـــــت بـــــه خصـــــرا، فـــأجفل

واســـــــتدار الـــــــناهدان

وفــــــتى يهـــــم بقـــــــبلة

ويكــــــاد يقطفهـــــا حــــنان

قطـــع الحــــياء بهـــا الســــبيل

فمـــــا اســــتعان ولا أعــــان

تمضـــــي الليالــــــي وهـــــو مـــــن

نعمائهـــــــا قـــــــاص ودان

ومــــــــــراهق مستســــــــلم

لقــــــياد غانـــــــية عـــــوان

رد الربـــــــيع لهـــــا فرفــــــت

طلعـــــــة وزهــــــت لــــــيان

أهـــــوت علـــــيه فاكتســــــى

بالياســـــمين الخــــــيزران

وتمهلـــــــــت.. لا وهجهــــــا

فـــــان ولا الينــــــبوع فـــــان

ونـــــــدي كهــــــان تضــــــوع

فـــــي مجامـــــــره الدخـــــــان

وصـــــــــنوجه وكؤوســـــــــه

طافـــــت بهـــــا زمـــــر القـــــيان

يرقصـــــــن فـــــــي إغرائهـــــن

وكــــــل قـــــــد، أفعــــــوان

وأمامهـــــــن بقـــــــية مـــــــن

كاهــــن خســـــر الـــــرهان

لـــــو هـــــم خشــــت أضــــلع

مـــــنه وصــــكت ركبــــتان

ركعــــــــت وراء وســــــاده
إحــــدى صـــباياه الحســـان

وتجمعــــــت فــــانهل نســــرين
وأوراق أقحـــــــــــــــوان

فشـــفاه مـــا اهتصــرت أناملـــه
ومـــــا اعتصـــر اللســـان

وغويـــــة ظمـــــأى تفنــــن
فـــي رضــــاها ظامــــئان

هامـــــا بمـــــا اقتســــما فكــــل
عـــــند مــــورده اســــتكان

هـــــذا مطاويهـــــا اســــتطاب
وذا نوافـــــرها اســـــتلان

وفـــتاة خـــدر لـــم تلامــس
عقـــــد مــــئزرها يـــدان

وقفــــت وجفــــناها بأذيــــال
الشــــموس معلقـــان

قالـــــت وقـــــال الوعـــــد
للأحـــــلام: مـــــا آن الأوان

كـــاجورا هـــل مـــن حـــرمة
لـــك عـــند رائـــيها تصـــان

كـــم زائـــر أدمـــى فـــؤادك
مـــا أســـر ومـــا أبـــان

أخفـــى الرضـــا وتظاهـــرت
بالســـخط عيـــناه اللـــتان

تتحريان وتنهلان
وتسكران وتحلمان
مزقت أقنعة الحياة
وما عليها من دهان
وجلوتها في عريها
فترفعت بعد امتهان
كاجورا عفوك ليس لي
مني على حلمي إئتمان
أوفى فأولى أن تموت
طيوفه خلف الجفان
لا تسألن فلن أجيب
وظن بي ما أنت ظان
أنا مثل غيري لا يرى لي
من كوى سجني كيان
أنا مطمئن بالقناع
ورافل بالطيلسان
أزف الفراق.. فلن تمد
إلى رتاجك راحتان
كاجورا... لولا العجز
والحرمان ما كان الجبان

ديوان عمر أبو ريشة ص 101

إبداع الرثاء

أما موضوع الرثاء، فيمكن القول أن شاعرنا عمر قد تفرد في رثائه لأصحابه وأقرانه خلال حياته وعمره المديد، وذلك بأسلوب جديد في الشعر العربي كافة.

لم يتبع عمر الطريقة التقليدية في الرثاء والتي تتمثل في أغلب الأحيان في سكب الدموع ونحيب القمر وكسوف الشمس، بل كان يتخيل قصة غريبة أو فكرة طارئة يبني عليها ذاك الرثاء الذي يرغب في كتابته، وفي كل رثاء يبتدع قصة جديدة لها علاقة بحياة المرثي إن كان شاعراً أو سياسياً أو أديباً إلى ما هنالك.

وسأضرب مثلين فقط لتوضيح ما أقول:

رثاء الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير).

الفكرة أن عمر تخيل أن موت الأخطل قد علم به كل من عرفه، لكن بناته لم تعلم بهذه الوفاة، من هن بناته، هن القصائد التي كتبها الشاعر ولم تعلم بموته، بنيت القصيدة على هذه الفكرة ولنسمع كيف بدأها شاعرنا عمر:

الأخطل الصغير

بنات الشاعر

نديك السمح لم يخلق له وتر
ولم يغب عن حواشي ليله سمر
بنات وحيك، في أرجائه زمر
يهزها المترفان، الزهو والخفر!
تيتمت وهي لا تدري ونشوتها
من كل عنقود ذكرى كنت تعتصر
رواقص، تحمل السلوى وتسكبها
وليس تعلم ما الدنيا وما القدر
على تأودها الإغراء منتفض
وفي تلفتها التحنان منهمر
ونحن من حولها أنضاء غربتنا
وأنت عنا وراء الغيب مستتر
نبدي لها، غير ما نخفي، ولوعتنا
تكاد في صمتها للشوق تعتذر

فـــلا تلمهـــا، إذا لـــم تخـــب بســـمتها

ولـــم يعكـــر صـــدى ألحانهـــا كـــدر

لـــم يـــبلغ الخـــبر الناعـــي مســـامعها

عـــن مـــثل هـــذي اليـــتامى يكـــتم الخـــبر!!

ديوان عمر أبو ريشة

ونأتي الآن إلى رثاء ملك، هو فيصل بن عبد العزيز

قصـــة الرثاء بنيت على جملة "أمرك يا رب" هذه الجملة نطق بها المرحوم الملك فيصل عندما أطلق عليه العيار الناري وأودى بحياته.

يتخـيل الشاعر أن الملك فيصل قال أمرك يا رب في اللحظة التي انتقل بها من عرض الوجود إلـــى جوهر الخلود، وتخيل أنه في تلك الثواني التي عاشها، تجلت أمامه الدار الآخرة ورأى فيها ما رأى وبدأ يصف للدنيا ماذا يرى هناك.

أمرك يا رب

يـــا رب أمـــرك هـــذا.. لا أطـــيق لـــه

ردا فأمـــرك يـــا ربـــي تولانـــي

مـــن أيـــن أي دوي عاصـــف عشـــيت

عيـــناي مـــن وقعـــه واهـــتز بنيانـــي

أعـــيا خيالـــي فلـــم أدرك مصـــادره

مـــن أي صـــاعقة مـــن أي بـــركان

وكـــم مشـــى المـــوت فـــي دربـــي وأوســـع لـــي

مجـــال خطـــوي أكـــان المـــوت يخشـــاني

أيـــام أرجعـــت للصـــحراء هيبـــتها

ومـــا تمنـــته مـــن مجـــد وســـلطان

يـــا رب مـــا أقـــرب الأبعـــاد كـــيف غـــدت

غـــيوبها نهـــب أشـــكال وألـــوان

أرى طـــيوفاً أراهـــا حولـــي انتشـــرت
أرى التفاتـــتها بالبشـــر تلقانـــي

هـــذا علـــيٌّ أبـــو الأبطـــال ذا عمـــر
الفـــاروق ذلـــك عـــثمان بـــن عفـــان

جـــراحهم نزفـــت مـــن قـــبل واندملـــت
ومـــا دروا مـــا جنـــت ســـكينة الجانـــي

هـــل طالعونـــي عـــزاء لـــي وهـــل شـــعروا
أنْ شـــأنهم عـــند أعـــراس الـــردى شـــاني

وذاك طـــيف أبـــي عـــبد العزيـــز وفـــي
عينـــيه ومضـــان مـــن شـــوق وتحـــنان

أشـــار لـــي ومضـــى عجـــلان أحســـبه
رأى علـــى القـــرب منـــي نعـــش جثمانـــي

يـــا رب أيـــن أنـــا لا شـــيء أبصـــره
حولـــي أظـــن القضـــاء الســـمح وافانـــي

أراحـــل يـــا لهـــا مـــن رحلـــة قصـــرت
ولـــي علـــيها عـــتاب المشـــفق الحانـــي

لـــي بعـــد يـــا رب مـــن دنـــياي أمنـــية
تقـــتات بـــالوعد مـــنها كـــل أشـــجاني

أردت أخـــتم فـــيها العمـــر مقـــتحماً
أحقـــاد حطيـــن فـــي مضـــمارها الثانـــي

وأن أصـــلّي وكـــف القـــدس تحمـــل لـــي
رضـــاك فـــي المســـجد الأقصـــى وترعانـــي

مـــا كـــان أكـــرمها فـــي العمـــر أمنـــية
مـــا كنـــت أحســـبها تمضـــي وتنســـاني

سفينة العمر ما أرخصت جولتها
على مناكب أفراحي وأحزاني
حشدت فيها رغاب الحق فأتلقت
بما أراد لها عزمي ووجداني
وباسمك انطلقت في اليم شامخة
ومن سناك مناراتي وشطآني
فكم طويت الليالي دون دفتها
على سراها وما أغمضت أجفاني
وكم خنقت بها أنفاس عاصفة
وكم سحقت بها أضلاع طوفان
يا رب ما حل بي جرحي يسيل على
شراعها رعشة الإعياء تغشاني
يا رب حسبي وأنت الآن مغرقها
إن قيل أغرقت فيها خير ربّان

ديوان أمرك يا رب

أهم المصادر:

1 ـ ديوان عمر أبو ريشة ـ دار العودة ـ بيروت 1970م.

2 ـ ديوان أمرك يا رب (112 صفحة) دار الأصفهاني للطباعة ـ جدة 1398هـ.

حلب
في تراثنا الأدبي والفني

محمود فاخوري(*)

يقول ياقوت الحموي:

حلب ***" مدينة عظيمة واسعة، كثيرة الخيرات، طيبة الهواء، صحيحة الأديم والماء... وشاهدت من حلب وأعمالها ما استدَلَلْتُ به على أن الله تعالى خصّها بالبركة، وفضلها على جميع البلاد... وأما قلعتها فبها يُضرب المثل في الحسن والحصانة... وما زال فيها على قديم الزمان وحديثه أدباء وشعراء... وقد أكثر الشعراء من ذكرها ووصفها والحنين إليها(1)"***

ذلك مجمل ما قاله ياقوت الحموي عن حلب في كتابه "معجم البلدان" وقد زارها وأقام فيها غير مرة. وليس هو الوحيد الذي أشاد بهذه المدينة ونوه بفضلها وجمال طبيعتها وأريحية أهلها، فهناك أقوال كثيرة مماثلة، للرحالة والجغرافيين العرب: كالمقدسي، وابن جبير، والحِمْيَريّ، وابن بطوطة، وغيرهم، ممن وصف "الشهباء" التي تعد من أقدم المدن العامرة في العالم، إن لم تكن أقدمها، ولا تزال حتى اليوم زاخرةً بالحياة، مزدهرةً بالحضارة والعمران، بعد أن مرّت بأحقاب متلاحقة منذ القرن العشرين قبل الميلاد، وعرفت أمماً شتى تعاقبت عليها، كما عرفت أمجاداً تليدة انتظم بها مجد الزمان، ومجد البطولات، ومجد الثراء، فهي ثغر قام على الحدود مع الروم، وهي ملتقى الطرق التجارية الكبرى لقوافل الشرق والغرب، ثم إنها مدينة الآثار والأسوار والأبراج، وهذا كله جعلها موئل العزة، ومورد الصفاء، فبقيت فتية الإهاب، محافظة على تراثها الثمين، وكنوزها الأوابد، وجلال أبنيتها القديمة حتى كادت تكون بهذه الخصائص والمزايا المدينة الوحيدة في الشرق العربي،

(*) أديب وباحث من سورية

(1) معجم البلدان: "حلب".

وحظيت بإعجاب الرحالة والباحثين الغربيين الذين زاروها، أو أقاموا فيها منذ القرن السادس عشر للميلاد حتى القرن العشرين، نذكر منهم:

القيصر "فريدرك" البندقي (1563م)، ودار فيو "قنصل فرنسا في حلب عام 1683م" والسائح الفرنسي "دو رازكل" والمستشرق الألماني "نولدكه" والطبيب الألماني "بيشوف" الذي أقام في حلب وأعجب بها جداً، ووضع كتاباً عنها باللغة العربية، عنوانه "تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء[2]"، والشاعر الرومانسي الفرنسي "لامارتين" الذي سكن في حي الكتاب منذ قرن ونصف تقريباً ونظم قصيدة يصف فيها فتاة حلبية تدخن نرجيلتها قرب بركة ماء. ولا ننسى أيضاً الإشارة إلى أن شكسبير ذكر حلب مرتين في شعره، كما ذكرها دانتي في الكوميديا الإلهية. وربما كان آخرهم المستشرق الفرنسي "جان سوفاجيه" المتوفى سنة 1950م والذي أقام في حلب مرة، ألف خلالها كتاب "الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب" وترجمه محمد أسعد طلس إلى اللغة العربية مع شهادات كثيرة أضافها إلى الكتاب[3].

على أن ازدهار حلب في العصور العربية الإسلامية إنما بدأ في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، "القرن العاشر للميلاد" حين استقل بها سيف الدولة الحمداني، وأقام إمارته فيها، فكان زين الرجال، ورافع لواء الجهاد، ومُعلي صرح الشعر والأدب والفن في تلك المدينة الخالدة التي أعطت دنيا الفكر العربي ثروة ثقافية وفنية عظيمة، بمن نبغ فيها من أساطين العلم والفلسفة، وعباقرة الشعر والأدب، وأوعية النحو واللغة، وبما زين رفوف مكتباتها العامة والخاصة من الأسفار القيمة، والدواوين النادرة، والمخطوطات النفيسة.

ومعظم الفضل في ذلك إنما يعود إلى ذلك الأمير النابه، والقائد الجريء، والشاعر الناقد، "سيف الدولة" الذي جعل "الشهباء" ملاذ العلماء، ومقصد الأدباء والشعراء، ومستقر أولي البحث والفن في عصره، فسنّ بذلك سنةً حميدةً في هذه المدينة، امتدت آثارها إلى ما بعد عصره، على امتداد القرون، واستطاع أن يجعل حلب بغداداً[4] ثانية، ومركزاً فكرياً مشعاً ينشر ضياءه في الآفاق، ويبدد حنا دس الجهل والركود.

ولم تصرفه الحروب المتواصلة مع الروم، وإصلاح الأسوار والحصون، عن تحقيق ما كان يواثبه من آمال في إحياء النهضة العقلية. وإيقاظ الحركة الأدبية في عاصمة إمارته. فجمع حوله كوكبة لامعة تنهض بذلك العبء، وفتح صدر مجالسه لطائفة صالحة من رجال الأدب والفكر والفن،

---

[2] طبع كتابه هذا في المطبعة الأدبية في بيروت سنة 1880م ويقع في 163 صفحة. ثم طبع ثانية في دمشق سنة 1992م بتحقيق شوقي شعث وفالح بكور.

[3] طبع في مطبعة الترقي بدمشق سنة 13 75 هـ/ 1956م ويقع في 390 صفحة، وهو مزود في آخره بعدد وافر من الصور والمخططات والألواح.

[4] لا تمنع "بغداد" هنا من الصرف لأن المراد بها "مدينة أخرى تشبه بغداد" وليست "بغداد" نفسها.

ولصفوة مختارة من الكتاب والخطباء، ومن الفلاسفة والأطباء والندماء... كل أولئك هرعوا إليه من مختلف الأصقاع العربية والإسلامية، حتى قال الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" "لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك — بعد الخلفاء — ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها[5]".

وهكذا جعل هذا الأمير الحمداني قصره — الذي بناه في "الحلبة" قُرب محلة الفيض بحلب — منتدىً أدبياً تعقد فيه المناظرات، ومجلس أنس تلقى فيه روائع الأشعار، وتسمع أجمل الأصوات والألحان، وزود قصره هذا بمكتبة ضخمة، تضم آلاف المجلدات من نوادر الأسفار والدواوين، لتكون مرجعاً له وللوافدين عليه، ولا يفتأ يغنيه بكل جديد، حتى إن أبا الفرج الأصفهاني لما ألف كتابه العظيم "الأغاني" بمجلداته الأربعة والعشرين، أهدى نسخةً منه إلى سيف الدولة، فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه لقلة المبلغ[6].

وبذلك كله، انقلب الركود الذي كان يَرينُ على حلب، نهضةً وازدهاراً لا مثيل لهما من قبل، واستطاع ذلك الرجل الفذ أن يجمع حوله في سنوات متقاربة نخبةً مصطفاة من نوابغ الأعلام في كل علم وفن.

فكان فيهم الشعراء: من أمثال المتنبي، والصنوبري، والسّريّ الرفّاء، وكشاجم، والببغاء، والوأواء الدمشقي، والأخوين الخالديين، وابن نباتة السعدي، وغيرهم.

وفيهم علماءُ اللغة والنحو، وعلى رأسهم:ابن جني، وأبو علي الفارسي، وأبو الطيب اللغوي، وابن خالويه.

ومن الكتاب والمنشئين: أبو الفرج السامري، وأبو محمد الفيّاص، وابن البازيار، وآخرون.

أما الأدباء فكان في مقدمتهم: أبو بكر الخوارزمي، وأبو الفرج الأصفهاني. هذا إلى عدد من الفلاسفة: كالفارابي، والقضاة، كأبي الفرج سلامة بن بحر، والمنجمين والفلكيين: كأبي القاسم الرِّقي، والمغنين: كالهنكري...

لقد وفد هؤلاء وغيرهم على سيف الدولة من أصقاع شتى، وانتظموا في عاصمة الدولة الحمدانية، وزينوا مجالس أميرها بآرائهم الناضجة، ونتاجهم الثقافي، فكانوا دعائم الحياة العلمية والأدبية في ظل سيف الدولة الذي كان غرة تلك المجالس في إثارته لمختلف القضايا، وتوجيه

(5) يتيمة الدهر للثعالبي 1 / 27 — 28.

(6) انظر تفصيل الكلام على ذلك كله في كتاب: "سيف الدولة وعصر الحمدانيين" لسامي الكيالي ولا سيما الصفحات 71 — 79

الحوار والمناقشة بما يرضي العلم والأدب، يرفده في ذلك ثقافة أصيلة، وذكاء وقاد، ولباقة آسرة، وحافظة جيدة، إضافة إلى ما نشأ عليه من شاعرية وموهبة نقدية.

وقد تنوعت المسائل والقضايا التي كانت تطرح في تلك المجالس، ولكن قد يغلب على بعضها طابع معين يطغى على غيره. فهناك ما يسمى "بالمجالس السياسية المصحوبة بالأبهة وإظهار الهيبة حين يأتي رسول الروم مفاوضاً".

وهناك ما يسمى "بمجالس المناظرة والعلم" بين اللغويين والنحويين والمتكلمين، ومجالس أخرى يمكن أن ندعوها "مجالس الشعر والأدب والنقد" وإلى مثلها أشار المتنبي بقوله مخاطباً سيف الدولة:

ولكنْ كلُّ شيءٍ فيه طيبٌ — لديك من الدقيق إلى الجليل

وميدانُ الفصاحة والقوافي — ومُمْتَحَنُ الفوارس والخيول[7]

وقد يكون للغناء والطرب مكانهما في مجلس الأمير الحمداني، فيوسم عندئذ بأنه "مجلس الأنس"، والأصل فيه رغبة سيف الدولة في سماع المغنين البارعين في فنهم، وترويح النفس من مشاغل الدولة، والاستمتاع بما هو رفيع من الموسيقا والألحان.

وقصة الفارابي ــ مخترع القانون ــ معروفة في مجلس سيف الدولة، رواها ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان[8] وخلاصتها أن الفارابي ورد على سيف الدولة في مجلس طرب، وهو لا يعرفه، وأخذ الفارابي يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس، في كل فن، حتى صمتوا. فصرفهم سيف الدولة، وأقبل على الفارابي يدعوه إلى الطعام، فالشراب، فالسماع... فامتنع، إلا عن السماع. وعندئذ أمر سيف الدولة بإحضار المغنين، فحضر كل ماهر في الصناعة بأنواع الآلات، فلم يحرك أحد منهم آلته الموسيقية إلا عابه الفارابي وقال له: أخطأت. ثم أخرج من وسطه عيداناً وركبها، ثم لعب بها، فأضحك كل من كان في المجلس، ثم غير تركيبها وضرب بها فأبكاهم جميعاً، وأخيراً ركبها على هيئة أخرى وراح يحركها، فناموا كلهم حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج.

قال ابن خلكان: "ويحكى أن الآلة المسماة، القانون، من وضعه، وهو أول من ركبها هذا التركيب".

وبديهي أن ما حصل في ذلك المجلس لم يتم بنفس السرعة التي روى بها الخبر، وإنما احتاج ذلك إلى انقضاء بعض الوقت، كما يعلم ذلك من حضر أشباه هذه المجالس الفنية. ونحن لا يهمنا تفاصيل ذلك الخبر بمقدار ما يهمنا أصله وهيكله. وما له من دلالة على مجالس الأنس والطرب التي تضم المبدعين في هذا الباب، في رحاب قصر سيف الدولة.

[7] العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، لليازجي ص 356 ــ 357.
[8] وفيات الأعيان لابن خلكان 5 / 155.

على أن ما يُستملح من هذه الندوات والمجالس، على اختلاف صورها، ما كان يحصل فيها أحياناً من مفاجآت طريفة لم يحسب حسابها، يثيرها قدوم رجل طارئ على المجلس. ومن ذلك أن الشعراء كانوا ينشدون بين يدي سيف الدولة في مجلسه العامر بالقوم، فتقدم أعرابي رث الهيئة، فاستأذن الحجاب في الإنشاد، فأذنوا له، فأنشد هذه الأبيات:

أنت عليٌّ، وهذه حلبُ	قد نَفِد الزادُ، وانتهى الطلبُ
بهذه تفخر البلاد، وبالـ	أمير تُزهى على الورى، العرب
وعبدك الدهرُ قد أضرَّ بنا	إليك، من جور عبدك، الهربُ

فقال سيف الدولة: أحسنت، ولله أنت... وأمر له بمئتي دينار(9).

لقد كانت مجالس سيف الدولة، تلك، خيراً على الأدب العربي وعلوم العربية، بما أحيت من حركة أدبية ثقافية، وبمن استقدمت من نوابغ الرجال، ذوي العلوم المتنوعة، وبما أتاحت من فرص سانحة للشعراء، والكتاب والعلماء كي يظهروا مواهبهم الكامنة.

صحيح أن هذه الصحوة الأدبية والفكرية لم تعش — في ذاتها — طويلاً وصحيح أيضاً أن أساطين تلك الندوات والمجالس قد انفرط عقدهم فيما بعد، واصبح لكل وجهةٌ هو موليها... إلا أن الأهمية الكبرى لتلك البيئة السيفية كانت فيما تركته من آثار بعيدة المدى في أغراض الشعر وفنونه، وفي خصائصه وسماته، حتى بعد زوال إمارة الحمدانيين في حلب، إذ ما فتئ النوابغ يظهرون من حين إلى آخر: في الشعر والفقه، والطب، والحديث، والفلسفة.. حتى الموسيقا والفن ويكفي أن نرجع إلى كتاب "إعلام النبلاء" قرناً فقرناً، لنرى تفوق حلب على سائر مدن الشام في علمائها وأدبائها وشعرائها، وفي مدارسها التعليمية التي ترقى إلى مستوى كليات الجامعة، فضلاً عن مكتباتها العامة والخاصة، وحب أهل حلب للأدب والشعر والفن واقتناء الكتب، في كل عصر. وكأن النفوس جُبلت على الالتزام بسنة سيف الدولة، فتابعت حلب مسيرتها الثقافية والفنية، وبقيت إلى يومنا هذا مهد العلم والأدب والشعر والتاريخ، وملاذ الفن والموسيقا والغناء، حتى قال الشاعر القروي — وهو شاعرٌ مهجريّ خالط الرعيل الأول من المغتربين الحلبيين، وشهد بعض أسمارهم، وعاين بنفسه حبهم العجيب للموسيقا العربية الأصيلة، والألحان الأخاذة، ولا سيما حينما زار حلب — فقال كلمته الصادقة: "حيثما لقيت رجلاً حلبياً، فأنت إما مع فنان، وإما مع روحٍ تطرب للفن".

(9) وفيات الأعيان 3/ 404 والجدير بالذكر أن سيف الدولة كانت له دنانير خاصة به تسمى دنانير الصلاة، وهي دنانير كبيرة الحجم كان سيف الدولة قد أمر بضربها لإهدائها في الأعياد والمناسبات المختلفة، ويزن الواحد منها عشرة أضعاف الدينار العادي الذي يعادل 4،5 غ تقريباً.

والحـق أن حلـب اشتهرت منذ القديم بغرام أبنائها بالموسيقا، منذ عهد سيف الدولة الحمداني، فضـلاً عن الموسيقيات والمغنيات ممن غفل المؤرخون عن ذكرهن، أمثال "علوة" محبوبة البحتري، التـي ذكرها كثيراً في شعره، وبقيت دارها معروفة بحلب حتى القرن الخامس للهجرة (ق11 م) أي بعد البحتري بقرنين من الزمن، إذ يقول ابن بطلان ــ وهو طبيب باحث من أهل بغداد ــ حينما مر بحلب سنة 440هـ: "وفي وسط البلد دار علوة صاحبة البحتري".

وقـد أنبتـت حلب عدداً كبيراً من أعلام الموسيقا والتلحين والطرب، وما من بلد عربي نال من الشـهرة وبعـد الصيت في فن الموسيقا ما نالته هذه المدينة، ولا سيما في النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر، والنصف الأول من القرن العشرين. وليس من فنان عربي حضر إلى مسارح حلب مغنيـاً أو عازفاً ــ قبل أن تكثر دور الخيالة، وتنتشر آلات الإذاعة والتلفزة ــ إلا كان يخفق فؤاده، ويحسـب حسـاباً للقـاء سكان حلب التي لا تهادن من يسمعها فناً متهافتاً أو غناءً رخيصاً، وحسبك بصـالح عـبد الحـي، ومحمـد عبد الوهاب، وأم كلثوم، شواهد على ذلك، وهم من هم في الشهرة والمجد، وطول الباع في التلحين أو الغناء.

فمـن أوائـل ذوي الفـن المتأخرين:" "محمد رحمون الأوسي" الذي عاش أربعة وتسعين عاماً 1771 ــ 1865م، وكـان موسـيقياً بارعاً، وملحناً مجيداً، وقد لحن 92 موشحاً، وتخرج على يديه نحو 750 تلميذاً، ويذكر معه أيضاً معاصره "مصطفى البشنك" الذي ولد في حلب سنة 1765م وكان نابغة في الموسيقا والأنغام، وقد لحن نحو 200 موشح، ومعظم الموشحات المعروفة عند الناس اليوم هـي مـن تلحينه. ومما يجدر ذكره أنه جعل القاعة المعروفة بـ "قاعة بيت مشمشان" نادياً موسيقياً يقصده طلاب هذا الفن، وتقام فيه حفلات الطرب والغناء، والرقص الشرقي الأصيل(10).

ولـم تكـن هذه القاعة هي الوحيدة في تلك المدينة، وإنما كان كثير من ذوي الجاه والغنى فيها يهـتمون بشـؤون الطـرب والأفراح، ويشيدون في بيوتهم قاعات رحبة، ويقيمون في ساحاتها سدة مـرتفعة، لفـرق المطربين، بعد أن شاعت الموشحات، والقدود الحلبية، والمواويل العذبة التي يشيع فـيها الغـزل العفـيف، والمعاني الشريفة. "وكان فصل "اسق العطاش" في طليعة الفصول المطربة، التـي أحلها الحلبيون مقاماً عالياً في عالم الفن والموسيقا" وقد فصل القول فيه عبد الله يوركي حلاق في كتابه "حلبيات" وعرفه بأنه "مجموعة بديعة نادرة من الأناشيد والقصائد والموشحات والتحميلات، والأدوار المتنوعة الأوزان والقوافي، والمتعددة النغمات والأصول والتقاسيم(11)".

---

(10) قاعة مشمان كانت منذ نحو قرن ونصف ويدرس فيها فنّ الموسيقا: الموسيقار مشمشان. انظر تفصيل الكلام على ذلك كله في مجلة "العمران" ع (20، 21، 22) ص 280 ــ 288.

(11) كتاب "حلبيات" لعبد الله يوركي حلاق ص 168.

هـذا إلى أنواع من الرقص الأصيل البعيد عن الخلاعة والمجون، ولا سيما رقص السماح الذي يشتمل علـى ضروب كثيرة مختلفة من الخطوات الفنية، والموشحات الغنائية الخلابة. ومبتكره هو الشيخ عقيل المنبجي المتوفى سنة (550هـ ـ1155م) والمدفون في منبج[12] ومن موسيقيّ حلب الذيـن اشتهروا في القرن التاسع عشر "أحمد عقيل" المولود سنة 1813م "وكان ملحناً حسن الصوت، كما كان منشداً في الأذكار والتكايا التي كان عددها في ذلك الحين نحواً من أربعين تكية". وكان قد تعـرف إلـى موسيقيين أتراك، وأخذ من فنونهم ومزجها بالألحان العربية وقد اجتمع به بعض فناني مصـر عـندما حضروا إلى حلب وعملوا في مسارحها، وكانت فرصة سانحة لهم للتأثر والاقتباس حـتى إن أبا خليل القباني الدمشقي أخذ عنه فن الموشحات وأصول رقص السماح. وكان من تلامذته أيضاً زوجة قنصل إيطاليا في حلب آنذاك، وقد اعترفت بأنه يقل نظيره في هذا الفن حتى في أوربة. وقد توفي سنة 1913م بعد أن بلغ المئة من عمره[13].

واشـتهر فـي حلب، في تلك المرحلة أيضاً "مصطفى المعضم" الذي عاش مئة سنة 1829 ـ 1929م وكان موسيقياً بارعاً، أخذ عن مصطفى البشنك، كما كان هو أستاذاً لعمر البطش[14].

ومن الموسيقيين الحلبيين الذين طبقت شهرتهم الآفاق، رجال من أسرة "الشوا" نبغوا في العزف علـى بعـض الآلات الموسيقية ولا سيما الكمان، وأولهم "عبود الشوا" الذي عاش في النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر، وأخوه " أنطون الشوا المتوفى سنة 1914م، وقد لقب بأمير الكمان، واشتهر فـي الوطـن العربـي ولا سيما مصر التي أقام فيها زمناً. وكان لأنطون ثلاثة أولاد موسيقيين هم: سـامي، وعـبد الكريم، وفاضل، وأبرعهم "سامي" الذي لم يكن في زمانه عازف على الكمان أمهر منه. وقد نزح إلى مصر وتوفي فيها سنة 1996م عن عمر يناهز الحادية والثمانين[15].

ونذكـر أيضاً موسيقياً آخر هو "كميل شمير" العازف المشهور على البيانو، والملحن الذي صنع كثـيراً من الألحان المسرحية والأوبريتات. وقد توفي سنة 1934م ولم يتجاوز الثانية والأربعين من عمـره[16]، وكـان لوفاته رنة حزنٍ وأسى، وقد رثاه صديقه الشاعر عمر أبو ريشة بقصيدة طويلة عنوانها "مصرع الفنان"، وأولها:

نـــام عـــن كأســـه وعـــن أحـــبابهْ

قـــبل أن ينقضـــي نهـــارُ شـــبابهْ

---

(12) تجد تفصيل الكلام على "رقص السماح" في كتاب "حلبيات" 176 ـ 182.

(13) كتاب "حلبيات" 187.

(14) مجلة العمران ص 284 ووردت شهرته محرفة ثمة.

(15) فصل الكلام عليهم صاحب كتاب حلبيات 184 ـ 187

(16) كتاب حلبيات 189.

بسماتُ الرضى على شفتيه
وشتاتُ الرؤى على أهدابه
وبناتُ الغروب تسكب في أذنيه
أصداءَ عوده وربابه(17)

ويلاحظ أن بعض أولئك الموسيقيين والملحنين قد عمروا، أو امتد بهم الأجل إلى القرن العشرين، الذي شهد كوكبة أخرى رفعت لواء الفن، وتابعت هذه المسيرة الأصيلة وكأنها تريد أن يبقى لحلب طابعها المتألق، وعراقتها الراسخة، وهويتها المتميزة، التي دفعت عدداً من أقطاب هذا الفن في مصر إلى أن يزوروا حلب في العقدين: الأول والثاني من القرن العشرين، ويتأثروا جداً بالموسيقا الحلبية وأنغامها، وبقدودها وموشحاتها، وعلى رأسهم الشيخ سلامة حجازي، وسيد درويش. بل إن هذا التأثر امتد بقوته إلى أعلام آخرين في مصر، مثل عبده الحمولي مجدد شباب الغناء العربي، فقد كان حسن الصوت جداً، وتصرف بصناعته تصرفاً عجيباً حتى عد من أصحاب الابتداع والاختراع في هذا الفن، بعد أن تأثر بالطريقة الحلبية التي نقلها إلى مصر بعض الحلبيين من قبل، في المئة الأولى بعد الألف للهجرة، وتلقاها عنهم بعض المحترفين من المصريين، ونخص بالذكر رجلاً حلبياً اسمه "شاكر أفندي" الذي نقل إلى القاهرة عدة تواشيح مع بعض القدود حيث كان فن الألحان مجهولاً هناك في تلك الحقبة(18).

ولابد من الإشارة في هذا المقام إلى أن الفن الحلبي قد تطعم بالموسيقا التركية في التطوير وإحكام الصناعة، لأن حلب أقرب البلاد العربية إلى تركيا، ولأن الأتراك قد عنوا منذ منتصف القرن التاسع عشر بالموسيقا عناية علمية وطيدة الأركان، فأسسوا معهداً رسمياً للموسيقا في استنبول اسمه "دار الألحان"، ولكن ذلك لم يمنع أن يكون لحلب أسلوب خاص في التلحين والموسيقا انفردت به وحدها دون سائر الأقطار العربية(19).

أما أعلام الموسيقا في حلب، في النصف الأول من القرن العشرين، فعددهم كثير، ويحتاجون إلى بحث خاص يُفرد لهم، ونكتفي منهم بذكر عمر البطش، وعلي الدرويش، وأحمد الأبري، وتوفيق الصباغ، وأحمد الفقش، ومجدي العقيلي، وأعقبهم، بل واصل العمل معهم وبعدهم حتى اليوم، سلسلة متصلة من البارعين في التلحين و التوشيح، والأدوار والقدود وفي علم النغمة والإيقاع، من أمثال عبد القادر حجار، ومحمد خيري، ومصطفى ماهر، وأحمد نهاد العزا، وهاشم قصة، وفؤاد رجائي

(17) انظر القصيدة كاملة في "ديوان عمر أبو ريشة" 1/ 421 ـ 433
(18) مجلة العمران، ص 282.
(19) مجلة العمران، ص 284.

وصبري مذلل، وصباح فخري، وعبد الرحمن جبقجي، ومحي الدين أحمد، وقدري دلال وعمر سرميني وماجد العمري وغيرهم.

ذلك كله، على إيجازه واختصاره، قوي الدلالة على رسوخ مدينة حلب في حلبتي الفن والأدب معاً، تذكر معهما ويذكران معها، في القديم والحديث، وعلى ألسنة الباحثين والمؤرخين، وأقلام الأدباء والشعراء. في المشرق والمغرب، وفي الوطن والمهجر. ونسوق هنا شاهداً واحداً من قصيدة رائعة ألقاها الشاعر المهجري "زكي قنصل" في حلب سنة 1986 واستمعنا إليه يومئذ وهو ينشدها، نشوان طرباً، ومطلعها:

ناجيتُ طيفك، في الأحلام، يا حلب

فهزني في هواك الزهو والطربُ

وفيها يقول مخاطباً أبناء حلب:

لم أدر لما أحاطتني بشاشتكم كيف اقتفتْ أثري الأزهارُ والشُّهب

ورنّ في أذني، لما سمعتكمُ، هديل "سامي" فأين العود والقصبُ؟

ولاح لي "عمرٌ" في كل قافية قطَّرتموها رحيقاً للألى شربوا(20)

حلفتُ لولا هوى شامية نزلت هُدْبي، وتحسدكَ الأهدابُ يا هُدُبُ

لقلتُ: تيهوا على الدنيا بجنّتكم فقد تواءمَ فيها الفنّ والأدب

وختم زكي قنصل قصيدته بقوله:

ولدتُ بالأمس في بيتي وعائلتي

واليومَ أولدُ حيث المجدُ والأدبُ

أجل، إن حلب مدينة المجد والأدب قبلاً، ومدينة الفن والأدب من بعد، وسجلها حافل بالأعلام البارزين في هذا وذاك، كما أن لهذه المدينة مكانةً خاصة في شعرنا العربي، على توالي العصور، فكم تغنى بها الشعراء، وفتنوا بجمال طبيعتها، وطيب هوائها، ومجالي حسنها، هي ومتنزهاتها المحيطة بها.

ومن الشعراء القدامى الذين كان لحلب في شعرهم نصيبٌ واضح، "البحتري" شاعرٌ "منبج"، القريبة من حلب، وصاحبُ "علوة" الحلبية التي ذكرها في شعره كثيراً، وكانت من أشهر المغنيات في حلب. ومن ذلك قوله:

(20) سامي: يعني سامي الشوا، وعمر: هو عمر أبو ريشة، وكلاهما من أعلام حلب في العصر الحديث.

أقام كل مُلثّ الودْق رجّاس

على ديار بعُلْو "الشام" أدراس

فيها لعلوة مصطاف ومرتبَعٌ

من "بانَقوسا" و"بابلّى" و"بطْياس"

منازلٌ أنكرتنا بعد معرفة

وأوحشتْ من هوانا بعدَ إيناس

هل من سبيل إلى الظُّهران من "حلب"

ونشوة بين ذاك الورد والآس؟(21)

ويكثر شعراء حلب، أو الوافدون عليها أيامَ سيف الدولة وازدهار مجالسه الأدبية، ويقترن في أشعارهم ذكر حلب بسيف الدولة مرةً، ويستقل عنه أخرى. فالمتنبي أقام في حلب تسع سنوات في كنف الأمير الحمداني، وذكرها في شعره مراراً، لكن أشهر ما قاله فيها بعد مغادرته إياها، وهو بالكوفة، قصيدةٌ بعث بها إلى سيف الدولة يمدحه ويشيد ببطولاته أمام الروم، إثر دعوة تلقاها من الأمير، بعد مفارقة المتنبي لكافور سنة 352هـ، ومن تلك القصيدة قوله:

وكثيرٌ من السؤال اشتياقٌ وكثيرٌ من ردّه تعليلُ

لا أقمنا على مكان، وإن طاب، ولا يمكن المكان الرحيلُ

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلبٌ قصدُنا، وأنت السبيلُ

فيك مرعى جيادنا والمطايا، وإليها وجيفُنا والذميل(22)

وعندما بنى سيف الدولة سور حلب، وقام بعمارته، قال شاعره "السري الرفاء" يذكر ذلك ويشيد به:

إن تَعْمُر السورَ، أو تُهملْ عمارتَه فإنه بكَ ـ ما عُمرت ـ معمورُ

لله سورٌ على الأيام يكلؤُه وأنتَ لا شك، فيه، ذلك السور

حميته برماح الخطّ مُشْرَعةً وكلُّ حصن، سوى أطرافها، زُور(23)

---

(21) المُلثّ والورق: من أسماء المطر. والرجاس: السحاب ذو الرعد ـ والأدراس: المندرسة. بابلى (باب الله) وربانقوسا وبطياس: من أحياء حلب في الأطراف. والثالث لا وجود له اليوم. الظهران: الأماكن المرتفعة المحيطة بحلب.

(22) العرف الطيب 457 ـ 458 والرد: الجواب. تعليل: تطييب للسائل. أنت: خطاب للرياض. إليها: إلى حلب الوجيف والذميل: نوعان من سير الإبل أو الخيل.

(23) ديوان السري الرفاء ص 103.

وآخرُ من شعراء سيف الدولة ـ وهو كُشاجمُ الرّملي ـ وصف في إحدى قصائده جمال الطبيعة في حلب، ومتنزهاتها، وما تركته يدُ الغيث فيها من آثار تجلت في ما صاغه بطنُ الأرض لظهرها من أنواع النبات، ولا سيما النرجس وشقائق النعمان، ونهر قويق يتهادى في مسيره (يومئذ) ويمد الأنجاد والوهاد بفيض مياهه، والسحائب تسكب أمطارها فتحيي الأرض بعد مواتها. يقول كشاجم:

أرتكَ يدُ الغيثِ آثارها — وأعلنت الأرض أسرارها
فما تقعُ العينُ إلا على — رياض تُصنف نُوّارَها
يفتح فيها نسيمُ الصبا — جناها، فيهتكُ أستارها
ويسفح فيها دماءَ الشقيق — إذا ظلّ يفتضّ أبكارها
تُغَضّ لنرجسها أعينٌ — وطوراً تحدّق أبصارَها
وما أمتعتْ جارها بلدةٌ — كما أمتعتْ حلبٌ جارها
هي الخلد، تجمع ما تشتهي — فزُرها، فطوبى لمن زارها
إذا ما استمدّ "قويق" السما — بها ـ فأمدّته ـ أمطارها
وأقبلَ ينظم أنجادها — بفيض المياه، وأغوارها
ودار بأكنافها دورة، — ينسي الأوائل تذكارها(24)

على أن صورة حلب، بمرابعها الخضر، وطبيعتها الأخاذة، وقلعتها الشامخة، لا تتجلى في شعر أي شاعرٍ تجليها في قصائد أبي بكرٍ الصنوبري، شاعر الرياض والبساتين، والذي أغرم بالطبيعة غراماً عجيباً لا نجده عند غيره.

وقد أطلق على قصائده اسم "الروضيات" لكثرتها في ديوانه الذي يبدو وكأنه بستان تتمايل أغصانه بالثمر، وتهتز نباتاته بالنور والزهر.

وقد وصف حلب وبساتينها ومتنزهاتها ونباتاتها ومياهها وقنواتها، وأطال النظر في قلعتها ومسجدها الجامع، وأثنى على أهلها وكرم أرومتهم.

ولم يكتف بذلك كله، بل عرج على قراها وضواحيها وسماها بأسمائها مثل: بانقوسا، وبابلى "باب الله" والحوش، والراموسة، وبركة التل، وغيرها. وله في ذلك قصائد ومقطعات كثيرة، أطولها قصيدة تقع في 104 أبيات أعجب بها ياقوت الحموي، فأوردها كلها في كتابه "معجم البلدان" مستغنياً

(24) ديوان كشاجم ص 65.

بها عن غيرها، وقد مهّد ياقوت لها بقوله عن حلب: "وقد أكثر الشعراء من ذكرها، ووصفها، والحنين إليها، وأن أقتنع من ذلك بقصيدة لأبي بكر (محمد بن الحسن بن مرار) الصنوبري، وقد أجاد فيها، ووصف متنزهاتها وقُراها القريبة منها.." ومطلعها:

احبسا العيس احباسها وسلا الدار سلاها
واسألا: أين ظباءُ الدار، أم أين مهاها

ومنها قوله:

بانقوساها، بها باهى المُباهي حين باهى
وبباصَفْرا، وببابلى رنا مثلي، وتاها
بين نهر وقناة قد تلته، وتلاها
ومجاري بَرِكٍ، يجلو همومي مجتلاها

•

حلبٌ بدرُ دُجىً، أنجمُها الزُهْرُ قُراها
حبذا جامعُها الجامعُ للنفس تُقاها
ومراقي منبر، أعظمُ شيء مُرتقاها
وذُرى مئذنة طالت، ذُرى النجم ذُراها
أنا أحمي حلباً داراً، وأحمي مَن حَماها
أيُّ حُسن، ما حوَتْه حلبٌ، أو ما حواها
سَرْوها الداني كما تدنو فتاةٌ من فتاها
آسُها الثاني القُدودَ الهيفَ، لما أنْ ثناها
نخلُها، زيتونها، أوْ لا، فأرطاها، غضاها

•

فاخري، يا حلبُ المُدْنَ، يَزِدْ جاهُك جاها
إنه إن تكن المُدْنُ رخاخاً، كنت شاها(25)

(25) الثاني: اسم فاعل من ثنى يثني بمعنى مال وعطف. والهيف: جمع أهيف وهو الدقيق الخصر. والأرطى والغضا: نوعان من الشجر. والرخاخ: جمع رخّ، والرخّ والشاه: قطعتان من قطع الشطرنج.

وتـتوالى السّنون، وتبقى لحلب مكانتها في نفوس الأدباء والشعراء، وكل منهم يُشيد بها، ويعلي مــن قدرهـــا، ويقــدس تــرابها ويتحدث عن نهرها "قويق" أيام كان لــه شأن يذكر. فهذا أبو العلاء المعري يقول:

يــا شــاكيَ الــنُّوَب، انهــض طالــباً حلــباً
نهــوض مُضــنىً، لحسْــم الــداء ملــتمس
واخلــع حــذاءك، إن حاذَيــتَها، ورَعــاً
كــنعل موســى، كلــيم الله، فــي القُــدس(26)

ويقول في قصيدة أخرى، مكبراً من شأن حلب ونهر قويق:

حلــبٌ للولــيّ جــنّةُ عــدن
وهــي للغادريــنَ نــارُ ســعير
والعظــيمُ العظــيمُ يكــبرُ فــي عَــيْــ
ـــنَيْه مــنها قَــدْرُ الصــغير الصــغير
"فقُويــقٌ" فــي أعيُــن القــوم بحــرٌ
وحصــاةٌ مــنه نظــيرُ "ثبــير"(27)

وقــد يــنزل شــاعرٌ في مدينة حلب ويطوف في جنباتها، ويمتع طرفه بمحاس طبيعتها، ويجد الأنس في صحبة أهلها ومعاشرتهم، ثم يغادرها بعد مدة عائداً إلى وطنه، وكان بوده لو يطيل المكث فــيها، فتعمرُ نفسه بأطيب الذكريات، ويدعو للمدينة وأهلها بالخصب والخير العميم. وهذا ما يتبين لنا مــن قصــيدة للشاعر محمد بن سليمان التلمساني، المعروف بالشاب الظريف، ويقال لــه أيضاً "ابن العفيف" وهو من شعراء العصر المملوكي، توفي سنة 688هـ / 289م. ومطلع قصيدته:

لا غَــرْوَ، إن هــزّ عطفــي نحــوكَ الطــربُ
قــد قــام حســنُكَ عــن عــذري بمــا يجــبُ

وقــد خــتمها بهذه الأبيات الأربعة الجميلة، يدعو فيها لحلب بالسقيا وقد ملأ نفسه ما آنسه لدى سكانها من جُودٍ وحسبٍ ومودةٍ خالصة:

(26) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب 154 وكتاب "حلبيات" ص 37.
(27) سقط الزند للمعري 72 وثبير: جبل بمكة يوصف بالعلو والارتفاع.

أقـــول، والـــبارقُ الطـــويّ مبتســم
والـــرّيح معـــتلّةٌ، والغيـــث منســـكبُ:
إذا ســـقى حلـــبٌ مـــن مُـــزن غاديـــة
أرضـــاً، فخصَّـــتْ بـــأوفى قَطْـــره "حلـــبُ"
أرضٌ، إذا قلـــتَ: مَـــن ســـكانُ أربعهـــا؟
أجـــابك الأشـــرفان: الجـــودُ والحسَـــبُ
قـــومٌ، إذا زُرتَهـــم أصـــفوكَ ودَّهـــمُ،
كأنمـــا لـــك أمٌّ، مـــنهمُ، وأبُ(28)

وربمـــا أرسل الشاعر التحية، من بُعدٍ، إلى حلب، مفضلاً إياها على سائر المدن، حتى دمشق، ونهـــرها علـــى ســـائر الأنهـــار، حتى بردى، ودجلة والنيل. وكذلك يكون الشوقُ والحنين إذا استبدا بالنفس، وأخذا بمجامع الفؤاد. وهذا ما نقرؤه في قول أبي نصر الخُضري الحلبي:

يـــا حلـــباً، حُييـــت مـــن مصـــر ... وجـــاد مغـــناك حـــيا القطـــرْ
أصـــبحتُ فـــي "جِلّـــقَ حَـــرّانَ من ... وجـــد إلـــى مـــربعك النضْـــر
مـــا بـــردى عـــندي، ولا دجلـــةٌ ... ولا مجـــاري النـــيل مـــن مصـــر
أحســـنُ مـــرأىً مـــن قُويـــق إذا ... أقـــبلَ فـــي المـــدّ وفـــي الجـــزْر
يـــا أســـفا مـــنه علـــى جـــرعة ... تـــبلّ منـــي غُلّـــة الصـــدر(29)

وفي قول أبي العباس الصفدي متشوقاً إلى حلب وهو بدمشق:

مـــن مـــبلغ "حلبَ" السلامَ مضاعفاً ... مـــن مغـــرم فـــي ذاك أعظـــمُ حاجه
أضـــحى مقيماً في دمشق، يرى بها ... عذْبَ الشراب، من الأسى، كأجاجه(30)

أمـــا قلعة حلب فقد كتب عنها ووصفها عددٌ من الرحالة الجغرافيين العرب، ونكتفي من كتاباتهم بما قاله ابن جبير حين زار حلب:

(28) ديوان الشاب الظريف 37 وحلب الأولى في البيت الثاني: ماء المزن. وحلب الثانية: اسم المدينة المعروفة.
(29) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب 153
(30) الدر المنتخب 154.

"لهـا قلعة شهيرة الامتناع، بائنة الارتفاع، معدومة الشبه والنظير في القلاع، تنزهت حصانةً أن تُـرام أو تستطاع. قاعدة كبيرة، ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة اعـتدال واسـتواء، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها، وأبدع ــ كيف شاء ــ تصويرها وتدويرها عتيقة في الأزل حديثة وإن لم تزل، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيعت الخواصّ والعوامّ".

وقال فيها الأخوان الخالديان، وهما من شعراء سيف الدولة:

وقلعـــة عـــانق "العَـــيُّوقَ" ســـافلُها

وجــاز مـــنطقةَ الجـــوزاء عالـــيها

يُعـدّ مـــن أنجـــم الأفـــلاك مَرقَـــبُها

لـــو أنـــه كـــان يجـــري فـــي مجاريهـــا

علـــى ذُرى شـــامخ وعـــر، قـــد امـــتلأت

كـــبراً بـــه، وهـــو مملـــوءٌ بهـــا تـــيها

ردت مكـــايد أمـــلاك مكايدُهـــا

وقصّـــرت بدواهـــيهم دواهـــيها(31)

وكـان المـؤرخ العلامـة "محمـد أمين المحبّي" ــ الذي عاش في القرن الحادي عشر للهجرة (ق 17 م) ــ معجـباً بمديـنة حلب من جهة، وبقلعتها من جهة أخرى، ويحسن بنا في هذا المقام أن نقـتطف بعـض كلامه الذي تحلى بالبلاغة، وحظي من سحر البيان بنصيب وافر، وإن كانت كتابته مزيـنة بالصـنعة البديعـية، كما هو الشأن لدى أدباء عصره. قال أولاً في حلب وأهلها: "هي البلدة الطيـبة المـاء والهـواء، التي توافقت على حُسن بنائها ولطف أبنائها الأهواء. حياها الله تحيةً تنحط بالخصـب سـيولها، وتجـرُّ باللطف على سرحة الرياض ذيولها... ولأهلها من عهد بني حمدان ــ أمـراء الكلام ــ اعتلاقٌ بالأدب وارتباط، وتفوق فيه يدعو إلى حسد واغتباط. ولشعرهم في القلوب مكانة، كأنما شيدوا بأهواء القلوب أركانه..."

ثـم قـال في قلعة حلب، وقد أدهشه علوها الذي صافح النجوم، وخندقها الذي أحاط بها إحاطة السـوار بالمعصـم: "وهناك الحصن الذي عانق السماك، يكاد أهله يقتطفون نرجس الكواكب من فلك الأفلاك... وقد أحاط به الخندق إحاطة الهالة بالقمر،والسوار بالمعصم(32)".

*

(31) ديوان الخالديين، ص 165، والعيوق: اسم نجم في السماء. والمرقب: موضع المراقبة كالبرج ونحوه. والأملاك: الملوك.

(32) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي ــ والسماك: نجم في السماء، وهما سماكان: الرامح والأعزل.

تلك لمحات عن "حلب" لعلها تكون كافية في هذا الحيز من الصفحات. والحق أننا لم نتقصَّ كل ما قيل في هذا الموضوع ـ ولدينا منه الكثير ـ ولو أننا جمعنا كل ما قيل في حلب وقلعتها وأوابدها، وفي متنزهاتها وجمال طبيعتها، لكان بين أيدينا ديوان شعري ضخم، فضلاً عما دبجته في ذلك أقلام الكتاب من الأدباء والباحثين والمؤلفين.

ولا يقتصر الأمر في تلك القصائد الشعرية، والنصوص النثرية على القدماء، ممن ذكرناهم ـ أو لم نذكرهم ـ في هذا البحث، وإنما يتعداهم إلى المعاصرين، ولا سيما الشعراء الذين خصوا حلب وقلعتها وأهلها بقصائد ومقطوعات عصماء، داخل الوطن العربي وخارجه، ونذكر منهم على سبيل المثال: محمد الهراوي، ومحمد مصطفى الماحي، وخليل مطران، وعادل الغضبان، ومحمد عبد الغني حسن (من مصر). وقيصر المعلوف، وشبلي الملاط، والأخطل الصغير (من لبنان). وهند هارون، وحنا الطباع، وخليل الهنداوي، وعبد الله يوركي حلاق (من سورية) وزكي قنصل (من المهجر).

ونكتفي من شعر المعاصرين بأبيات من قصيدة "الأخطل الصغير" التي ألقاها في حلب، في حفل أقيم لتكريمه في شهر تشرين الأول سنة 1935، وهي قصيدة أجمع سامعوها وقراؤها على روعتها والإعجاب بها، ويزيدها تقادم الزمان جدةً وحداثة والشاعر يخاطب نفسه في مطلعها قائلاً:

نفيتَ عنك العلا والظرفَ والأدبا
ـ وإن خُلقتَ لها ـ إن لم تزُر "حلبا"

ومنها هذه الأبيات:

شهباء، لو كانت الأحلام كأسَ طلا
في راحة الفجر، كنت الزهرَ والحببا
أو كان لليل أن يختار حلْيتَه
وقد طلعت عليه ـ لا زدَرى الشُّهبا
لو ألّف المجدُ سفراً عن مفاخره
لراح يكتب في عنوانه "حلبا"
لو أنصفَ العربُ الأحرارُ نهضتهم
لشيدوا لك، في ساحاتها، النُّصبا

لكـــن خُلقـــت لأمـــر لـــيس يدركـــه
مـــن يعشـــقُ الـــذلّ، أو مـــن يَعـــبدُ الرُّتَـــبا
ملاعـــبُ الصـــيد مـــن "حمـــدان" مـــا نَســـلُوا
إلا الأهلّـــــةَ، والأشـــــبالَ، والقُضُـــــبا
الخالعيـــــن علـــــى الأوطـــــان بهجـــتَها
الرافعيـــــن علـــــى أرماحهـــــا القَصَـــــبا
حُسَـــامهم مـــا نَـــبا فـــي وجـــه مـــن ضَـــربوا
ومُهْـــرُهم مـــا كـــبَا فـــي إثـــر مَـــن هـــربا
مـــا جـــرّد الدهـــرُ ســـيفاً مـــثل "ســـيفهمُ"
يُجـــري بـــه الـــدمَ، أو يُجـــري بـــه الذهـــبَا
ربُّ القوافـــــي علـــــى الإطـــــلاق شـــــاعرهم
الخلـــدُ والمجـــد فـــي آفاقـــه اصـــطحب
ســـيفان فـــي قبضـــة "الشـــهباء" لا ثُلِمـــا
وقـــد شـــرّفا العُـــربَ، بـــل قـــد شـــرّفا الأدبـــا

وجاء في خاتمة القصيدة قوله:

أتُســـعدُ الروضـــةُ الخضـــراءُ بُلـــبلها
حـــتى يفـــي الروضـــةَ "الشـــهباءَ" مـــا وجـــبا؟
تـــيهاً "عروســـةَ ســـوريا" فقـــد حَملـــتْ
لـــك القوافـــي، علـــى راياتهـــا، الغلـــبا(33)

(33) القصيدة في ديوان "الهوى والشباب" للأخطل الصغير، وكتاب "حلبيات" ص 39 ــ 40.

المصادر والمراجع

1 ـ الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب: محمد اسعد طلس ـ دمشق 1375 هـ/ 1956م.

2 ـ تـ غة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء: تيودور بيشوف ـ بيروت 1880م.

3 ـ حلبيات: عبد الله يوركي حلاق ـ حلب 1983م

4 ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين المحي ـ دار صادر بيروت (د.ت).

5 ـ الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب: ينسب إلى ابن الشحنة ت حلب 1404هـ/ 1984م.

6 ـ ديوان الخالديين: تح. سامي الدهان ـ دمشق 1388هـ / 1969م.

7 ـ ديوان السري الرفاء: القاهرة 1355هـ.

8 ـ ديوان الشاب الظريف، تح شكر هادي شكر ـ النجف الأشرف 1387هـ 1967م.

9 ـ ديوان عمر أبو ريشة: المجلد الأول ـ بيروت 1971م

10 ـ ديوان كشاجم: بيروت، المطبعة الأنسية 1313هـ

11 ـ سقط الزند: أبو العلاء المعري ـ بيروت 400هـ/ 1980م

12 ـ سيف الدولة وعصر الحمدانيين: سامي الكيالي ـ مصر 1959م.

13 ـ العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: ناصيف اليازجي ـ طبعة مصورة (د.ت).

14 ـ مجلة "العمران" س 2/ع (20، 21، 22): 1967م.

15 ـ وفيات الأعيان: ابن خلكان ـ تح. إحساس عباس ـ بيروت 1968م.

16 ـ يتيمة الدهر: أبو منصور الثعالبي ـ تح. محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة 1375هـ / 1956م.

للسنا
زُفَّتْ حلب

د. بكري شيخ أمين(*)

أسْعدَ اللهُ العربْ ... حبّبونا بالأدبْ
إذْ أشادوا صَرْحَهُ ... من لُجينٍ أو ذهبْ
في بساتين الإبا ... أو ثُريّاتِ الأربْ
واسْتوَتْ راياتُهم ... في أيادي من دأبْ
دوحةُ الزاهي دعانا ... فاسْتجبنا للطلبْ
واستبانا بالأماني ... عَبْرَ هاتيكَ الحقَبْ
فمشينا باعتزازٍ ... كي نؤدّي ما وَجَبْ
ورشفنا من لماهُمْ ... كلَّ سحرٍ مُنْتَجَبْ
ظلّلونا بظلالٍ ... أذْهَبَتْ عنّا التّعَبْ
وارتوينا من رضابٍ ... فانْجلى عنّا الْوَصَبْ
ومضينا باشتياقٍ ... نحو دوحٍ قد خَضَبْ
نجتني علماً وفهماً ... من مَعينٍ ما نَضَبْ
ثقّفونا بمبادي ... عن نبّيٍ ما كَذَبْ
علمونا كيف نحيا ... في رخاءٍ أو سَغَبْ

(*) عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو اللجنة العلمية للغة العربية.

كيف نحيا في سلامْ ... أو نُعادي من غضَبْ

أسْرَجُوا دربَ المعالي ... فإذا الغيثُ انسَكَب

وقصدنا الآن بابا ... نستقي ممّا وهَبْ

بابَ أعلامٍ عظامٍ ... وشروقٍ مُرْتَقَبْ

نحن في شهباءَ جذلى ... عرشُها العالي انْتَصَبْ

هي في تاريخنا ... قد زكا فيها النَّسَبْ

وارْتَقَتْ فيها علومٌ ... وازْدَهى فيها الأدبْ

نحن في حضرة سيف ... فارسٍ إمّا وثَبْ

وعظيمٍ شاعرٍ ... في قوافيه العجبْ

وشموخٍ عربيٍّ ... هادرٍ يجلو الكُرَبْ

وانبعاثٍ من جديدٍ ... تنمحي فيه النُّوَبْ

ويْحَ قلبي كم تلظّى ... في هواها ووجَبْ

أيقظتْ روحي وغلَّتْ ... في فؤادي فانسَلَبْ

أخلَصَ العشقَ وأوفى ... ذابَ فيها واحْتَجَبْ

وهي في عرسٍ كهذا ... عشقُنا فيها انْسَكَبْ

هي داري وافتخاري ... وهي في العزم السَّبَبْ

عهدُنا القدسيُّ باقٍ ... عن ولاها ما عَزَبْ

وهو نهجٌ للتآخي ... والأمانِ المرتغَبْ

وتَصَدٍّ لعدوٍّ ... في حمانا قد نَعَبْ

سوف نمضي باقْتِدارٍ ... نحو تحقيقِ الأرَبْ

أيقظ اللهُ العربْ ... من سُباتٍ قد وقَبْ

ما ارتقى عرشَ المعالي ... سادرٌ أومَنْ رتَبْ

يحفظ الحرُّ الأدبْ ... من شرور المُنْقَلَبْ

زغردي نبعَ العطايا ... للسَّنا زُفَّتْ حلبْ

حلب

مصطفى عكرمة(*)

يا واحةً يسعى لها التَعِبُ ... يدعوه منها الدّينُ والأدبُ
عربيَةَ القَسماتِ باسمةً ... بعفافِها الفتّانِ تنتَقِبُ
عربيَةٌ صانتْ عروبتَها ... وأحبَّ من خُلِقوا هم العربُ
في بالِ كلِّ الناسِ حاضرةً ... كالفكرِ تحضنُهُ لنا الكتبُ
للعلمِ عاشت والجهادِ معاً ... ما عاقها همٌّ ولا نصَبُ
تزداد في الحاليْنِ روعتُها ... ولكمْ تعجَّبَ عندها العجبُ
للشعر كانت كعبةً وبها ... من لم تسغْ إبداعَه الحِقَبُ
ردّت دواهيَ الدهر قلعتُها ... واسّاقطت من حولها النوَبُ
إن كان من سبب لعزَّتها ... فإباء أهليِها هو السببُ
كم صدّت الغازِينَ ظافرةً ... وجيوشهم بالحقد تلتهبُ
عربيَةٌ عاشت عقيدتَها ... فإذا انتسبْتُ فحبّها النسَبُ
لا تسألوني ما اسمُ فاتنتي ... يدري الزمانُ بأنّها حلبُ

(*) عضو اتحاد الكتاب العرب، جمعية الشعر.

نِسَاء حلبيّات

نادية الغزّي

مقدمة

اسمها *.. حَلَبْ في السريانية والكلدانية. ولربما كانت تكثر فيها المراعي ففعل (حَلَب) الشاة أخرج ما في ضرعها من اللبن. واسمها.. الشهباء لشهبة في لونها للقادم من بعيد... وسميت.. قديماً حلبو وكانت عاصمة مملكة يمعاض.*

***

أمـا أيام العثمانيين.. فكانت السكة تضرب في قلعة حلب بأمر الوالي العثماني والسكة تكون من الفضة والنحاس.

أما التجار البنادقة فقد كانوا يشترون ما تستورده المدينة من الشبّ ومن منتجات الهند والعجم.. وقد تواجدت في المدينة وكالة أوروبية دائمة للتجارة.

فحلب نهاية طريق الحرير.. وهي بلدة التجارة العريقة.. وكان من الحلبيين الكثيرون من العملاء الدائمين في الهند وفي بلاد الكُرج والفرس وبلاد الأرمن.

ومن أهم معاهداتها.. تلك التي أجريت بين السلطان سليمان الأول وبين فرانسوا ملك فرنسا فيها: يمنح العثمانيون الجاليات الفرنسية الرعاية الممتازة.

ولربما فقدت حلب مكانتها التجارة القديمة بعد فتح طريق رأس الرجاء الصالح.

لكن أخبار السفن القادمة من الإسكندرية أو الراحلة عبر الموانئ الشامية نحو الإسكندرية كانت تصل خلال ثلاث ساعات.. فالناس كانوا يتناقلون الأخبار بوساطة الحمام الزاجل.. خليوي الماضي العريق.

بعض أقوال الكُتاب والرحالة عن حلب:

دارفيو:

هي مدينة على سبع رابيات لها عشرة أبواب وكانت موجودة في القرن السابع عشر. أما مفاتيح هذه الأبواب فكانت مع زعيم الانكشارية.

وقال: دُعيت في شهر رمضان إلى عشاء في قصر الحسبي بين باب الأحمر والبياضة. وقد وصف دارفيو الضيوف والمائدة والطعام: لها بيوت من طبقة واحدة فيها تخوت مغطاة بسجاد وبسط منسوجة.

دولاسال:

تحدث عن منزل (قره لي) إلى جانب بوابة في حلب الياسمين وأعجب بزخارف البناء. وتحدث عن بيت (يوصف صادر) وهو في حارة الحصرم وهو من أوسع بيوت حلب.

لامارتين:

وصف امرأة حلبية تدخن النارجيلة في قصيدة وقد سكن الشاعر لفترة في حي الكتاب.

عيسى المعلوف

نشرت هذه المعلومة في مجلة الضاد.

كما ذكر شكسبير حلب:

قيل الكثير عن قببها (قبابها) وعن مناراتها المصفحة بالرصاص وقيل الكثير عن أسواقها المتصالبة التي تقيس 7كم وكم تأسرني هذه الأسواق.

وبعد عهد نابليون وثورة الانكشارية 1814 و1826 بدأ تقهقر تجاري يغزو المدينة.. بسبب انعدام الأمن، إضافة إلى ما أثرت عليها زلازل عام 1822 ـــ 1827 ـــ 1832 وما أثرت عليها أوبئة الطاعون عام 1814.

لكن الضربة التجارية الكبرى لحلب كانت عند افتتاح قناة السويس وانتقال الطريق التجارية نحو الشرق عبر البحر.

هي حلب.. التي استعادت هيبتها وهيكلها التجاري العريق..

هي حلب.. التي صدرت الحنطة والحرير والصوف والقطن والكتاب والقنب والزيت والسمن والتين والزبيب والجوز واللوز والفستق والصنوبر والدبس والعسل والأغنام والماعز والبقر والخيل.

كما صدّرت البسط الكردية، الخام البلدي، و(الصرامي) الحلبية، والعفص والجلد، والمحلب والأفيون، والخشخاش والأنيسون.

كمـــا صـــدّرت الصابون والعصفر والملح وغير ذلك، وهي التي استوردت السجاد والتنباك من العجم واللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحرين والطيب والأفاويه والعقاقير من الهند.

وهي التي أفرزت الكثير من عظماء الرجال والنساء.

مع جامع الفردوس..

المحراب:

ومـــن أجمـــل مـــا فيه المحراب، فإنه عديم النظير لما اشتمل عليه من حسن الصنعة والنقوش والإتقان والإحكام فيه عدة ألواح من (اليشب) النادر الوجود.

قـــال ابن العديم: وهو من أعاجيب الدنيا، يرى الناظر إليه وجهه في صفاء معدنه.. وفي شرق القـــبلة غرفة متقطعة فيها قبران، يزعمون أن الشمالي منها مدفون فيه سيدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهـــه، حـــتى إنـــه مكـــتوب على رقعة في ثوب الضريح (هذا قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، نقل صندوقه سيف الدولة أيام دولته في النجف سنة 317هـــ.)

قـــال الغـــزي: هذا كذب ظاهر.. فقد نص المؤرخون على أن قبر علي كرم الله وجهه خفي لا يعرف موضعه ومنهم من قال: مجيء سيف الدولة إلى حلب كان سنة 333هـــ.

وممـــا يلحق بهذه المحلة عمارة الهودي.. السابع.. ثم في فتنة التتر خرب بعضها، ولم يبق إلا حجرة الضريح التي على مثال الكعبة وجميع حجارتها مكتوبة حكماً ومواعظ.

وذكر الفردوس الشيخ وفا في منظومته ص 65:

ومـــــن هـــــنا فخـــــذ إلـــــى الفـــــردوس

فـــيه الفراديســـي علـــي ذو الكـــيس

(الآثار الإسلامية أطلس ــ ص 84).

(الأسدي ــ المجلد السادس حرف ف).

مساء الخير..

مساء يبشر بأوائل ربيع لم يأت بعد.. بعض العشب الأخضر.. بعض من قواقير صغار الأغنام تتـــبع أمهاتهـــا.. تنفـــتح هـــنا وهناك بضع زهيرات من البنفسج يفوح منها طيب غامض يشعل فينا الإحســـاس بأوائل الحياة.. حيث لا ألم ولا يأس بل ليلك وبنفسج يرسلان إشارات مبهمة.. ويتخاطفان أشعة شمس ربما كانت دافئة أحياناً.

أعزائي..

فـوق غصــن آمــن من زرعة في شرفتي ربضت يمامة بنت عشّها من الإبر النحلية الشوكية لقضــبان شــجرة صــنوبر ثــم ربضت لا تتحرك فوق بيوضها تدفئها وتنظر إلى تحركاتي بعيونها الجانبـية تراقبنـي فتأمن لي وترتاب أحياناً.. وإني كلما شاهدت هذه الأم اليمامة.. تذكرت أبا فراس الحمداني وهو يناجي حمام الأسر ويتسمع إلى نواحها في بيته المشهور:

أقـــول وقـــد ناحـــت بقربـــي حمامـــة

أيـــا جارتـــا لـــو تعلميـــن بحالـــي

أتذكـر الحمدانـي وأتذكر حلب.. وهأنذي في حلب المحروسة.. ونوح الحمام أصبح غناء في طريقي إليكم.

رأيـت زهـر اللوز المخضوضر يوشك على التفتح.. أو لعلّ بعضه تفتح.. ليدخل في متاهات ذاكرتـي.. وبعطـره السـاكن يدعوني إلى الحديث عن نساء حلبيات.. ولدن.. أو عشن.. أحببن أو حزنّ أو هاجرن أو نطقن بالشعر.

فماذا أقول؟

مسـاء الخير.. هأنذي قدمت إلى حلب بعد غياب قد طال.. قدمت في مساء حلبي جليل أقف فيه خلـف منـبر جليل مدعم بمداميك الثقافة والعلم والمعرفة هو منبر جمعية العاديات.. التي أشكر لها دعوتهـا لـي للمحاضـرة بين أهل الشمال.. كما أشكر الأخت العزيز السيدة أمية الزعيم التي كانت الحمامة الزاجلة بين العاديات وبيني.

وإذ أتحدث هذا المساء إليكم فلأقدم شكري لهذه الجمعية العريقة كما أقدم امتناني للحضور الذي سوف يشاركني أمسيتي.. فعساني أكون عند حسن الظن.

متمنـية أن يكـون ما سأقوله.. مهدئاً للقلوب.. ومنسياً الكروب.. مذكراً لما كان وحافزاً لما هو الآن.. يرجعـنا إلى الماضي.. لنقفز فوق الأنهار والملاحم متجهين من حلب نحو مشارف الفواصل بيـن البلاد التي تلعب بها الصحراء.. وتخط الأنهار شريط اخضرارها فننتقل محمولين إلى عصور الانتصـارات والـرفاه المطلـق قـبل الميلاد.. ثم نتعدى المئويات لنعيش في لُبّ انتصارات العهد الإسـلامي الواسـع الرقعة والمتنوع الشعوب.. فإذا ولجنا ذاك الزمان إذا قلعة حلب الشهباء تضيء بالمشـاعل.. وإذا بهـا تعـج بالحياة.. وأفراس الجيوش تصهل والناس سعداء مباركون.. وكم حاكم يسـعى إلـى بـناء الأوابد الخالدة.. وبعد ذلك.. سوف نعود إلى زماننا الحالي..ثم نتراجع خطوة أو خطوتيـن.. وطول خطوتنا مئة عام.. وكأننا عمالقة الزمان لندخل إلى الشهباء أعماقها.. فإذا بنا في

أواخر منتصف القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.. وهو عصر النهضة الحديثة حين خرجت بلاد الشام من قوقعتها الشتوية لتدخل نحو مدارج المدينة فإذا العلوم الحديثة في متناول كل إنسان وإذا المرأة تعود لتشرق والشمس تشرق كل صباح من مستقر لها.. ولقد طال على نساء البلاد التعتيم.. وأتعبهن الظرف السقيم.. ولمّا انفتحت كوة النور.. وهفهفت رائحة البخور.. وانطلقت صيحات الحرية

والعلم والحق من الصدور عادت الأنفاس تتلاحق.. وعادت الأقلام لتكتب، وعاد القلب ينبض.. ينبض..

سيداتي سادتي..

لقد حاضرت في حلب أوائل التسعينات.. وتحدثت يومها قليلاً عن الفستق الحلبي.. ولكنني بعد شريط هذه السنوات أجد نفسي أقف مع حيرتي أمامكم.. فعمّ أتحدث؟؟ سأتحدث إذاً عن ثلاث نساء من حلب.

ثلاث نساء من حلب..

حرت في أمري..فماذا أتحدث عن حلب أمام أهل حلب.. فأنا الجاهلة وهم العارفون.. وأنا الغريبة وهم القريبون.

قلت أختار ثلاث نساء حلبيات أتحدث عن بعض سيرتهن ومآثرهن.. الأولى منهن عاشت قبل الميلاد بألف ومئتين وخمسين عاماً.. والثانية عاشت في العهد الأيوبي والثالثة عاشت في القرن التاسع عشر.. وكانت الرابطة بينهن، الشخصية القوية والقدرة على تفهّم المواقف والروح الوثّابة والهمّة العالية، والشهرة العريضة والحب حتى أقصى درجات الحب.

أولاهن هي (شيبتو) التي ذكرها اللوح الصلصالي ذو الرقم 253 الأركيولوجي والذي وجد في أرشيف (ماري) وتقع ماري تحت أنقاض تل الحريري القريب جداً من مدينة البوكمال.

لا بد أن طريق القوافل إلى حلب، كان يغص بشكل مستمر بأنواع من البشر الذين كانوا يختلفون إليها كنجمة في أواخر ما دُعي بطريق الحرير.. نجمة مضاءة، وتضيء ما زالت كما هي في شبابها القديم، وتلّها الضخم يرشد القادمين حتى قبل بناء قلعتها الشهيرة بأكثر من ألفي عام.. حيث كانت القلعة حصناً حصيناً.. ولقد كانت الشهباء وهذه هي صفتها العربية لشهبة في لون أحجار بنائها، تستقبل البشر الذين كانوا يُفرغون حمولاتهم ويتجرون بما أحضروا وبما سوف يبتاعون من بضائع اشتهرت بها المدينة كالزيت والفستق والتين والقمح وأنواع العطور والورد والنسيج.

ولسـوف نعود الآن إلى الزمن الماضي إلى زمن قديم ينبئ عن حضارة مملكة (يمعاض) وعن عاصـمتها (حلـبو) وعن ملكها (ياريم ليم 1730) الحكيم القوي الذي تبنى واستضاف (زمري ليم) أثناء النزاعات الساخنة في مملكة ماري 1790.

وتكر الأيام ليغدو زمري ليم إلى ماري ملكاً متوجاً لمملكة كانت في ذلك الحين من أقوى ممالك الـتاريخ القديـم.. قائمـة على الفرات وتعتبر مفتاحاً ذهبياً للتجارة القادمة من الشرق نحن الغرب.. ومن الغرب البحري في أوغاريت مروراً بيمعاض عابرة الفرات من ميناء (عيمار) (إيمار) أو بالس البيزنطية.

ففـي مملكـة ــ معـري ــ أو كما درج المستشرقون والمنقبون على تسميتها (ماري) كان كل شـيء منظماً وثميناً وغنياً وقد بلغ الرفاه أقصاه في تلك الحقبة من عهد زمري ليم الذي سيطر على أكـثر ممالك الفرات والخابور العليا ودانت لـه بالصداقة ممالك أوغاريت وإيبلا ويمحاض بالطبع.. ولقد كانت حلبو قد قدمت لزمري ليم أثمن هدية يمكن أن يحلم بها إنسان.. إنها (شيبتو) ابنة الملك يا ريـم لـيم.. التـي تـزوجها زمري ليم فكانت آخر زوجاته ومليكة قلبه وعرشه.. وأمّا لبعض بناته الـثلاث عشـر اللواتـي توزعن في الممالك القريبة والبعيدة كزوجات وسفيرات قويات للملكة يؤمن التـبادل الاقتصـادي والحضاري ويرسخن الاتجاه الديني والسياسي ويبقين على صلة قوية بالمملكة الأم..

فلنعتـبره زواجاً سياسياً.. أو زواج عقل.. أو زواج حب فلنا ما نشاء من التكهن لكننا سنتحدث الآن عن امرأة حلبية خلّدها التاريخ.. وساست ماري ــ في غياب زوجها أثناء غزواته.. كما أدارت القصـر الملكـي وشؤون العاملات والكاهنات بشكل مذهل. بل كان الملك يسلمها زمام الأمور كلما غاب عن المملكة في حرب أو تفقد.

رحلت شيبتو عبر الفرات نحو ماري.. والفرات يصبح صالحاً للملاحة في (كركميش) التي هي (جـرابلس) اليوم وكان الرحيل من مملكة يمحاض ينطلق من (عيمار) إيمار وهي (بالس البيزنطية) وهـي اليوم (مسكنة). وعاشت في ماري التي دمرت في النهاية من قبل حمّورابي 1750 أو 1758 ق.م.

ولا بـد أن شـبتو انتهـت بشكل ما مع زوجها.. فالرقم لم تكتشف بعد.. تلك التي تتحدث عن شيبتو وكيف برقيم ينقش خبر تدمير مدينة ومدنية.

رحلـت شـيبتو واسـمها كما ذكر الأستاذ قاسم طوير (سبطة) محملة بالنفائس وجرار الزيتون والبضـائع الـنادرة، ودعـتها أمهـا الملكة (جاشيرا) (جاسرة) وقدمت لها اللازورد واليشب وخلف الفلوكـة النهرية انطلقت عشرات المراكب المحملة بالأخشاب النادرة.. وكانت شيبتو تتساءل مناجية نفسها في رحيلها النهري.

أهاجر؟ أبكي.. أأيأس؟ أو أكون في منتهى السعادة؟

فاليأس عالم أبيض.. والسعادة ذات سبعة ألوان.. وأنا صغيرة السن فلأتعلم.

أهاجر.. وأنا أرى كتلة الماء المنساب المرئي واللامرئي.. توجهني وتجعلني قادرة على تحقيق المعجـزات.. فلمــاذا لا أرمي قارورة الذكريات في النهر؟ أو لعلني أحتفظ بها لتكون لي دافعاً دائماً يرشدني إلى طريق بين نجمتين.. نجمة أبي ياريم ليم ونجمة زوجي زمري ليم حتى..

وصلت شيبتو إلى ماري!!

معــري.. بلــدة الملــوك والحرير القائمة على نسيج الفرات الغامض.. الموجودة على الضفة الغربــية الجنوبــية مــن النهر (تقع أنقاض معري اليوم تحت هضبة تل الحريري القريبة من مدينة الــبوكمال الواقعة على الحدود السورية العراقية ويقع التل فوق مساحة 500م^2 قرب مجرى الفرات القديــم). ماري. تغلق بواباتها وأسوارها ومن داخلها الصريح الأناشيد، يسمع هدير الماء القريب أشد القــرب، فيغلف القلوب بالرهبة ثم تجهم الرياح المحملة بالرمال فتمتص قرابين الهياكل وتدور حول القصــر الملكــي الفــريد.. تتسلل من خلال النخل والشجر والنباتات المزروعة التي ترويها الأقنية مــتجهة نحــو الشــمال، حيث تتلاشى مع الخضرة الخصيبة المنتشرة في بساتين نهر الخابور وفي المزارع المتاخمة لنهر بليخ.

وصــلت شــيبتو إلــى ماري قادمة من يمحاض.. يجرها ما تحت قدميها من التاريخ وما فوق جبينها من العز.. لتشاهد الفرات حين يغير مجراه فلا تكون نفسها الرمل بل تكون الماء والعطاء.

وصلت إلى ماري.. وكان القمر فوق الماء يبدو ويسري والحقول نبت ثمين زاخر بالديمومة.

معري.. والقمح تسنبل.

لقد بدأت الحياة الحقيقية لشيبتو.

كانت منطقة الأنهار منطقة صراع يتغلب فيها الأقوى.. ويُسمع في حقولها صراخ جذور اللفاح ــ الماندراغورا ــ الذي تقتلعها الأيدي.. فيلمس شيبتو ذلك التأثير السحري الأسطوري فتؤكد لنفسها بأنها ستكون شيئاً مهماً في هذا الشريط الزراعي النهري الأخضر الخصيب.

ولقد كان القصر رائعاً.

وكانــت قمم أشجار النخيل تتمايل كراقصات المعابد مطلة على النهر وعلى الرمل.. وكم سُرَّت شــيبتو بســاحة النخــيل، وتفهّمت أهمية هذه المدينة التي تشكل شريطاً رابطاً بين مملكتين شديدتين لتصــبح هــي الأثرى.. وطمي الربيع يرتمي على الأرض بعد الفيضان مستعداً ليكون غذاءً للأرض الصالحة.

قالت شيبتو.. أدير وأنظم هذا البلد السعيد.

أدير الغزل.. والنسيج.. أدور على عنابر عاملات الثياب وأتفقد الفضة والذهب.. وأزور المعابد وأقدم النذور وأطيب المرضى.

فماري بلد التعدين الأهم بين البلاد.

تزوجت شيبتو من زمري ليم المنحدر من سلالة (يعدون ليم) عام 1770 ق.م بعد ثلاث سنوات من حكمه وكانت الزوجة الثالثة التي استطاعت بلطفها وكياستها أن تحول هذا الزواج السياسي إلى عاطفة جياشة، إلى تفاهم مطلق بحيث سلمها الملك زمري ليم زمام الأمور في غيابه أو أثناء حضوره.. كما قامت بمهام دائمة في داخل القصر وخارجه.

اختلطت بالناس.. وشهدت إحصاء الجنود وأصحاب المهن اليدوية والقادمين والراحلين والعاملات والنساجات والنقاشين والكتبة وقررت أن تهتم بنساء بلدها الجديد.. بالعاملة والنساجة والأسيرة والسبية.. كما شهدت الأهمية الإدارية وساهمت فيها وفي الإشراف على تنظيم أسماء العاملات العازبات والعاملات المتزوجات والأرامل التي دونت كلاً منها على رقم منفصلة بحيث كان لكل عاملة وعامل سجل مدني وسجل اقتصادي. وكانت تهتم بكل عاملة.. بل أشرفت بنفسها على ما يمكن أن ندعوه رياض أطفال لعاملات بحيث كان الأطفال الأكبر سناً يهتمون بالأطفال الصغار، وكانت الملكة تأمر بأن تتفقد كلٌ أم أولادها كل ساعتين أثناء عملها.

كما اهتمت بالمطابخ الملكية.. فعلى ما يبدو كان زمري ليم من أشهر الذواقين في التاريخ.. فكانت شيبتو تشرف بنفسها على إعداد الخبز والمعجنات المنقوشة داخل القوالب (هذه القوالب موجود بعضها في متحف دمشق) وكانت المعجنات تصنع من الجوز والجبن.

وكانت تشرف على إعداد الأطعمة المطهوة بالزيت وبالطبع كانت مملكة يمحاض ترسل جرار زيت الزيتون إلى ماري وكانت الملكة تشرف بنفسها على توزيع حصص الزيت على العاملين داخل القصر وخارج وعلى العاملات والنساجات وأفراد الشعب.. كل بعدل وقسطاس.

ولقد أدركت المملكة أهمية الثوم بالدرجة الأولى وكذلك البصل.. في تقوية أجسام الجنود المحاربين والعاملات فكانت كميات الثوم تنشر بإشراف شيبتو على سطح القصر الملكي وتقوم هي بالذات بتفقدها كل يوم ثم تذهب الحصص اليومية من الثوم إلى المطابخ الملكي ليصنع (خبز الثوم: غياتوم) الشهير ويوزع مع حساء البصل (شوحاتينوم) المعد مع الخردل بإشراف الطاهية الشهيرة (أمآدوغا).. كما كانت توزع حصص القمح لصنع رغيف الرافدين الشهير باسم (كاكاروم).. وهذان دليلان بأن الحضارة المشرقية ـدت (الكارلك بريد) قبل آلاف السنين كما أعدت حساء البصل قبل انتشاره في برد فرنسا.

ثـم تقـوم الملكـة بـتفقد عنابر النسيج: أصواف للمغازل وكتاب للنسيج وقطن مندوف ونثار الصوف يصاعد في أنوال الغزالات الأثرية..

وتـنطلق بعدها إلى عنابر النسيج.. وثياب ملونة صبغت باللون الأزرق أو الأسود..أو صبغت بلـون الـتفاح ولقد كانت شيبتو مولعة بهذا اللون، وبالأثواب المصنوعة من الكتان.. وكانت تشرف بنفسها على إعداد صباغ العصفر.. والقرمز.. والأرجوان المستوردان من بلاد الفينيق.

مـا أجمـل ماري.. وألوان ثياب كقوس قزح.. وأقمشة للشعب وللتصدير.. والعاملات نحلات ينسـجن أرقـى نسـيج فـي ماري واسمه (زارا) وتقترح شيبتو أماكن تصديره خلف الأنهار وبعد الأسوار.. وقرب البحار الدافئة.

لقـد أُبعـدت الملكـة الحلبـية عـن قلـب زوجها سائر النساء وكانت تشاركه المآدب والحكم والشـورى.. وتتـناول معـه الحلوى المحشوّة باللوز وتشرب معه جعة شعير الخابور برشفانها في كؤوس من الفضة ويأكلان في صحاف من الصدف الذي أمرت شيبتو باستخراجه من أغوار الفرات أو جلبته من البحر الأوغاريتي أو من الخليج الحار عبر القوافل.

ولقـد كانـت ماري في عهد شيبتو وزمري ليم نظيفة كالنفجة.. بحيث لم يكن يسمح للحيوانات ولا للبشـر بقضاء حاجاتهم داخل المدينة وكان للناس مراحيض عامة.. وللقصر مراحيض وحمامات فـيها المـاء الـبارد والسـاخن. وفـي البعـيد.. كانت تبدو بوابة عشتار.. وتتعالى أصوات الكهنة والكاهـنات فـي الأماسي والأعياد بالتراتيل الشجية.. فتنسحب شيبتو نحو معبد عشتار بعد أن تلتقي بأخيها الذي يسكن في البيت الأحمر..

وحيـن تدخـل المعبد.. تصبح التراتيل همساً متلاحقاً فإذا ما انتهى الترتيل تفقدت شيبتو السبايا والأسيرات بحيث تختار أجملهن وبمقاييس شديدة الدقة والسمو ليصبحن مغنيات مقدسات في المعابد.

وفـي عيد عشتار كان يعم المدينة ضجيج وصخب فيجتمع المهرجون والمصارعون والشعراء والمنشـدون ثم يبدأ إنشاد المعابد يعلو تحت القبة الزرقاء ويتقدم الراقصون إلى ساحة النخيل يقدمون رقصة الحرب ورقصة القمح.

وشيبتو مع زمري ليم.. مليكة فؤاده ومستشارته دائماً.. فقد كانت تنفذ طلبات الملك بحذافيرها.. بالوقت الذي كان تؤثر عليه تأثيراً عميقاً.

لقـد أشـرفت الملكـة الحلبـية الأصل على النظام الصحي في المملكة متعاونة مع الملك ومع الأطباء، فأُبعدت العاملات المريضات.. وحُجرت من تنقل وباءً نجماً للقوانين الملكية.

ولقد كانت شيبتو على صلة دائمة بأهلها.. ببلدها الأصلي.. بالعنب.. بالفستق.. بالزيتون.. دون أن تتقاعس لحظة واحدة عن اتباع النظام الإداري الصارم الشهري الذي يسود مملكة ماري.

وفـي الأمسـيات.. كانت تجلس إلى جانب الملك وتفرز لـه البريد القادم من الممالك المجاورة وتقـرأ لـــه بـريد بـناته اللواتي زوجهن إلى الملوك والأمراء.. وبريد أخواته اللواتي كن ملكات وكاهنات، وكن السفيرات والتاجرات.

هكــذا عاشت شيبتو.. تزور حلبو أحياناً، وتتخطى أثناء السفر مياه الفرات المسحوبة نحو الأفق ناظـرة إلـى الخضـرة المخطوطـة كالحاجـب على مسار النهر.. وكزنار للصحراء..أو لعل هذه الخضرة كانت سواراً وتاجاً فوق جبين الحضارة المشرقية الناصع ووساماً لامرأة حلبية الأصل.

حُرِّقت ماري ودُمرت بعد أن غزاها حمورابي.

وبقـي تمثال (ربة الينبوع) ذات الرموش المصنوعة من حراشف السمك قائماً..وموجوداً اليوم في متحف حلب.

أمـا شـيبتو.. فلعلهـا راحـت مـع زوجها.. مع حقول القصب ومع ألوان العصفر والسماق والريحان ومع صراخ جذور اللفاح في الليل المعتم.

****

نـتخطى العصـور.. والغزاة.. وما يزال طريق القوافل متجهاً نحو حلب.. وهو يغص وبشكل مسـتمر بأنواع من البشر الذين كانوا يختلفون إليها كنجمة في أواخر طريق الحرير.. نجمة وضاءة وتضـيء مـا زالـت كمـا كانـت في شبابها القديمة نجمة الضحى الأشهب.. وتلها الضخم يرشد القادميـن.. نتخطى العصور.. نتقدم ألفين وأربعمئة عام وخمسة وعشرين عمّا كنا عليه قبل قليل إلى العصـور الزنكـية والأيوبية الإسلامية، فنتوقف في (فسط حلب) ولعل الفسط من الفسطاط.. نتوقف لنـتحدث عـن ضيفة خاتون.. ابنة الملك العادل أبي بكر أيوب صاحب حلب.. وزوجه الملك ظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب.

امـرأة أيوبـية ولدت وعاشت وماتت في حلب.. فانتمت إليها.. وتنفست هواءها.. وحكمت في ردهـات قلعـتها وتـزهدت في مساجدها.. وأكلت فساتقها.. امرأة حلبية أيوبية.. امرأة عاشت قبل ثمانمئة عام تقريباً، فماذا تركت خلفها من متاع السلطة والدنيا؟

فقـد أثبتـت نفسها كامرأة وزوجة وأم وجدة وسياسية ومصممة ومهندسة وقائدة مملكة.. تاركة خلفهـا جامع الفردوس الرائع التصميم.. وخانقاه (الرباط الناصري) المسمى بخانقاه مدرسة الفرافرة الـذي شـيدته عام 635هـ ــ 1237م وكان قد أعد للغرباء والزهاد وهو من أوابد حلب الهندسية.. مشـهور بمحـراب حـرمه الرائع.. والذي يلفت الانتباه كما ذكر د. عبد القادر الريحاوي في كتابه: "العمـارة العربـية الإسـلامية". أن الـرباط الناصـري كان يحتوي على جناح للنساء.. أي النساء الوحـيدات والغريـبات والزاهدات.. وهذه ظاهرة تدعونا إلى الفخار لأن امرأة حلبية أيوبية أنجزت

منذ أكثر من ثمانمئة عام داراً للنساء اللواتي يغلب أن يكن بلا مأوى وهذا الهدف نفسه هو ما تسعى إليه اليوم كل الجهات الإنسانية المنبثقة عن فكرة حقوق الإنسان وحقوق المرأة.

بدأت قصة ضيفة خاتون حين كان الملك العادل أبو بكر بن أيوب جالساً في إيوانه فإذا ضيف عظيم الشأن يدخل عليه.. وبالوقت نفسه دخل من يخبره بولادة بنت له.. فحمد الله وقال نسميها "ضيفة" تيمناً بقدوم ضيفنا.. ولأنها ولدت وقدمت إلى الدنيا ضيفةً معززة مكرمة ونحن نملك على حلب.

كان ذلك في عام 581هـ الموافق لعام 1185م وقد ولدت ضيفة لتصبح خاتوناً عند زواجها من ابن عمها الظاهر غازي غياث الدين أبو الفتح الذي تولى على حلب عام 583هـ ولما توفي صلاح الدين تولى السلطنة في عام 859هـ وكان عمر ضيفة آنذاك ثماني سنوات.. وما إن كبرت الصغيرة حتى تم زواجها بالسلطان.

لا نعرف عدد أولادها الذكور. ولا عدد بناتها لكننا نعرف أنها أنجبت (العزيز محمد غياث الدين) الوريث الأول للظاهر غازي.. وحين توفي الظاهر غازي عام 613هـ كان عمر ضيفة خاتون اثنين وثلاثين عاماً هجرياً.

بعد وفاة الظاهر غازي استلم الابن السلطنة وحكم العزيز حتى وفاته عام 633هـ.. وكان عمر الخاتون حوالي اثنين وخمسين عاماً حين انتقلت مقاليد الحكم إلى الحفيد ابن العزيز محمد وهو (الناصر يوسف الثاني) ويكون حفيد صلاح الدين لكنه كان صغير السن غير مؤهل للحكم.

هنا برز دور ضيفة خاتون فاستلمت دفة الحكم وأدارته.. لمدة 6 ــ 7 سنوات وقد ذكر ابن الوردي أنها حكمت حكم السلاطين لمدى 6 سنوات.

أمّا ما يمكن أن ندعوه حكم ضيفة خاتون فكان من 633هـ حتى 640 هـ الموافق 1242 ميلادية وهو تاريخ وفاتها.

واستمر حكم الناصر يوسف حتى عام 658هـ ــ 1260م حين قتله هولاكو مع أخيه الظاهر غازي ويقول المؤرخون وبقي ابنه العزيز في يد المغول.

قبل أن نتحدث عن هذه المرأة الأيوبية الحلبية المشهورة بقوتها وحكمتها امرأة ولدت في قلعة حلب وماتت في قلعة حلب، علينا أن نفسر معنى لفظة (خاتون).

لا شك أنهاه كلمة معربة وقد قيل إنها فارسية ولربما هي من التركية القديمة وحسب ما ذكرت الموسوعة الإسلامية الميسرة بإشراف د. محمود عكام فإن الكلمة وردت في مجلة المجمع الأهلي العراقي ــ السنة الأولى، بأنها معرفة عن (خاقان ــ تون) مؤنث خاقان الذي يعني الملك أو السلطان وتعني السيدة أو المعظمة والسلطانة.

وقد عرف هذا اللقب أيام السلجوقيين (خاتون العصمة بنت ملك شاه السلجوقي) وهي زوجة الملك المستظهر بالله العباسي.

مما يعرف أو لا يعرف أن هذه الأميرة أو السلطانة الحكيمة القوية العاقلة الحازمة كانت ذات ميل صوفي عميق.. وهذا ما يشاهد واضحاً في الكتابات التي اختارتها لتنقش على واجهة وباب جامع الفردوس في حلب.

وعلى ما يبدو فإن شعلة الشجاعة والحكمة كانت ملتهبة في شخصيات النساء والرجال الذين واللواتي توالين وتوالوا في المراحل التي رافقت الحروب الصليبية وحتى قدوم المغول.

لقد مات عنها زوجها.. وثكلت بابنها وعرفت الأخطار المحيطة بها وبحلب فسارعت لتمسك بالسلطة وتقود الحفيد ذا السادسة أو السابعة من عمره.. فأحكمت الوثاق على قلعة حلب وساست بالحكمة البلاد لا فرق بينها وبين أي رجل وهذا ما يفسر قوة الشخصية التي كانت تتمتع بها المرأة.. وما زالت في بلاد الرافدين وبلاد الشام.

لم تركن الخاتون لأحزانها، خبأتها ضمن أبراج القلعة الشامخة أو لعلها خبأتها في زاوية التعبد الخاصة بها، التي كانت تعتكف بداخلها في جامع الفردوس، لتستجمع قواها.. ولتعود.. إلى القلعة من جديد وتحكم بيد من حديد.. وكان يقوم بأمور الدولة شمس الدين لؤلؤ تحت إشرافها المطلق حتى وفاتها وهي في السابعة والخمسين من عمرها، وكان الحفيد قد بلغ الثالثة عشر فحكم البلاد.

وبقي محراب جامع مدرسة الفردوس.. بجماله.. بتاجه.. بالتوافق بين ألوانه القاسية في نباته فالألوان القريبة من الأرض قاسية وهي شديدة الشفافية في التاج المحرابي المؤسس بالرسومات الهندسية التي تعلوه واضحة.

بنت ضيفة ختون جامع الفردوس عام 633هـ والماء في البركة المتوسطة يتعاجن ويدخل في دوائر البركة ثم يعود إلى التوافق والهدوء بعد الاضطراب.. ممثلاً شخصية ضيفة خاتون التي أوحت بأفكارها إلى المعمار الذي أنشأ.. ولكأنها كانت هي المهندسة أيضاً.

ونتساءل لماذا أسمت ضيفة خاتون هذا الجامع بهذا الاسم؟ فاختارت الفردوس اسماً.. والغرابة الجمالية تكمن بوضوح في هذا الاختيار فاسم (الفردوس) منقوش بخط الثلث تتمة لشريط حجري.. هذا الاسم يقع على يمين الداخل إلى الجامع عند الباب، وكأن الخاتون قد أوحت للنقاشين ليتم التعبير عن معنى روحاني عميق يتجه نحو طريق صوفي.. ويؤكد ذلك وجود غرفة للخاتون مستقلة يُصعد إليها بدرج.. تأتي إليها الخاتون كلما أرادت التوحد والاعتكاف وتستمع من خلال فتحات الجدار الحجرية إلى الأناشيد والصلوات.. وتشاهد من فتحة ما البركة المثمنة الرائعة لجامع الفردوس وداخل الحوض تجاويف محفورة داخل الحجر تجعل الماء أكثر ضجيجاً وتحركاً.

هــذا مــا شــاهدته فــي المعرض الضوئي الذي أقامه الأستاذ منار حماض في دمشق.. وأثناء شرحه للجزئيات المعمارية لهذا الفردوس فردوس ضيفة خاتون.. رأيت الماء يصبح كالوردة الشفافة وخـيل إلـي أن الحـوض مـن أحـواض الفردوس.. ورأيت ضيفة خاتون بخيالي تتأمل.. بعينيها الأيوبيتيــن الواســعتين وتسبح الله.. وتشعر بالفخر.. لأنها بنت جامع الفردوس الذي كان يقع خارج المدينة وقد سميت المحلة باسمه (د. عبد القادر الريحاوي).

استمتعت الخـاتون سبع سنوات بالحكم وبجمالية مسجد الفردوس الذي جعلته مدرسة ورباطاً ومســجداً وأوقفت عليه الكثير من المال.. تسرد دروس القرآن الكريم على مسامعها.. وصوت مؤذن يصعد نحو شرفة المئذنة المستديرة ذات القبة المتقشفة.

فلعل الخاتون آنذاك.. كانت تدعو لابنها الذي مات.. بجنة الفردوس والبشر يمشون في الأروقة الـثلاث التي تحيط بالصحن وبالغرف لتترك مكاناً لإيوان كبير يقال فيه ما يقال من الأحوال والزهد والخشوع.

امرأة عجيبة تصدرت الحكم..وتصدرت الزهد..

لجـأت من دسائس الحكم إلى فردوسها.. ثم.. لتعود من فردوسها فتحكم من القلعة وحلب تحت أكتاف القلعة كالطفلة الآمنة.

إذا شـئنا دراســة شخصية الخاتون زوجة الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين.. فإننا لا شك ســنرى تناقضات قوية كانت كلها تتجاذب ولا تتنافر لتشكل هذه الشخصية.. ففي داخل جينات ضيفة خاتون تعيش القوة الجبلية وهيبة الترحال.. وسطوة الغزو.. وحب السلطة وفي إسلامها يتجلى الزهد والإيمــان القــوي المطلق وفي عقلها تتجلى قوة الإبداع الهندسي وقدرة التصميم والرغبة في الإتقان (وهــذه مــزية الأبنــية الأيوبية بعامة) ومهما كان المعمار صناعاً فقد بنى بأمرة الخاتون فقد كانت مملكــتها السحرية مدرسة الفردوس الذي يعتبر محرابها من أندر المحاريب في العالم الإسلامي. (د. عبد القادر الريحاوي).

ففــيه تختلط المستقيمات بأشكال تويجات الورود مزين بها تاج كبير متشابك الرسوم والألوان.. فــيه دواء ومــربعات تشــبه ألغازاً كوفية من الخطوط التي يحار الإنسان في تفكيكها.. ليبدو من ثم الــنزول الهندســي نحــو الأرض.. أو علــى العكس الصعود إلى السماء، مستقيماً كالحياة السوية.. والألوان مزهرة مصفرة باهتة كشحوب العشق.

فمــن أنت يا سلطانة.. يا ضيفة خاتون؟ الحاكمة والحالمة والمزخرفة والوردة والمربع والإيوان والفنانة والمتسلطة.. والقلعة؟

في عام 640هـ/1242م القرن الثالث عشر الميلادي.. عصر النهضة والانتصارات والدسائس والحــروب الصليبية ماتت ضيفة خاتون.. وأكرمها الله أنها لم تشاهد هجمة المغول على بلاد الشام..

مؤكـدة بشـباتها.. ومكانتها وحبها وأمومتها مكانة المرأة في تلك العهود التي تلتها عهود ربما أثرت على مكانة المرأة في المنطقة.

حلـب.. والخـاتون.. وأحجـار ضخمة وقباب تسع تحرس مدرسة الفردوس.. قباب تمثل في المعـنى الصـوفي قـبة السـماء.. قـباب ثمانية بل أعناق ملتصقة بسقف البناء وكأنها تعلن انعدام الفواصل بين الأرض والسماء حين تلتقيان في خط الأفق الذي قد يكون مستديراً في الأرض الشديدة الاستواء وفي الـ وح الشديدة الاستواء.. أما قبة مدرسة الفردوس التاسعة حيث يوجد تحتها المحراب فهـي تعلو عن بقية القباب بعنق مستدير.. وعلى جوانب الرقبة ومحيطها نوافذ تؤمن النور.. والنور هو جرعة الرحيق الكونية العليا.. هو الفردوس المجهول.

حلـب الأيوبـية.. وضـيفة خاتون؟؟ التي ذكرها خير الدين الأسدي في موسوعة حلب /الجزء الخامس/ وذلك نقلاً عن التذكرة التيمورية ص 383.

هي التي بنت خانقاه الفرافرة عام 1237م فكان رباطاً لإيواء الفقراء والمقطوعين فلم يكن هناك فقـير إلا أكـل فـي خانقاه الفرافرة، وكعادة كل خانقاه ورباط مسلم.. فقد كان الطعام يقدم من القمح المسـلوق الـذي أضيفت إليه لحوم الأضحيات أو لحوم من يقدم أيام الجمع أو في الأفراح أو لوفاء نذر.. ويظل يخبط في اللحم والقمح حتى يصبح هريساً.. والهريسة أو القمحية.. هي طعام بلاد الشام الأول والأفضل.. ما زالت منتشرة في كل القرى والدساكر وبيوت المدن حتى يومنا هذا.

لقـد كانت ضيفة خاتون تطعم الفقراء لحماً وقمحاً.. بل كان كل غريب أو تائه يلجأ إلى خانقاه الفرافرة ليجد فراشاً ووسادة ودفئاً.

وكمـا أسـلفنا.. فقد أعد في الفرافرة مكان مخصص للنساء والمظلومات، الضائعات الباكيات.. مكـان يبعدهـن عن الاستجداء أو السقوط في الرذيلة.. مكان حماية وطعام ونوم وعبادة.. فقد أعدت ضـيفة خـاتون بهـذا البناء حلاً ممتازاً لإبعاد الفقر عن المجتمع.. وهذا يدل على تفهمها التام لنظام التكافل والتضامن الاجتماعي حيث يكفي كل مجتمع نفسه بنفسه.

حلبية.. نعم.. أيوبية نعم.. خاتون حاكمة نعم.. متصوفة متعبدة ودرويشة.

****

ندير دولاب الأيام.. حتى نصل إلى القرن التاسع عشر الميلادي. وهانحن من جديد في حلب.. في عصر تفتح وإزهار الفكر العربي النهضوي من جديد.. نسأل عن بيت المراش..

تسـتوقفنا فـيه صـورة لامرأة جميلة يظهر في عينيها تساؤل عميق ويبدو على قسمات وجهها الثـبات والأمان.. فكأن الصورة في ظل شاعري لكتاب ثمين.. صورة من صور ذلك القرن الزاخر بالشـاعرة فيها ماريانا مراش.. التي تبدو رقيقة الحاشية.. بعيدة مرمى النظرات وقسمات وجهها من

الجانب تعلن عن طموح بعيد المدى أما الشعر المهذب على شكل جدائل تصل إلى ما تحت الكتفين فيعلن عن زينة نساء ذلك القرن..

ولربما كانت هناك شريطة عريضة معقودة تزين التسريحة.. والصورة موضوعة ضمن إطار بيضوي تمثل زخارفه العصر الذي أخذت الصورة فيه.

ولدت ماريانا مراس عام 1849 ودخلت القرن العشرين وهي تكتب الأشعار وتنتقص تقاعس نساء البلاد وتدعوهن إلى التزين بالعلم والتحلي بالقوة والطموح.

حين كانت تروق ليالي حلب.. كانت تصفو عن نجمتها الشاعرة التي ولدت في أسرة متفقة متفتحة على الشعر والأدب والصحافة.. ولقد كان لنجمة حلب أهداف وأحلام في إتمام تعليمها.. وفي دخول الجامعات.. وكانت بيروت آنذاك تجتذب المثقفين والأذكياء في العالم العربي.

وظلت الفتاة تصر على والدها وأخيها فرنسيس مراش حتى كان لها ما تريد فانتسبت إلى إحدى مدارس بيروت وهي (المدرسة الإنجيلية) وكانت قد أجادت العربية أما الفرنسية فقد تعلمتها في مدرسة راهبات مار يوسف لكنها.. وبسبب الحنين عادت إلى حلب ليشرف على تعليمها والدها العلامة.

وبدأت عالم القريض.. بل سعت إلى نشر قصائدها.. قصائد امرأة شاعرة تفصح عن كينونتها بعد عصور من كتم الأنفاس.. والتخلي.. ولقد ساعد الكثيرون ماريانا ومنهم المعلم بطرس البستاني.. وخليل سركيس.. وأفسح المجال لقصائدها في مجلة (الجنان) وفي جريدة (لسان الحال) وبدأت القصائد تتوالى.

وفي قلب ماريانا كان يلح هاجس السفر.. كانت تريد أن تسافر (تنهل من منابع الغرب الذي كان قد تخطى الشرق آنذاك.. باكتشافاته وعلومه.. ولقد تهيأت لها فرصة السفر إلى أوروبا وكما يقول المثل (إذا أحب الله عبده أراه ملكه) فالسفر انطلاق وثقافة ومعرفة وعلم حتى لو سافر الإنسان إلى داخل نفسه أو إلى القمر فكيف بالفتاة الشابة تسافر إلى أوروبا لتتوسع ثقافتها وتتطور مفاهيمها وحين عادت إلى حلب.. أنشأت صالونها الأدبي الشهير.. وكم كان جميلاً أن يتقاطر على هذا الصالون أكبر أدباء العصر آنذاك و أحسنُ شعرائه، وأعظم مثقفي حلب، يتبادلون المعلومات والعلوم والأشعار ويتناقشون في السياسة والوطنية ضد الاستبداد. مكنّين لماريانا مراش كل الاحترام والتقدير.

والواقع أن ماريانا سبقت (مي زيادة) في مصر.. فكان التجمع الثقافي الحلبي هو السبّاق.. قبل صالون مي الأدبي.. ماريانا تستقبل ضيوفها.. ومجالس أدب حقيقية.. ومصارحات ومساجلات شعرية.. وأفكارٌ تنطلق من الحناجر لا تقبل ضيم المستعمر.. وماريانا تكتب الشعر.. بألوانه..

أثــناء الاســتعمار وبداياته.. أغلقت ابنة المراش صالونها خوفاً على رجال الأدب والفكر والفن مــن السجن ومن الاعتقال.. خافت عليهم أن يقتلوا لا جبناً منها.. إنما إنسانية ومحبة منها.. وآثرت الاستمرار في الكتابة.. فكتبت مدحاً.. كتبت غزلاً عفيفاً.. كتبت رثاء.. اعتكفت ونسجت حريراً جدد طريق حرير حلب.

ولعــل شــهبة حلب.. لعل دراويشها.. لعل كنائسها.. لعل نواقيسها.. لعل مآذنها.. لعل أصوات مؤذنــيها.. لعــل أصــوات حلــب الرخيمة التي تطلق الأناشيد.. جعلت في قلب ماريانا مراش ميلاً صوفياً ودفيناً ظهر أحياناً في بعض أشعارها..

وككــل إنســان محكــوم بالفقد والفقدان.. متأثر لا محالة برحيل أحبائه.. فقدت ماريانا مراش والدها وشقيقها وبعد أهلها. فظهر ذلك جلياً في مرثياتها.

أنهــا نجمة حلب.. التي كانت هدياً للكثيرات من بعدها.. والتي كانت شخصيتها مثلاً يحتذى به لغيرها ممن أتين بعدها.

ماريانــا مــراش.. ملــيكة صالونات حلب في القرن التاسع عشر وأوائل العشرينات من القرن العشــرين.. الداعية إلى تعليم المرأة.. سليلة الفكر والأدب والثقافة والصحافة والفن.. الضاربة على أوتار (القانون) الغارق في شرقيته و(البيانو) الآتي من الغرب، الجامعة لروح الشرق وروح الغرب.

وفي عام 1919 ماتت ماريانا مراش.. كانت الحرب العالمية الأولى قد حطت أوزارها. وكانت ماريانا قد تعبت شعراً وحزناً ووطنية.

سيداتي وسادتي..

إنهــن ثــلاث نســاء من حلب.. عشن في فترات شديدة التباعد.. اخترتهن من بين المئات من مثيلاتهــن فعساني قد ذكّرت.. وعساني قد عرّفت.. وعساني ما أخطأت.. وعساني قد أصررت على إنارة مصابيح ثلاثة سطعت عبر التاريخ في منطقتنا المجيدة.

المصادر والمراجع

1 ــ الآثار الإسلاميّة التّاريخيّة في حلب، محمد أسعد طلس 84.

2 ــ أرشيف ماري، اللّواح الصلصالي 253.

3 ــ أعلام النُبلاء في تاريخ حلب، محمد راغب الطباخ.

4 ــ تاريخ ابن العديم (بغية الطّلب في تاريخ حلب) عمر بن أحمد ابن العديم، تحقيق د. سهيل زكّار.

5 ــ تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر)، أبو الفداء إسماعيل بن علي.

6 ــ تاريخ ابن العدوي، عمر بن مظفر ابن الوردي 172/2.

7 ــ تاريخ سلاطين مصر وبلاد الشّام وحلب، إبراهيم مغلطاني.

8 ــ تهذيب سير أعلام النُبلاء، شمس الدين الذّهبي، مؤسسة الرسالة ط 1، 1412هـ/1991م.

9 ــ حكايات صلصالية لنساء ميّتات، نادية الغزّي.

10 ــ خانات حلب، د. وعد الحكيم.

11 ــ روضة المناظر في أخبار الأوائل، ابن الشحنة، حوادث عام 634هـ.

12 ــ العمارة الإسلاميّة العربية، د. عبد القادر ريحاوي.

13 ــ مجلّة الضاد، عيسى المعلوف.

14 ــ مجلة المجمع العلمي العراقي (السّنة الأولى).

15 ــ معري، قاسم طوير.

16 ــ منظومة الشّيخ أبي الوفا، ص 65.

17 ــ موجز مقتبسات الإفرنج في القرن الثامن عشر، 137 (غارات البدو والأكراد والتركمان).

18 ــ الموسوعة الإسلاميّة الميسّرة، بإشراف د. محمود عكام.

19 ــ موسوعة حلب، خير الدين الأسدي، المجلد 6/حرف ف.

20 ــ نساء من بلادي، ناديا نويهض.

الشيخ عبد الله سراج الدين

أ. د. بكري شيخ أمين(*)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

العلماء هم مصابيحُ الأمة وأنوارها وهداتُها في كل الأزمنة والأمكنة، يُنيرون دروبَ حياتها، فيفتحون القلوب المغلقة، ويُجْلُون الغشاوة عن العيون المتعَبة، وينقلونها من دياجير الجهل إلى أنوار العلم، ويُخرجون الناس من الظلمات إلى النور.

وأخص بالذكر منهم علماءَ الشريعة، وفقهاءَ الدين.. فبالشريعة يكون الإنسان إنساناً شريفاً، والمواطنُ مواطناً حقاً.. وفي ضوء الشريعة يعرف الحق فيتَبعه، ويعرف الباطل فيجتنبه.. يعرف ما يهوي به إلى الجحيم، وما يرقى به إلى أعالي الفردوس والنعيم.

وعلماء الشريعة وحدَهم الذين يأخذون بأيدي الناس إلى طريق الهدى والصواب والحق والنور.. لأنهم ورثة الأنبياء، وحمَلة الرسالة والأمانة.. وهم دائماً في عيون الناس المثل الأعلى الذي به يقتدون.

أريد أن أصل بهذه الكلمات إلى عالمٍ من بلدي.. يحمل تلك المزايا، ويتصف بتلك الصفات، اسمه عبد الله بنُ محمدٍ نجيب سراج الدين الحسيني.

لو رأيته تذكرت رسول الله ﷺ، وقاراً وجمالاً وجلالاً وسكينة وتواضعاً وبشاشة ورقة.. وأحلى ما يتصوره الإنسان في كمال وجمال في عبد من عباد الله.

فالرجل متمثل برسول الله ﷺ تمثلاً إن لم نقل: كاملاً فهو قريب من الكمال.. من فَرْقِ شَعرِه إلى أخمَصِ قدميه.. في مظهره.. وفي حديثه.. وفي حركاته.. وسكناته.. وفي تبسمه.. وفي أخلاقه.. وفي كل ما يتصل بحياته الإنسانية من صغيرة أو كبيرة.

الرائع في هذا النور المحمدي الذي سكن في مدينة حلب الشهباء من أرض سورية أنه ليس عالماً فقط، وإنما هو عالمٌ عامل..

(*) عضو اتحاد الكتاب العرب، عضوا اللجنة العالمية للغة العربية

وحتى نلم بسيرته تفصيلاً نذكر النقاط التالية:

ولد الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني بمدينة حلب سنة 1342 للهجرة النبوية والموافقة لسنة 1923 للميلاد من أب كان نجمَ حلبَ في أيامه هو الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني الحنفي، فأدخل ابنه عبدَ الله جامع سليمانَ القريب من حي قاضي عسكر بحلب.. فتعلم تلاوة القرآن الكريم والكتابة، ثم انتسب إلى مدرسة دار الفلاح ـ السلطانية.. فتدرج في صفوفها، وجوّد القرآن الكريم على القارئ الشيخ عثمان قنديل الطنطاوي المصري، وأخذ شيئاً من فقه العبادات والنحو، وأشعارِ العرب، وخُطبهم التي كان مفروضاً على الطلبة يومذاك أن يحفظوها، كما أخذ علوم الرياضيات عن الشيخ محمد خير إسبر. ثم انتسب إلى مكتب الشيخ عبد الوهاب المصري الحلبي.. فبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويدهِ عليه، واستمر سنتينِ كاملتَينِ حتى حفظ كتاب الله كله عن ظهر قلب.

ثم انتقل إلى المدرسة الخسروية متدرجاً في صفوفها.

وحبّب إليه الحديث النبوي، وأولع بقراءته، فحفظ قسماً كبيراً من صحيح البخاري، ثم عاج على العلوم الدينية الأخرى من فقه وأصول وتفسير وفرائض وتوحيد ومصطلح وسيرة، وأتبعها بعلوم العربية من نحو وصرف وعروض وبلاغة، فكان فيها المبرز والمتقن.

ثم استقر به الحال في غرفة والده الشيخ محمد نجيب في المدرسة الشعبانية مجاوراً للشيخ ياسين سريّو الذي كان يُعدّ من أجَلّ شيوخه رحمه الله تعالى.. كما لازم دروس الفقه في المدرسة الإسماعيلية عند الشيخ أحمد عساف الحجي الكردي.

وظائفه:

عين مدرساً في جامع (أبو درجين) ثم دعي للتدريس في معهد العلوم الشرعية في المدرسة الشعبانية، وكلّف بتدريس التفسير والحديث والفقهِ الحنفي ومصطلح الحديث.

كذلك استُدعي إلى المدرسة الخسروية، فدرّس فيها المصطلح، وألف كتاباً في هذا الموضوع، فطبعته المدرسة، ووزعته على طلابها

ناب خلال ذلك في التدريس عن والده الشيخ محمد نجيب سراج الدين في جامع الحموي، ثم أبدل بجامع أبو دَرَجَيْن درسَ المحافظة في الجامع الأموي الكبير.

وشـــاء الله تعالى أن ينتقل من جامع الحموي، ويركّز جهوده في المدرسة الشعبانية، وراح يستقبل طلاب العلوم الشرعية، حتى إذا تخرج أحدهم من الشعبانية تلقفته جامعة الأزهر الشريف في أرض الكنانة، وأدخلته في قسم الدراسات العليا.

يضاف إلى هذا كله اتصالُ عالمنا الشيخ عبد الله بعلماء العالم الإسلامي، ومحادثتهم، ونيل الإجازات الرفيعة منهم بخط أيديهم.

* * *

آمن الرجل بحكمة رائعة خلاصتها:

لا يكفي أن يكون المرء عالماً، ومبرّزاً في علوم الأولين والآخرين، ثم ينطوي على نفسه، فـلا يستفيد منه أحد.. إنما شأنُ العالمِ أن يكون عاملاً بعلمه، موزّعاً معارفه عبْرَ الجهات كلها، ينشـر الخـيرَ يمنةً ويسْرَةً، آناءَ الليل وأطرافَ النهار.. ثم يكون لـه أتباعٌ يتمثلون بشخصه وتعاليمه، ويقتدون به، ويغدو كلٌ منهم فلكاً جديداً تدور حوله نجوم وكواكب وأقمار.. وهكذا.

ومـع هذا كلّه، لا يكفي أن يلقيَ العالمُ دروسهَ على أتباعه ومريديه وتلامذته.. ثم ينصرفُ وينصـرفون.. وينتهي كلّ شيء بانتهاء حياته أو حياتهم.. إنما ينبغي أن يتركَ العالمُ بعده آثاراً مسجّلة مكتوبة، يقرأها الناس أيام حياته وبعد موته. ويطّلع عليها من هو قادر على أن يصل إلى الشيخ ويراه، ومن هو غيرُ قادر على أن يصل إليه أو يراه.

لقـد آمن أن نفع التصانيف أكثرُ من نفع المشافهة، فهو يشافهُ خلال حياته عدداً محدوداً من الـناس، ولكـنه بتصانيفه ومؤلفاته المطبوعة يشافه عدداً لا يحصى، ما خُلقوا بعد.. ودليل هذا انتفاعُ الناس بتصانيف المتقدمين كما يستفيدون من مشايخهم المعاصرين، وأن العالمَ الحقّ ينبغي أن يعكـف علـى التألـيف إن وُفّق إلى التأليف المفيد، فإنه ليس كل من ألّف أفاد ونفع، وليس المقصـودُ جمـعَ شـيء كيفما كان، وإنما هي أسرارٌ وأنوار يُطْلِعُ الله تعالى عليها من شاء من عـباده، ويوفقه لكشفها، فيجمعُ ما تفرق، ويرتبُ ما تشتت، ويشرحُ ما يحتاج إلى شرح، ويحلّ كل غامض أو معقّد..

لقـد دأب شيخنا في حياته على إلقاء الدروس في المدارس المختلفة كالشعبانية والخسروية وفـي جوامـعَ عـدة كالجـامع الكبير وجامع الحموي وجامع بنقوسا وجامع سليمان، ومع تلك الـدروس الملقـاة راح يسجل دروسه بتصانيف وكتب، زاد عددها على عشرين كتاباً مطبوعاً، نذكر منها:

كتاب سيدنا محمد ﷺ.

التقرب إلى الله تعالى.

الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.

الدعاء

صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.

شهادة أن لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله ﷺ.

الصلاة في الإسلام.

الصلاة على النبي ﷺ.

تلاوة القرآن المجيد.

هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.

هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان.

حول تفسير سورة الفاتحة.

حول تفسير سورة الحجرات.

حول تفسير سورة ق.

حول تفسير سورة الكوثر.

حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين.

شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

أدعية الصباح والمساء.

قصائد كثيرة في مدح الرسول ﷺ.

* * *

وحتى نقدم صورة موجزة عن هذه المؤلفات نكتفي بعرض موجز لآخر كتاب صدر له، وهو (حول تفسير سورة الفاتحة أم القرآن الكريم) وهي التي قال عنها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "لو تكلمت لكم عن سورة الفاتحة لأوقرت سبعين بعيراً".

ونعجب من قول الإمام علي ﷺ.. إذ كيف يمكن أن يتضمن تفسير سورة صغيرة مجلدات ومجلدات؟ ويقف العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى فيؤكد قوله الإمام علي ﷺ فيقول:

"اعلم أنه مرّ على لساني في بعض الأوقات أن سورة الفاتحة يمكن أن يُستنبطَ من فوائدها عشرةُ آلاف مسألة، فاستبعد ذلك الحساد، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب ـ يعني تفسيره ـ وقدمت لـه مقدمة لتصير لـه كالبيّنة على أنّ ما ذكرناه ممكنُ الحصول".

أما شيخنا سراج الدين فقد خطط لبحثه كما يلي:

الكلام على البسملة وراح يفسرها، وانتقل بعدها إلى: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم. مالك يومِ الدين. إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم. صراطَ الذين أنعمتَ عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين﴾ عرض اللطائف والمواقف التي اشتملت عليها سورة الفاتحة في الصلاة وما في ذلك من البشائر. استحباب التأمين عند كل دعاء. من فضائل سورة الفاتحة وخصائصها.

* * *

هذه الخطوط العامة لتفسير سورة الفاتحة ليس فيها جديد، وقد يخيل إلى المرء أن كل متصدّ للتفسير يمكنه أن يقف عند كل آية، فيوضحَ مفرداتها، وعباراتها، ومقاصدها، فإذا كان فقيهاً استنبطَ منها أحكاماً فقهية، وإذا كان بلاغياً استخرج منها لآلئ بلاغية، وإذا كان لغوياً التقط منها جواهر لغوية، وهكذا.

ومع هذا كلّه فلا يعدو تفسيرُ هذه السورة القصيرة عدداً من الصفحات في أكثر تقدير، لأن معانيها ليست غامضة، ومفرداتها ليست غريبة، والقضايا البلاغية فيها متركزةٌ حول التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والقطع والوصل.

إذن، كيف نقارن هذا المفترَض في تفسير هذه السورة مع مقولة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (لو تكلمت لكم عن سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين بعيراً)؟

الحقّ أقول:

مــا كــدت أنتهــي مــن قراءة كتاب شيخنا عبد الله سراج الدين هذا حتى أيقنت أن أمير المؤمنين علياً محق فيما قال... وأنه يُكتب في هذه السورة المجلدات المتعددة.

لقــد فتح الشيخ عبد الله عيني على الآفاق الرحيبة التي يمتد إليها تفسير هذه السورة، وأنها أوسع ممّا تخيلتُ وتوقعت.. فالشريعة الإسلامية بصورتها العامة وخطوطها العريضة.. مندرجةٌ فــي هذه السورة.. وكامنةٌ في ثناياها.. وهي لا تحتاج إلى عالم فذ، وخبيرٍ ماهر، يستخرج من بواطنها الكنوزَ والرموزَ.. ويدلُّ الآخرين عليها.

ولأضــربْ علــى ذلك مثلاً بشاهد على ما أقول في تفسير شيخنا لقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

لقــد امــتد الكلام عن هذه الآية من الصفحة 85 إلى نهاية الصفحة 110 أي أخذت خمساً وعشرين صفحة كاملة، كلها فيض وتحليق.

بــدأ الشــيخ بشرحٍ مختصر وبسيط، فقال: "إياك نعبد، أي: لا نعبد إلا إياك، لأنك ربّ كل شيء، والكلّ عبادُك، وحق على العبد أن يعبد ربه سبحانه".

ومــن هــذه النقطة أفرد الشيخُ جناحَيْ تفسيره ليحلّق في أجواء الآية الكريمة.. فبدأ بكلمة (العــبادة) وراح يفسرها، ويعدّد شروطها، ويبيّن الفرق بين العبودية والألوهية.. وما فيهما من توافق أو تباين أو تضاد..

وتنساب الآيات القرآنية المتصلة بــ (العبد) و(العبادة) وتتلوها الأحاديث النبوية في المجال ذاتــه، ويكون حديث معاذ ﷺ في أولها: (قال معاذ: كنت رديفَ رسول الله ﷺ على الدابة يوماً، فقال لي: يا معاذ! قلت: لبيّك يا رسول الله! ثم سكت ساعة، ثم قال: يا معاذ! قلت: لبيك يا رسول الله! ثم سكت ساعة، ثم قال: يا معاذ بنُ جبَل! قلت: لبيك وسَعْدَيْكَ يا رسول الله! قال: أتدري ما حــق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلمُ. قال ﷺ حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثم قال: يا معاذ! قلت: لبيك يا رسول الله! قال: أتدري ما حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً ألا يعذبَهم.).

ويستدرك شيخنا فيقول: فهذا حق، هو سبحانه حقّه على نفسه، تفضلاً وتكرماً، فإنه سبحانه من كرمهِ وفضلهِ هو قد يُحقّ على نفسه، وقد يوجب على نفسه، ويكتب على نفسه، ويحتّم على نفسه، ويحرّم على نفسه.. كل ذلك من باب الفضل والكرم والجود الإلهي.

وعزز قولـه ذلك بالشواهدَ من الكتاب العزيز من مثل قوله تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾، ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾. ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾.

ومن الأحاديث القدسية من مثل: وجبت محبتي للمتحابين فيّ.. يا عبادي إني حرّمتُ الظلمَ على نفسي..

ويـتابع الشـيخ الكلام في (إياك نعبد) فيرى أن فيها تلقيناً من الله لعباده أن يقولوها بعد أن وقفـوا موقف الذاكرين في البسملة، والحامدين في الحمدَلَة، والمثنين بقوله: (الرحمنِ الرحيم)، والممجديـن في (مالك يوم الدين).. فحقَّ لهم أن يرتقوا في القرب، ويعلوا في الدرجات، فعلّمهم أن يقولوا: (إياك نعبد).

ويتسـاءل الشيخ عن هذا الضمير الجمعي في (نعبد) و(نستعين) ولماذا لا يقول العبد: إياك أعبد، وإياك أستعين؟.

ويجيـب هـو عن تساؤله بتحليل لا أحلى منه ولا أمتع فيقول: هذا موقفٌ فيه هضم النفس والاعترافُ والإقرار بالعبودية لرب العالمين، والاستشعارُ بالذل، والافتقارُ له. فكأنه يقول بلسان حالـه: يـا الله! أنت رب العالمين، وأنت الرحمنُ الرحيم، ومالك يوم الدين، لك العزة الربوبية، وسيادةُ الألوهية، ما أنا بالذي بلغت عبادتي القاصرة تلك المكانة حتى أذكرَها وحدها، وأتقدمَ بها إلـيك، بل أخلطُها وأجمعُها إلى عبادات جميع العابدين لك، وأذكر الكل بعبارة واحدة ــ فلعلك ترضى ــ فاسلكني في نظامي، وأجملني في جملتهم، فإن فيهم الأنبياءَ والرسلَ والأولياءَ، وكلهم عـبادك، وخاصـة إمـام العباد، وإمام الأنبياء والمرسلين، سيدُنا محمد ﷺ، فاقبلني في جملة العابدين من أتباعه، وتقبل عبادتي بشفاعته وكرامته.

ويسترسـل فـي هذا التحليل اللطيف، فيردف إلى ذلك قوله: في هذه الآية الكريمة صورة لاتهـام العابد نفسه بنقص العبادة اللائقة، فيشفَعها إلى عبادة العابدين، لعل الله تعالى يقبل ذلك، فـإن مـن كرمه ــ سبحانه ــ أن يلحق الناقص بالكاملين إذا انضم إليهم، كما جاء في الحديث (همُ القومُ لا يشقى بهم جَليسُهم).

ويـزيد الشيخ في تعميق هذا المعنى فيقول: ففي الجمع بيانُ أن جميع العباد واقفون في هذا الباب ــ أي التوجه إلى الله تعالى المعبود وحده ــ وهو ــ أي العابد القائل ــ: (إياك نعبد) هو واقـف معهـم، وفيهم كامل العبادة وناقصُها، فكمال أهل الخير يَجبرُ ويغطي أهل النقص ــ من بـاب الفضـل والجـود الإلهي ــ فالله أ جل من أن يقبل بعضاً ويردّ بعضاً، في حين أن الكل واقفـون على بابه، ومتوجهون إلى جنابه في عبادتهم، واستعانتهم به، وطلب الهداية منه إلى ما

هنالك ــ سواء كانوا مجتمعين بأجسامهم كصلاة الجماعة، أو متفرقين ومنفردين ــ فإن القلوب كلها مجتمعةٌ ــ متوجهةٌ إلى رب واحد، ومعبود واحد ــ سبحانه وتعالى والكلّ يطلبون الإعانة ويسألونها، من رب واحد، ومعبود واحد، ومعين واحد.

ويستمر تيار الفيض دفاقاً، فينتقل المؤلف الكريم إلى جانب من (إياك نعبد) فيرى أن العبادة عــزّ وشرفٌ وجاهٌ وكرامةٌ للعبد إذا قام بها في هذه الحياة نال أجرها من هذه المعاني في الحياة الآخــرة، إذ بالعــبادة وحدَهــا ينال العابد القربَ والحب ودخول جنة النعيم، والتربّع على مقعد الصدق عند المليك المقتدر.

وبالعبادة يقف العابد على الأسرار والأنوار والآثار التي منها:

1 ــ القربُ من حضرة الرب (واسجدْ واقتربْ)

2 ــ انصــباغُ القلــب بــالأنوار البهــية (صبغةَ الله ومَنْ أحسنُ من الله صبغةً ونحن لــه عابدون).

3 ــ الانــتقالُ مــن رتــبة العــبدية العامة إلى مرتبة العبدية الخاصة التي ينال بها شرفَ الإضافة إليه ﴿قلْ لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾.

4 ــ الحصانةُ من رجس الشيطان ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾.

5 ــ نيلُ البشائر ﴿فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾.

6 ــ الأمانُ من الله ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾.

7 ــ تذوقُ طعم الإيمان وحلاوته (ثلاثة من فعلهن فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان). وذكر منهن: من عَبَدَ الله وحدَه، وعَلِمَ أنه لا إله إلا الله.

* * *

وينتقل الشيخ إلى الجزء الآخر من الآية الكريمة (وإياك نستعين)

وهــنا يــنطلق إلــى الساحة العريضة والأفق المديد يَلُمُّ جميع ما يتصل بكلمة (الاستعانة) و(العــون) ومــا يتفرع منهما من مشتقات وردت في كتاب الله العزيز أو في الحديث الشريف، فيتحدث في كل منها حديثاً متأنياً، لا إيجاز فيه ولا إسهاب.

مــن هذه الاستعانات: الاستعانة بالله، والإعانة على أعداء الله، وشكوى العبد الضعيف إلى الإلــه القــوي المعين، ووجوب سؤال الإنسان ربّه في كل حاجاته، صغرت أو كبرت، دقت أو جلّــت، فــالله معين.. والله مسخر للإنسان من يعينه كذلك من بني الإنسان.. شأنه في ذلك شأن الإحــياء، والهداية، والرزق فالرزاق هو الله.. ومع ذلك فقد جاء في القرآن الكريم نسبةُ الرزق إلى الإنسان ﴿وإذا حضر القسمةَ أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معــروفاً. والإعانة ــ أصلاً ــ من الله، ومع هذا يصح أن يضاف العون إلى الإنسان، مصداقاً لقوله ﷺ [والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه].

ثم يأتي إلى بيان الحكمة من تقديم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نســتعين﴾ فيذكر أن العبادة حق الله تعالى، فحق الله مقدم على حق ما هو للعبد.. ثم إن العبادة تضــم أعمــالاً صالحة وأقوالاً طيبة، وأدعية كثيرة... فهي جميعاً من باب التوسل إلى الله بهذه الأقــوال. وتقديمهــا علــى طلب الاستعانة يكون أرجى لقبول الدعاء واستجابته.. والعبادةُ من معانــيها قــيام العــبد بواجب الأمانة الكبرى التي التزمها وحملها يوم عرضت على السماوات والأرض فأبيــن أن يحملــنها وحملها الإنسان.. والاستعانة طلب العبد من الله عونه على الحمل الثقيل.

وأخــيراً: فمــا دام الإنسان مخلوقاً للعبادة، ومأموراً بالاستمرار عليها حتى آخر لحظة من حــياته مصدقاً لقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.. فالاستعانة على استمرارية العبادة أمر طبيعي في هذا المجال.

* * *

لقد كنت أود أن يشير ــ قدس الله سره ــ إلى ما في هذه الآية الكريمة إلى الروائع البلاغية كلها، وإن كان قد جاء بالكثير الكثير منها، وأخص بالذكر في هذه الآية: تقديم وتأخير الضمائر في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فيتابع التحليق.. وهي أمور لا تقل أهمية وروعة عما أورده.

إن علماء البلاغة يقفون بإجلال وإكبار عند هذا التقديم والتأخير ويسهبون في تحليل أبعاده، وشرح ما فيه من روائع وأطايب وأعاجيب وعبودية كاملة.

إن تقديــم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد) وتقديم (إياك) على الفعل (نستعين) دلالة على الاختصــاص والحصــر.. فكأن العبد يقول: يا الله لا نعبد إلا إياك، وبعبارة أخرى: إنا لا نعبد المال، ولا نعبد الجاه، ولا نعبد الشهوة، ولا نعبد الشيطان، ولا نعبد الحبيب، ولا نعبد الولد، ولا

نعبد السلطة، ولا نعبد المجد، ولا.. ولا.. إنما نعبدك وحدك دون سواك. ولا نطلب العون من هذا ولا ذاك، إنما نستعين بك وحدك دون سواك.

* * *

ومن الروائع البلاغية لهذا التعبير أنك لو قارنت بين ما لو قلنا: نحن نعبدك يا ربنا ونستعينك أو نستعين بك لظهر الفرق واسعاً بين المعنيين.

الأول يعني: إنا نعبدك، وإنا نستعينك أو نستعين بك.. ولكن هذا لا يمنع أن نعبد سواك، ولا يمنع أن نستعين بغيرك.. مثال ذلك: لو قلت لأحد الناس: أنا أحبك يا صاحبي! فإن هذا لا يمنع أن تحب سواه من الناس من أب، أو أم، أو أخ، أو أخت، أو جار، أو شريك، وهكذا..

أما لو قلت له: إياك أحب، فقد حصرت حبك كله فيه، ولم تشرك معه فيه أحداً.. هذا هو معنى تقديم المفعول على فعله وفاعله.. إنه يفيد القصر والحصر والاختصاص.. بعبارة أخرى: إنه التوحيد الخالص المطلق الذي ما بعده بعد..

شيء آخر من روائع هذه الآية يتجلى في حذف المفعول للفعل (نستعين). لقد حذف المفعول ليشمل كل شيء في هذا الوجود.. إياك نستعين يا الله على عبادتنا، وعلى أعمالنا، وعلى دراستنا، وعلى تربية أبنائنا، وعلى خدمة ديننا، وعلى نصرة شريعتنا، وعلى حب وطننا، وعلى كل صغيرة وكبيرة في أمور دنيانا وأخرانا..

هذا الحذف للمفعول أطلق الفكر إلى عوالم لا نهاية لها.. ولو ذكره لقيد الفكر وحصر المعنى.

* * *

إن في هذه الآية التفاتاً من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب.. كانت الآيات تمضي وهي تحمل ضمير الغائب.. الحمد لله.. رب العالمين.. الرحمن الرحيم.. مالكِ يوم الدين.. وفجأة انتقلت إلى الخطاب المباشر:

إياك نعبد.. وإياك نستعين.

ألسنا نحس بالواقع النغمي الطروب لهذه النقلة المفاجئة، أو لسنا نشعر بالراحة في هذا التبدل النغمي.. من ضمير إلى ضمير؟ ومن سكة إلى سكة؟

* * *

وبعد: فإن قراءة هذه الكتاب جعلتني أؤمن بما صرح به سيدنا علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وفخر الدين الرازي ـ رحمه الله ـ من أن شرح سورة الفاتحة وحدها يملأ مئات الصحف والمجلدات، فالسورة فيها الحياة بكل دقائقها، وفيها الآخرة بكل جزئياتها، ولا تتأتى معرفة ذلك إلا لمن فتح الله تعالى عليه

* * *

أعود إلى الحديث عن شيخنا الكبير عبد الله سراج الدين لأقول: إن جميع كتبه من هذا القبيل، فهو لا يتناول موضوعاً إلا أشبعه بحثاً وتفصيلاً حتى لا يترك لمستزيد حاجة إلى زيادة.

الطريف في هذه المؤلفات أن الناس في مدينة حلب ـ هذه المدينة المباركة ـ يقبلون على اقتنائها، ويتهادونها.. وتنتقل هذه الكتب شراء وإهداء إلى معظم بيوت الناس في بلاد الشام، ومن بلاد الشام تنداح إلى مختلف أصقاع العالم شرقاً وغرباً. وتسهر المطابع على إعادة نشرها وتوزيعها مرة بعد مرة، وتقول هل من مزيد؟

* * *

صورة لا تنسى:

وإن أنس لا أنس شارع بنقوسا في مدينة حلب.. ففي هذا الشارع جامع كبير يتسع لآلاف المصلين.. وكان شيخنا يلقي فيه درساً على الناس بعد عصر كل يوم جمعة..

في ذلك الوقت لا يمكن لسيارة أن تمر بهذا الشارع من كثرة الزحام أو المجالسين المنصتين على الأرصفة وأرض الشوارع، يستمعون إلى درس هذا الرجل الكبير..

والرائع في تلك السيارات أن أبوابها تخرس أو تشل، فلا تسمع لها ضجة أو بوقاً أو صوتاً.. وشرطة المدينة تقف في مختلف الجهات تحول مسير السيارات إلى هنا وهناك.. حفظاً على حياة هؤلاء الذين يجلسون في الشوارع.. هذا يبكي، وهذا يستغفر، وهذا يطرق برأسه، وهذا يفتح يديه إلى السماء.

وتستمر هذه الحفلة إلى مغيب الشمس، ثم ينفرج الطريق ليمر موكب الشيخ المَهيب... ويصطف الناس على جانبي الطريق.. صفين متقابلين واضعين أيديهم على صدورهم.. مثبتين أعينهم على شيخهم الحبيب، داعين الله أن يحفظه ويمد في عمره.. والسعيد من اقترب منه. أو لمس يده، أو استنشق من عبير أنفاسه وعبقَها.

* * *

الدمعة الحرى:

وتمر الأيام، وتتوالى الأمراض على الشيخ، ثم يعجز عن الخروج من داره، ويعتزل الناس إلا من أسعده الحظ بلقائه لحظات خاطفات.. ويتقاطر الناس إلى بيته يسألون عن صحته، ويودون أن لو استطاعوا فداءه بأرواحهم.. ويحملون ما يحمل ويعاني ليبقى سليماً معافىً.. يرونه ويرون فيه صورة حبيبهم الأعظم صلوات الله تعالى عليه. ولكن هيهات هيهات.. فلا راد لقضاء الله.. وليت الأماني بالتمني.

* * *

وبزغت شمس العشرين من ذي الحجة عام 1422 للهجرة والموافق للرابع من شهر آذار سنة 2002 للميلاد على مدينة حلب، فإذا هي شمس كئيبة صفراء، وشاع في المدينة نبأ مزلزل، يقطع القلب هلعاً، والنفوس جزعاً، لقد مات حبيب الأمة وعالمها وسراجها وكوكبها الدري.. لقد مات الشيخ عبد الله سراج الدين.. وراح الناس يجهشون بالبكاء، ويسيلون جموعاً إلى موكب وداعه، ودموعهم مسفوحة، وعيونهم زائغة، وحسرتهم تقطع القلوب، وتسري في المدينة كلها كلمة: رحل الحب والحبيب... رحل الإنسان الذي كنا نراه فكأنا نرى رسول الله ﷺ.. ودفن في المدرسة الشعبانية التي أحبها وأمضى فيها زهرة حياته، وبقي الناس يومها لا يشتهون طعاماً أو شراباً، ولا بيعاً أو شراء، وبقيت حلب تئن من يتمها ولا تزال.

حلب طراز الذهب
في عهد سيف الدولة

د. محمد ألتونجي (*)

شرفٌ لي أن أكون من حلب، عاصمة سيف الدولة الحمداني، فما سألني سائل حين علم أني من الشهباء إلا ذكر لي سيفَ الدولة، والمتنبي، وأبا فراس، وذكّرني بهم. فما زالت حلب رهينة المفاخر الحمدانية، منذ ما ينوف على أحد عشر قرناً. حتى زائروها يحسّون برهبة تاريخية عريقة في القدم، حين يطؤون أرضها.

لكن "حلب" لم تحمل هذه الأبهة وهذا الفخار من سيف الدولة وحسب؛ فهي أصلاً من أقدم مدن العالم وأعرقها، وأحفظها تراثاً على الرغم من عاديات الزمان، وظلم الإنسان، ففي حلب قلعتها الشامخة التي تعلو أكثر من ستين متراً، وفيها مقام سيدنا إبراهيم الخليل، وقطعة من رأس النبي يحيى، وفي أحد مساجدها القديمة قدم ينسب إلى النبي (ﷺ)، وفيها مشهد للإمام علي على حجر داخل مسجد غوث، وعلى سفح جبل الجوشن (الأنصاري اليوم) مشهد المحسن بن الحسين، سقط من بطن أمه لما جيء بالسبي من العراق لينقل إلى دمشق، وجامعها الكبير الأموي الذي بناه سليمان بن عبد الملك على غرار المسجد الأموي بدمشق الذي بناه أخوه الوليد، وأبوابها الضخمة القديمة، وما زال بعض منها ماثلاً معلقاً على بواباتها، وأسواقها القديمة المسقوفة... إلى غير ذلك من المعالم النادرة التي يتوق إلى زيارتها كل سائح، وإلى المطالعة عنها كل مؤرخ.

ولم تشتهر حلب إلا بعد الفتوحات الإسلامية، لتغدوَ عاصمة الثغور ضد البيزنطيين، تصدُّ بصدرها وصدور أبنائها جحافل المعتدين على الأرض العربية. أما وضعها الأدبي فحدّث عنه من غير حرج؛ فقد مرت بها قوافل لا يحصى عددها من الشعراء، بدءاً بامرئ القيس، ومروراً

(*) أستاذ جامعي وباحث.

بالمتنبي، وأبي فراس، والصنوبري، وكشاجم، والمعري، والخفاجي، وابن حَيُّوس. وما حكايات دار علوة ــ محبوبة البحتري ــ ببعيدة عن أذهان سكان حلب اليوم.

أمـا مـن الناحية السياسية، فقد كانت إمارةً تابعة للأمويين، ثم للعباسيين، والأمراء الذين تعاقـبوا على حكمها، وتدافعوا لكسب خيراتها، حتى داهمتها الجيوش البيزنطية، فاختلّ توزانها الحربـي، واضـطرب أمـنها. فاستنجد أعيانها ببطل فتى لمع نجمه في سماء الجزيرة الشامية والموصل، وتوسّموا فيه البطولة والنجدة والشهامة. هذا البطل هو سيف الدولة. فاندفع نحو حلب لإنقاذهـا، وقـد أدرك بحصافته خطورة الموقف الداخلي، وهول الموقف الخارجي. فقسم جيشه قسـمين، قسماً وجَّهه نحو المدينة يهدئها ويمهّد لدخولها، وقسماً قاده بنفسه داهمَ به البيزنطيين، وطردهم من مواقعهم.

وتحقـق له النصر، فكان أول قائد جدَّد الكفاح الصامد، وأحيا روح الجهاد الصادق بعد أمد مـن السكون الرهيب. وكأنَّ القدر شاء أن يخدم المدينة به لفصم براثن البيزنطيين، ومنعهم من احتلالها. وسرعان ما امتدت سلطنته، فشملت شمالي سورية كله، وجانباً من كيليكية (في تركية الحالية)، وجزءاً من شمالي العراق.

وإذا كان الأمراء السابقون يستنزفون أموال الشعب في سبيل ملء خزائنهم، فإن الحمدانيين كانوا يسخون بكل ما في خزائنهم لإعادة بناء المدينة، ولرعاية الآداب والفنون والعلوم، ليعودوا إلى ملئها ثانية وثالثة بالنصر والغنائم.

وممـا يدلُّ على غنى سيف الدولة وثرائه أنه كلما قدم المدينة وفد من الروم أمر بالخروج لاستقبالهم بالسلاح، فيركب من داره ألفُ مملوك بألف درع مذهب على ألف فرس عُتق، وألف تجفاف (دروع للخيل). وحين انتصر عليه خصمه "نقفور فوكاس"، ودخل قصره سلب منه ما لا يحصى من الأموال.

ومما ذكرته الكتب أنه نهب ثلاث مئة بِدره؛ مئة عين ذهباً، ومئتين فضة، وثلاث مئة حمل من البُز الفاخر، ومن الديباج المدَّخر خمسين حملاً، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يقدر بثمن، ومـن الخيل ثمان مئة رأس، ومن البغال خمس مئة رأس، ومن السيوف مئة حمل، ومن الجمال نحو ألفين، ناهيك عن الأسلحة والمناطق. ونقل منه سقوف القصر لأنها مذهبة.

قصر سيف الدولة:

يحسُّ القادم من حلب بأنه ــ وهو يشارفها ــ يسير صُعداً كلّما دنا منها، حتى يقف على قمة جبل الجوشن عند مدخلها. وحين اختار سيف الدولة حلب عاصمة له بحث عن مكان مناسب يبني فيه قصره، فلم يجد أفضل من قمة جبل الجوشن الشامخ، فبنى قصره إلى جوار مقام "السِّقط محسن"، ليشرف من عليائه على المدينة أمامه، وكأنَّ المدينة التفَّت إلى حضن الجبل، تطلب منه الاطمئنان والأمان، بعد أنْ كشف ظهرُها للبيزنطيين.

ولقد أسمى قصره "قصر الحَلْبة" على اسم الأرض التي بُني عليها. واعتنى ببنائه، ليكون مُضاهياً لأشهر البلاطات في زمانه. فحفل ببديع النقوش والزخرف والتصاوير، وفرشه على أفخم طراز وأبدع ما تضمَّنته قصور أباطرة الروم. وكان ذرعه ستة آلاف ذراع، لم يبق منه اليوم سوى بقايا جدار يمكن للزائرين أن يروه، ويتصوروا باقيه. وجعل فيه ثلاثة حمامات فيها مياه جارية، وأطلق حول القصر جدولاً من الماء، ومَدَّ لـه مضماراً لسباق الخيل على ضفاف نهر قُويق.

وضمَّ قصره في غضون ربع قرن (منتصف القرن الرابع الهجري) كوكبة من أرباب الأدب والعلم والفن، لا تكاد تباريها إلا قصور العباسيين في أزهى عصورهم. ولا عجبَ أن تسمى عاصمته "حلب طراز الذهب"، وأن تدعى في هذا العام "عاصمة الثقافة الإسلامية". وتجمعت لديه صفوة مختارة من أهل العلم؛ توافدت عليه من العواصم الإسلامية أمثال: أبي الفرج الأصفهاني، ابن خالويه، ابن نباتة، ابن جني، المتنبي، الوأواء، الخالديان، الفارابي... وزاد عدد أطباء بلاطه على عشرين طبيباً.

وحفلت جلساته ومنتدياته بمناقشات حرة، ومجادلات أعادت سمعة حلقات الجدل الفكري في العهد العباسي الذهبي. وانتشر صدى هذه المنتديات الفكرية والأدبية بين أبناء العاصمة، فسمق مستوى شبانها، وازداد إقبالهم على العلم، وتسابقوا للانضواء تحت راية سيف الدولة. حتى أجمع مؤرخو الأدب على أن عصره الأدبي خير عصور الأدب، وأشاد " بروكلمان" بعصره فقال: "... ولئن كان سيف الدولة يدين بما تمَّ له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم في المحل الأول، فليس من شك أنه يدين كذلك في المحل الثاني لعطفه على الفنون والعلوم لرعايته لها".

حلب بعد سيف الدولة:

ســجل أحد المؤرخين المرافقين للإمبراطور "نقفور فوكاس" دهشة الإمبراطور، فقال: "... ولقد دهش الإمبراطور نفسه عند دخوله عاصمة الأمير من فخامة المدينة وروائها، ومن زخرف أسواقها، وأناقة قصورها. بل لقد شعر بالحسد من تفوق حلب على القسطنطينية".

ولــم يطــل هــذا المجد الأثيل الذي تمتعت به حلب في عهد الحمدانيين، لأن المدن تُزهر بأمــرائها، وتخــبو بــزوالهم، ولها عمر كأعمارهم على رأي ابن خلدون. ولاشك أن صمودها وحدها ربع قرن آدَ ظهرها فحنته، وآثرت غفوةً حيناً من الزمان أسوة بالمدن التي غفت.

والحــق أن مرحلة ازدهار حلب في أيام الحمدانيين قصيرة، لم تكن أكثر من برق أصحبَ رعداً وهديراً، ثم عاد فخبا، فكان برقاً خلباً. وسرعان ما تلاحقت عليها الفتن الداخلية، والجيوش الفاطمية، والاحتلالات السلجوقية، والهجمات الغربية، والإغارات المغولية الوحشية... فتراجعت ألــف خطوة بعد قفزة سيف الدولة. ولم تصح من كبوتها الكهفية إلا على نفير الحرية مع ندّاتها من المدن العربية أيام اليقظة القومية الكبرى.

سلاسل التاريخ حول حلب:

تعدُّ مدينة حلب من أكثر المدن العربية حظوةً في التاريخ؛ فقد لاحظت كوكبة من المؤرخين أهمــية المديــنة، فتسابقوا إلى التعريف بها، والتأريخ لها، وتسجيل معالمها وأعلامها، بدءاً من القــرن الخــامس الهجري. ولقد فُقد ، مع الأسف ــ بعض هذه الكتب، وفُقد بعضُ بعضه. لكن مجرد وجود أسمائها دليل على مدى أهمية هذه السلاسل الذهبية.

ومن هذه الكتب:

1 ــ تاريخ الأثاربي: تأليف حمدان بن عبد الرحيم التميمي الأثاربي (483-520)، وأثارب من قرى حلب. وهو أول كتاب في تاريخ حلب على قول ابن الحنبلي.

2 ــ تاريخ العُظيمي: تأليف محمد بن علي التنوخي المعروف بالعظيمي (483-556هــ).

3 ــ معـــادن الذهب في تاريخ حلب: تأليف يحيى بن حميدة الغساني الحلبي، الشهير بابن أبي طيّ (ت 630هــ).

4 ــ بغـية الطلــب فــي تاريخ حلب: لابن العديم (ت 660هــ) وهو كتاب ضخم يعدُّ في أربعين جزءاً، لم يبق منه سوى القليل، وقد طبع طبعة مشوّهة.

5 ــ زبدة الحلب في تاريخ حلب: وهو مختصر للكتاب السابق، وهو مطبوع.

6 ــ الـزُبد والضَّرب: اختصر ابن الحنبلي (ت 971هــ) كتاب الزبدة وأضاف عليه، وقد حققناه وطبعناه في الكويت.

7 ــ حضرة النديم من تاريخ ابن العديم: ألفه ابن حبيب الحلبي (ت 808هــ).

8 ــ تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء: انتحل الطبيب الألماني "بيشوف" جزءاً من كتاب الزبدة، وأضاف عليه ما انتحله من كتب حلبية مغمورة أخرى، وطبعه في بيروت عام 1880 على أنها له.

9 ــ الدرّ المنتخب في تاريخ حلب: لعلاء الدين الطائي الجبريني، والمعروف بابن خطيب الناصرية (774- 843هــ)، والكتاب ذيل على تاريخ ابن العديم.

10 ــ المنتخــب من الدر المنتخب: لأحمد بن محمد الحصكفي، نسبة إلى حصن كيفا، ولد في حلب 937 وقتل في إحدى قراها 1003هــ.

11 ــ كنوز الذهب في تاريخ حلب: تأليف سبط ابن العجمي (ت 884هــ).

12 ــ در الحبب في تاريخ أعيان حلب: تأليف ابن الحنبلي التادفي (908-971هــ).

13 ــ نهاية الأرب في ذكر ولاة حلب: لابن المنلا الحلبي (967-1010هــ).

14 ــ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: نسب الكتاب لابن الشحنة (ت 890هــ) ولأبي اليمــن البتروني (ت1046) وغيرهما. ويذكر الشيخ كامل الغربي أن هذا الكتاب ألّفه مجموعة من المؤرخين.

15 ــ نهــر الذهــب في تاريخ حلب: ألّفه كامل الغزي (1271-1351هــ). وهو مطبوع بثلاثة أجزاء.

16 ــ طــرائف النديم في تاريخ حلب القديم" ألّفه ميخائيل الصقال (1852-1938). وتتمة عنوان الكتاب "ولطائف الحديث في تاريخ حلب الحديث".

17 ـ إعـلام النـبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تأليف الشيخ محمد راغب الطباخ، طبعه في مطبعته بحلب سنة 1342هـ، وأعيد طبعه.

18 ـ أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر: لقسطاكي الحمصي (1858-1941)، وقد ترجم فيه لخمسين علماً، وطبعه 1925.

19 ـ الحركة الأدبية في حلب: ألّفه سامي الكيالي، وقد ضم الأموات والأحياء من 1800-1950، وطبع في القاهرة 1957.

20 ـ حلـب ـ Aleppo: ألّفـه "كاويه" و"يرب" بالألمانية وطبع في ألمانية 1984، ولم يترجم.

21 ـ معادن الذهب في الأعيان المشرّفة بهم حلب: ألّفه أبو الوفاء العُرْضي (993-1071 هـ)، وهـو من تحقيقنا، مطبوع بدمشق 1987، ويعاد طبعه بمناسبة الاحتفاء بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية.

وعشرات من الكتب لا يمكن ضمها في هذا المقال.

صورة سيف الدولة في الرواية المعاصرة

ميريام أنطاكي نموذجاً

د. أسماء أحمد معيكل(*)

تمهيد ***لعل ظهور صورة سيف الدولة في الشعر العربي أمر بدهي؛ ذلك أنه الأمير الحاكم، والفارس المغوار، والمجاهد الفاتح المخصوص بالمديح، فإليه يتوجه الشعراء بمديحهم لتمجيد بطولاته، ونيل عطاياه، ومن هنا فإن الحديث عن صورة سيف الدولة في الشعر أمر شائع؛ أما حديثنا عن صورة سيف الدولة في الرواية فسيبدو مختلفاً بعض الشيء؛ ذلك أن الرواية التي سنقف من خلالها عند صورة سيف الدولة مختلفة أيضاً. فهي رواية ذات طابع خاص لا يمكن تصنيفها في حقل الرواية العربية التاريخية التي كتبها جورجي زيدان وغيره، ولا يمكن تصنيفها في حقل الرواية الأجنبية التاريخية، فلا هي عربية ولا غربية، وربما تقع على الأعراف بينهما.***

"الحبيبة المفضلة" رواية عربية باعتبار النسب، فصاحبتها ميريام أنطاكي ابنة الشام التي تقطن في حلب. وهي رواية أجنبية باعتبار اللغة التي كتبت بها، فقد اختارت صاحبتها أن تكتبها بالفرنسية وتنشرها في باريس، وهنا تنتصب أمام أعيننا أكثر من إشارة من استفهام: لماذا اختارت ميريام أنطاكي أن تكتب رواية عن سيف الدولة؟! ولماذا كتبتها بالفرنسية؟! وماذا أرادت أن تقول للآخر من خلال هذه الرواية؟! وما هو مدى شرعية ما قامت به ميريام أنطاكي؟!

تساؤلات كثيرة تتبادر إلى الذهن أمام هذا العمل الروائي، نطمح إلى الإجابة عنها من خلال هذه الورقة.

وقبل الدخول إلى عالم الرواية، وتقديم دراستنا حولها، لابد من التعريف بكاتبة هذا العمل وأهم مؤلفاتها:

ميريام أنطاكي باعتبار كنية الزوج، أما اسمها الحقيقي فهو ميريام شاوي، ولدت في دمشق سنة 1950، وفي عام 1978 تزوجت من جورج أنطاكي قنصل إيطاليا والبرتغال بحلب، ومنذ أيامها الأولى في حلب، عرفت كسيدة مجتمع مرموقة، لما قامت به من نشاط واسع تناول الحياة العامة، ولما

(*) مدرسة النقد الحديث في جامعة حلب.

بذلته من جهد للتخفيف من آلام المعوزين والمحرومين والمعاقين والمرضى. ولكنها منذ عام 1985، انتقلت من محيطها الحلبي إلى المحيط الأرحب، والأوسع، إلى العالم، وبإحدى أوسع اللغات، أصدرت لها دار "أوربان" باللغة الفرنسية رواية "الحبيبة المفضلة" labien- aimee[1]، التي سنتوقف من خلالها عند صورة سيف الدولة. ثم تلاها مجموعة من الأعمال ذات الطابع التاريخي، أهمها:

- "قوافل الشمس"، les caravans du soleil سنة 1991، رواية عن إيبلا.
- "آيات الغفران"، les versets du pardon سنة 1999، رواية عن فلسطين.
- "تذكر تدمر"، souvies toi palmyre سنة 2003، رواية عن زنوبيا ملكة تدمر.

فكرة موجزة عن الرواية:

تحكي الرواية سيرة أميرة بيزنطية تدعى "إيرين" يفكر والدها في إرسالها إلى حصن خرشنة حيث يقيم أخوالها، مبعداً إياها عن بيزنطة خوفاً عليها من الطاعون الذي تفشى في المنطقة، ويحدث أن تضل قافلة الأميرة طريقها لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام جيوش سيف الدولة الذي كان في حالة حرب مع الروم، ويقضي معظم صحب الأميرة نحبهم، أما هي فتجد نفسها أمام الأمير سيف الدولة الذي تجرأ على التصدي لبيزنطة، والذي كانت قد سمعت عنه الكثير، ولأنها أميرة فقد طلبت من سيف الدولة أن يقتلها مفضلة الموت على الأسر وحياة العبودية، ولكن الأمير الذي لفت انتباهه جمال الأميرة وفتنتها، كان أكبر من أن يعامل الأميرة معاملة الأسرى، ولذلك فقد سألها عن رغبتها في مرافقته إلى قصره لتكون مليكته فيه، وفي البدء تتردد الأميرة قليلاً خوفاً من اختلاف الدين فهي نصرانية، وهو مسلم ولكنها ما تلبث أن تستجيب لرغبته بعد أن تطمئن لحديثه عن النصارى الذين يعيشون في حلب بأمان، ولأنها أدركت أيضاً على نحو خفي انجذابها نحوه ومنذ تلك اللحظة بدأت تنتظره.

لقد كان ذلك اللقاء بعلاقة الحب الحميمة التي جمعت بين الأمير والأميرة، والتي من خلالها نتعرف على صورة سيف الدولة في انتصاراته وانكساراته، في جبروته وضعفه، في تسامحه وأخطائه، نتعرف على سيف الدولة الإنسان الذي يحب ويكره، يصيب ويخطئ، يضحك ويبكي، يحزن ويفرح، سيف الدولة الإنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات. وتسير هذه الأحداث لترسم لنا صورة سيف الدولة في كل حالاته: في أدوار قوته وأدوار ضعفه، في حياته العامة وبلاطه وما يجري فيه من مناظرات وأمسيات أدبية وفنية ومؤامرات تحاك في الخفاء، وفي حياته الخاصة وحبه العميق لياسمين الأميرة الرومية التي أطلق عليها هذا الاسم "ياسمين" بدلاً من اسمها "إيرين" لأنه رأى فيها الطهر وحداثة السن. وإذا كانت الرواية تبدأ بهذا اللقاء بين ياسمين وسيف الدولة، فإنها لا تنتهي إلا برحيل هذا الفارس الأبي بعد أن هده التعب وخذله الأصدقاء، وحاكوا حوله المؤامرات،

---

[1] انظر: مجموعة من المؤلفين أدباء من حلب دار الثريا، حلب ط1، 2004، ص 367 — 368.

وتمكن الروم من دخول حلب والاستيلاء عليها في ذي القعدة من عام 351هـ الموافق لشهر كانون الأول من عام 962م.

رؤيا العالم في "الحبيبة المفضلة":

لعل عنوان هذه الرواية يبدو خادعاً بعض الشيء، فعندما تقع عين القارئ على هذا العنوان لأول وهلة يتبادر إلى الذهن تساؤل مهم عن رؤيا العالم التي تسعى ميريام أنطاكي إلى تقديمها عبر هذا العمل: ما هي رؤيا العالم التي تطرحها الكاتبة في الحبيبة المفضلة؟! ماذا تريد أن تقول للآخر الأجنبي؟! هل تود مداعبة خيال الأجنبي عبر تقديم عمل تشويقي يتحدث عن سحر الشرق وغرائبيته؟!

والحقيقة أن "الحبيبة المفضلة" عنوان يومئ بشيء ويخفي أشياء كثيرة، ولذلك قلنا إنه عنوان خادع، فنحن عندما نقرأ العنوان يخيل إلينا أننا سنخوض غمار رواية عاطفية ساخنة، تقدم لنا عالماً غرائبياً يقترب مما نصادفه في "حكايا ألف ليلة وليلة"، ولا سيما أن هذه الرواية مكتوبة للقارئ الأجنبي الذي تعرف على الشرق من خلال حكايات ألف ليلة وليلة وغيرها، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن هذه الرواية "الحبيبة المفضلة" تسير على الطريق نفسها، بيد أننا لا نستقر طويلاً عند الاعتقاد. فبعد أن نستغرق في القراءة يبدأ أفق توقعاتنا بالانكسار مما يجعلنا نعيد صياغة توقعاتنا الجديدة بناء على التوقعات المعدلة، والذكريات المحولة حتى نتمكن من تفسير المعنى المراد وتقويم الأحداث وإدراكها بشكل صحيح، والتوصل إلى رؤيا العالم الموضوعية التي تسعى الكاتبة إلى تقديمها للقارئ الأجنبي.

إن رؤيا العالم التي تقدمها "الحبيبة المفضلة" تهدف إلى تصحيح الصورة الخاطئة التي ارتسمت في ذهن الآخر الأجنبي حول الإنسان العربي الشرقي عموماً، والخلفاء والأمراء العرب خصوصاً؛ إذ استقرت في أذهان الغرب صورة قاتمة للإنسان العربي: فهو إما أن يكون بدوياً جلفاً متخلفاً يخفي ذيله خلف زيه الشرقي الذي يلبسه، أو أن يكون أميراً عابثاً لاهياً يغوص في الملذات وفي مجالس الشراب محاطاً بالجواري والإماء والمحظيات، مصوراً على أنه حيوان جنسي يفاخر بفحولته ومغامراته الجنسية.

وتأتي "الحبيبة المفضلة" لتقدم رؤيا مختلفة من خلال تسليطها الضوء على حياة الأمير العربي سيف الدولة الحمداني؛ إذ تقدم لنا رؤية موضوعية لسيف الدولة. فهي لا تهدف إلى أسطرته وتقديسه، كما لا تحط من شأنه وقدره بل تقدمه بحيادية وموضوعية في كل حالاته، وعبر الإضاءات التي تقدمها "الحبيبة المفضلة" لحياة سيف الدولة الخاصة والعامة من جهة، ولحياة أعدائه من جهة ثانية تتكشف تلك الرؤيا للعالم وتتبلور، لتقدم لنا إجابة عن تساؤل مهم وهو: كيف نقدم أنفسنا للآخر؟! والحقيقة أن رؤية العالم التي تقدمها "الحبيبة المفضلة" هي رؤية حضارية ثقافية واقعية موضوعية تقدمها كاتبة مسيحية من وجهة نظر بطلة الرواية المسيحية أيضاً، مدافعة فيها عن المبادئ والقيم السامية التي حملتها الحضارة العربية الإسلامية، الأمر الذي يتماشى مع مفهوم الثقافة العربية الإسلامية التي لا تخص المسلمين وحدهم؛ بل تخص كل من أسهم في بنائها، مؤكدة دور

الأخوة المسيحيين أبناء هذه الحضارة وهذه الثقافة في بنائها، والدفاع عنها، وداحضة آراء بعض المتطرفين الذين يكيلون الهجمات ضد هذه الثقافة من منظور طائفي متعصب.

ملامح صورة سيف الدولة كما قدمتها "الحبيبة المفضلة":

منذ الكلمة الأولى في الرواية تبدأ البطلة /الراوي المشارك السرد، لتفتح الذاكرة على مرحلة زمنية ماضية في مرحلة سنية مبكرة، منذ لحظة ولادتها في بيزنطة، والحقيقة أن الراوية في هذه المرحلة لا يمكن أن تمتلك الوعي الكافي الذي يؤهلها لمثل هذا الحكي، وهذا يعني أن الزمن الحقيقي للحكي كان مغايراً للزمن الفعلي للأحداث، عندما انفتحت الذاكرة على مرحلة ماضية ومنتهية، لكن هذا الانفتاح كان مدققاً، يكاد يستوعب الماضي استيعاباً تفصيلياً، يبدأ من لحظة ولادة الراوية، وينتهي باشتداد المرض عليها تمهيداً لرحيلها، وبين لحظة الحياة ولحظة الموت تنتعش أحدا ث زمن ماض. تبدأ الرواية سردها بقولها: "بيزنطة، لم أشهد قط، في حياتي، مثل حسنك وبهائك، أنت البوابة المهيمنة، المشرفة على القارتين القديمتين الحافلتين بمختلف الثقافات والأعراف والعقائد الإلهية... كان مولدي، وأنا أميرة بيزنطية، مسرحاً لجهود حثيثة، فلقد تلقفتني إحدى القابلات بيديها الهرمتين الماهرتين..."،[2].

وتنتهي سردها بقولها: "نظرت إلى سيف الدولة بأسى، وحنان؛ ما أشدّ حبي لــه وتمتمت: ــ نوماً هنيئاً يا حبيبي! ــ ليحمل إليك الفجر سلام الله! وكان سلام الله هو سلام الرب"،[3].

ومن المعروف أن سيطرة ضمير المتكلم، الذي يظهر مع تولي الراوي المشارك لمهمة السرد، يشد الراوية إلى منطقة السيرة الذاتية، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أننا سنقرأ رواية سيرية تحكي لنا سيرة هذه الأميرة البيزنطية، وفي الوقت الذي نتوقع فيه ــ مع سيطرة الراوي المشارك ــ أن نرى سرداً منحازاً تقدم فيه الرواية كل ما ترويه من منظورها الخاص، ورؤيتها الذاتية الداخلية التي تضفي انطباعاتها، ووجهة نظرها على الأحداث والشخصيات؛ تفاجئنا بتخليها عن ذاتيتها، وانتقالها من الخاص إلى العام ومن الذاتي إلى الموضوعي، لتقدم لنا سرداً موضوعياً، ورؤية موضوعية ــ أشرنا إليها في حديثنا عن رؤية العالم ــ ولتتحول عن سيرتها الذاتية إلى سيرة الأمير سيف الدولة، لتقدم لنا أبرز ملامح صورته على كافة الأصعدة: الخاصة والعامة، الداخلية والخارجية، وفي كل الحالات، وفي كل الأماكن. وسنقف فيما يلي بالتفصيل عند تلك الملامح:

1 ــ سيف الدولة المحارب/ سيف الدولة المحب:

تبدو صورة سيف الدولة المحارب في بداياتها قاتمة بعض الشيء، فهو طاغية سفاح، كافر معاد للروم، شرس لا يعرف الرحمة، ويأتي هذا الوصف على لسان بطلة الرواية "إيرين" التي

---

[2] الحبيبة المفضلة: ص 7.
[3] الحبيبة المفضلة: ص 107.

عبرت عن صورة سيف الدولة التي انطبعت في ذاكرتها من خلال ما شاع عنه بين أعدائه، ولعله من البدهي أن يصور العدو عدوه على هذا النحو، ولكن هذه الصورة ستبدأ بالتغير بعد أن تبدأ بطلة الرواية بالتعرف على سيف الدولة عن قرب، لتظهر صورة جديدة لهذا الأمر المحارب لا تمت بصلة إلى الصورة السابقة. فهو ينتمي إلى أسرة تغلبية من الجزيرة الفراتية، وقد وضعه والده ــ الذي كان يتولى ولاية الموصل في عهد الخليفة العباسي المقتدر ــ في عهدة خيرة علماء الموصل لتعليمه مختلف العلوم والفنون، ومنذ نعومة أظفاره عشق الصيد في النهار، وارتجال الشعر في الليل. وقد خاض غمار الحروب مذ كان في الخامسة عشرة من عمره، ومنذ تلك اللحظة بدأت سلسلة من المغامرات والغزوات والحروب والفتوحات التي لم تنته إلا برحيل سيف الدولة، ومن خلالها كانت تتبلور صورة سيف الدولة المحارب الشجاع، والفارس المغوار الذي يمضي من حرب إلى حرب، ومن انتصار إلى آخر، ولأنه كان رجل الحرب الشجاع فقد ملّ حياة القصور وعافتها نفسه، وكان يفضل أن يبقى ممتطياً صهوة جواده، منطلقاً من فتح إلى فتح، على أن يستسلم لحياة الكسل والرخاء داخل القصر. ومع كل الانتصارات التي حققها سيف الدولة ــ فقد هزم الإخشيديين بعد قتال دام ثلاثة أعوام، وفتح حلب وحمص وحماة ودمشق وإنطاكية... وغيرها ــ لم تأسره السلطة، فقد فتح كل تلك البلدان باسم أخيه ناصر الدولة، ولم يكن يسعى إلى تحقيق مجد شخصي، بل كان مهتماً بالمصلحة العامة، ولأن أمير المؤمنين "المتقي" عرف فيه أسمى محارب في الإسلام، فقد منحه لقب "سيف الدولة"،[4].

ولأنه فارس نبيل، ومحارب شهم يتمتع بأخلاق الفرسان، فقد أحاط برعايته الخاصة قائد الروم "قسطنطين فوكاس بن برداس" عندما وقع أسيراً لديه، فقد كان يعوده بنفسه ويعتني به في أثناء مرضه، وعندما جاءه نبأ احتضاره بعد أن سُمّم، أصدر أوامره بإجراء تحقيق عاجل في الموضوع لمعرفة الجاني، وأحضر له أشهر أطبائه "عيسى الرقي الطبيب المسيحي، ورآه يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن عجز الطبيب عن إنقاذه. وعلى الرغم من اكتشافه أن الفاعل كان مدفوعاً من قبل والد قسطنطين "برداس فوكاس" الذي فضل موت ولده على دفع الفدية التي طلبها سيف الدولة، فإن شيمه في الكرم والحلم لم تفارقه، فقد كتب بخط يده كتاباً إلى دمستق المشرق الأعظم؛ أما جثمان قسطنطين فقد تمّ تسليمه إلى سكان حلب من النصارى ليتم دفنه وفق شعائرهم،[5] مقدماً درساً لا يمكن نسيانه في الإخاء والتسامح الديني. تقول الراوية: كان الجثمان ملتفاً بكفن من أفخر أنواع القماش، كما جرت العادة في الإسلام، وموضوعاً في تابوت من خشب الأبنوس المرصع بالشبَه المذهب، وأذيب عليه صليب ذهبي رومي مترامي الأبعاد"،[6].

---

[4] انظر: الحبيبة المفضلة، ص 19 ــ 20 ــ 21.

[5] انظر: الحبيبة المفضلة، ص 67.

[6] انظر: الحبيبة المفضلة، ص 67.

هــذه لمح من صورة سيف الدولة المحارب الفارس المغوار المتسامح كما تقدمها الرواية؛ فماذا عن صورة سيف الدولة المحب؟!

إن سـيف الدولــة المحارب الذي يتمتع بأخلاق الفرسان والنبلاء، والذي يعرف كيف يبذل دمه رخيصـاً فـي سبيل قضيته التي يدافع عنها؛ يتمتع أيضاً بأخلاق العاشق الذي يعرف كيف يبذل دمه فـي سـبيل حبيبته. ولعل من أروع الصور وأكثرها إيحاء ودلالة ما قام به سيف الدولة عندما أبدت حبيبتـه "ياسـمين" رغبتـها فـي ورود حمراء، وعندما جيء بالورود المطلوبة، لم يكن بينها وردة حمـراء فمـاذا فعـل سـيف الدولـة؟! تقول ياسمين: "تناول سيف الدولة من حزامه المصنوع من البروكار خنجره المرصّع وثقب راحة يده، وتساقطت بعض قطرات الدم في الكأس الفضي وغطس أنصع الورود بياضاً، وبحركة بطيئة ولكنها واثقة، قدّمها لي وقد غض طَرْفه".[7]

ولكـن سـيف الدولة الذي يبدو من خلال الصورة السابقة عاشقاً حتى النخاع لا يستسلم لعشقه، ولا يقـع أسيراً لياسمين أو غيرها؛ لأنه يعشق حريته، فهو إنسان حر أبي يسير على مبدأ لكل شيء وقـت... للفـرح وقت وللحزن وقت... للحب وقت وللحرب وقت... للحياة وقت وللموت ووقت... ولا ينسـيه الحب نداء الواجب، ولذلك نجده لا يركن إلى البقاء بقرب ياسمين طويلاً على الرغم من عشقه لها، تقول ياسمين: "لم يكن حبي ليحتجزه طويلاً، لكنه كان يعيده إلي دائماً".[8]

ولأنــه محـب ويعرف أحوال المحبين، فإنه يُعيد الجارية المعروضة للبيع إلى حبيبها الذي كان ينتحـب لأجلها بعد أن يشتريها بمائة دينار بدلاً من الستين ديناراً التي كان يطلبها النخاس فيها قائلاً للـرجل: "لـن أفرق أبداً قلبين متحابّين، هاأنذا أعيد إليك عشيقتك، وليسعد كل منكما بالآخر، وأفيضا من سعادتكما على الآخرين. واحتفظا بالدنانير، فهي ستساعدكما في حبكما".[9]

هــذه هـي صـورة سيف الدولة المحارب، وصورة سيف الدولة المحب كما تصورها ميريام أنطاكي في روايتها، صورة ناصعة مشرقة تفيض بالشجاعة والشهامة والتسامح والمحبة والإنسانية.

2 ـــ سيف الدولة الأمير / سيف الدولة الإنسان:

لــن نتوقف عند صورة سيف الدولة الأمير لأنها مطابقة لما عُرف عنه وشاع من حبه ورعايته للعلمـاء والأدبـاء والفلاسـفة والفقهـاء والمفكرين والشعراء والفنانين؛ إذ انتعشت الحياة الفكرية والأدبية في بلاطه.

أمـا صـورة سيف الدولة الإنسان فلها شأن آخر، فقد صورت الرواية سيف الدولة في حالات إنسـانية مـتعددة، ولن نتوقف عند الصورة المضيئة التي تصور سيف الدولة في حالات انتصاره،

(7) الحبيبة المفضلة: ص 24.
(8) الحبيبة المفضلة: ص 70.
(9) الحبيبة المفضلة: ص 96.

وعودتــه مزهواً مكللاً بالنصر؛ ولكننا نود التوقف عند صورة سيف الدولة في بعض حالات ضعفه وانكســاره واعترافه بأخطائه. وقد ظهرت هذه الصورة وتبلورت من خلال حادثة "مغارة الكحل"؛ إذ وقــع سيف الدولة مع جيشه في الشرك الذي نصبه لــه جيش الروم في الخامس عشر من رمضان ســنة ثلاثمائة وتسع وأربعين للهجرة، الموافق للثامن من تشرين الثاني سنة تسعمائة وستين للميلاد، بعــد أن تعصــب سيف الدولة لرأيه رافضاً الاستماع إلى نصح قادته وتوسلاتهم مأخوذاً بانتصاراته المؤزرة، وبعد انتهاء المجزرة التي كانت الخسائر فيها فادحة، والهزيمة مفاجئة؛ إذ تم تحرير أسرى الــروم، واســتعيدت الغنائم، وبقي الجيش المظفر يرقد في نهر من النار والدم، فقد تم ذبح العديد من كــبار رجــال ســيف الدولــة، ووضعت القيود في أيدي الكثير من الآخرين الذين ساروا في طريق العبودية والمنفى،[10].

وتســتنطق الكاتبــة ســيف الدولة لتجعله يروي لنا ما حدث في مغارة الكحل، معبراً عن يأسه وحزنه وندمه يقول: "حين رأيت رجالي المحاربين البواسل يقعون في الشرك الذي نصبته لهم مكيدة لــيون فوكــاس، اجتاحني الأسى،... كان يأسي عاجزاً، ويا للأسف، مترعاً بالندامة، فكل أصدقائي يدفعــون ثمــن عــنادي الأحمق، ماتوا في سبيلي، في سبيل كبريائي الذي لا يُحتمل، لم يكن لدي ما أمنحهم إياه، ساعة احتضارهم القاسي، سوى الأنين المر، والندامة التي لا حصر لها"،[11].

ويحــدث أحــياناً أن يستفيق داخل سيف الدولة شعور بالسخط على أخيه ناصر الدولة لما تكبده مــنه مــن ألوان المذلة والمهانة، ولكن وفاءه لــه وإخلاصه وحبه يجعله يتجاوز عن أخطائه مركزاً علــى مــبدأ الوفاء، يقول: "الوفاء، يا ياسمين، ينطلق من الصدق الذي يحمله المرء في نفسه وتجاه نفسه، لو تنكرت لأخي، لتنكرت لقومي،..."،[12].

ويعــترف ســيف الدولة أيضاً بأنه كان مقصراً في بعض الأمور، فهو لم يدرك إلا مؤخراً دور البحر الحيوي، ولذلك فقد أهمل، على مدى الزمن، تشكيل الأسطول.

وســيف الدولــة الإنســان يحب ويكره أيضاً وينتقد الآخرين، فها هو يعبر عن كرهه لشخص المتنبــي علــى الــرغم من تقديره لعبقريته، مقدماً رأيه فيه، يقول: "ليس المتنبي، وهو أكثر شعراء بلاطــي تألقــاً، سوى متملق خسيس. ولد معه فن الكلمات وموسيقا القوافي، أحب عبقريته، ولكني لا أحب شخصه، إنه ينتمي إلى من يدفع أكثر... بيد أن شعره هو الأكثر جزالة في أسلوبه..."،[13].

ولا تنسى الكاتبة في رسمها لصورة سيف الدولة الإنسان أن تقف عند تأثره وحزنه على رجاله الذيــن وقعــوا في الأسر، ولا سيما ابن عمه، يقول سيف الدولة: "أما أبو فراس، شاعري وصديقي

---

[10] انظر الحبيبة المفضلة: ص 75 ــ 76.
[11] الحبيبة المفضلة: ص 78.
[12] الحبيبة المفضلة: ص 106.
[13] الحبيبة المفضلة: ص 29.

وأخـي فهـو أسير في سجن مظلم رطب. كنت أحسبه ميتاً، ولكن الله حفظه ليصون جزءاً من تلك الكـتلة من المشاعر وتلك العذوبة في الألفاظ... سأعلن عن فدية باهظة كي يعود إليّ..."[14]. ويبدو أن الكاتـبة كانت تهدف إلى تبرئة أميرها سيف الدولة من التهمة التي ألصقت به حول كرهه لقريبه أبي فراس[15].

إن الصـورة السابقة لسيف الدولة الإنسان في مختلف حالاته، لا تهدف إلى الانتقاص من قدره، ولا التقليـل مـن شأنه، بل على العكس تماماً تعطي العمل بكامله مصداقية أكبر وقدرة على الإقناع؛ لأن سـيف الدولـة في النهاية ليس إلهاً، ولا ملاكاً، ولا نبياً معصوماً عن الخطأ، وليس إنساناً خارقاً أو أسـطورياً، بـل هو إنسان حقيقي من لحم ودم، من جنس البشر، ومن الممكن أن يعتريه كل ما يعتري البشر من حالات.

كلمة أخيرة:

لقـد اسـتطاعت ميريام أنطاكي أن تقدم صورة مشرقة وموضوعية لسيف الدولة عبر "الحبيبة المفضـلة"، مخاطبة الآخر بلغته ليعرف حقيقتنا التي تعمل الصهيونية والإمبريالية بكل وسائلها على تشويهها.

وقـد حركت ميريام أنطاكي النقد الفرنسي طويلاً، بعد أن اكتشف النقاد أن في سورية من يتقن اللغـة الفرنسـية ويجـيد التعبير بها بأرقى الأساليب، ورأى بعضهم أن "الحبيبة المفضلة" ترقى إلى قصص الحب العالمي كـ "روميو وجولييت"[16].

وبهـذا تكـون ميريام أنطاكي قد استهلت ـــ مع غيرها من الذين يكتبون بهذه الطريقة ـــ خطاً مثمراً في طريقة تقديم أنفسنا للآخر، ولا سيما في هذه المرحلة الحرجة التي نواجه فيها الضغوطات مـن كل جانب، والتي تتضافر فيها كل الجهود لتشويه صورتنا والقضاء على هويتنا من أجل تحقيق أهـداف أمـريكة وإسـرائيل؛ الأمـر الذي يتطلب منا العمل المضاعف على كافة الأصعدة وبشتى الوسائل والأساليب.

ـ المصادر والمراجع:

1 ـــ أدباء من حلب: مجموعة من المؤلفين، دار الثريا، حلب، ط1، 2004.

2 ـــ الحبيبة المفضلة: ميريام أنطاكي، تر: هشام حداد، دار طلاس، دمشق، ط1، 2000.

[14] الحبيبة المفضلة: ص 79، وانظر: ص 82.

[15] انظر: المرجع السابق. ص 373.

[16] انظر: المرجع السابق. ص 371.

سيف الدولة
بين الثقافة العسكرية والأدبية

أ. د.بكري شيخ أمين (*)

***حمدا** لله رب العالمين، وصلاة وسلاما على أفصح العرب أجمعين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى جميع أنبيائه الكرام إلى يوم الدين. وبعد:*

فإنه لشرف كبير لمدينة حلب ــ عاصمة الثقافة الإسلامية هذا العام ــ أن تحييَ سيرةَ رجالها الغُرّ الميامين الذين قدموا للتاريخ والعالم روائعَ وآثاراً لا تزال خالدة مع الدهر، وأن تَجمعَ في ربوعها جهابذةً من العلماء والأدباء كسالف عهدها في الأيام الخوالي.

فباسم واسم كليتي واسم أبناء حلب ــ المدينة المباركة ــ أحيي اللجنةَ المشرفةَ على هذه الندوة، والإخوةَ الضيوف الذين تفضلوا بالحضور مشاركين وباحثين، والمسؤولين الذين ما فتئوا يسعَون إلى رفع شأن هذه المدينة المباركة، ويُعطون من قدْرها.

وإذا كنتُ قد وصفت حلب بالمدينة المباركة فليس لكوني أحدَ أبنائها فحسب، وإنما ارتكزتُ على حديث نبوي شريف أخرجه الإمام الترمذي في سننه، والحاكمُ النيسابوري في مستدركه، والبخاريُّ في تاريخه الكبير، والذهبيُّ في ميزان الاعتدال، وابنُ حَجَر في فتح الباري، والمزي في تهذيب الكمال، ونصه: (عن أبي زُرعةَ بن عمرو عن جرير رفعه أنَّ النبي ﷺ قال: [إن الله أوحى إليَّ: أيَّ هؤلاء البلاد نزلتَ فهي دارُ هجرتك، المدينةَ أو البحرين أو قِنَّسْرين]. وعقَّب الحاكم في المستدرك بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد. أقول: أليست نِسْرينُ اليوم حياً من أحياء حلب، وجزءاً منها؟

إضافة إلى ذلك أقول: حدثني رجل صالح مبارك، آتاه الله علماً وفضلاً وكشف عن بصيرته، وكنا أمام تكية أبي الهدى الصيادي على طرف من أطراف قلعة حلب، قال: وأشار إلى التكية: من هذه النقطة إلى حدود باب القلعة مشى أبو الأنبياء إبراهيمُ الخليل وشيخُ الأنبياء زكريا عليهما السلام. كذلك حين زار حلبَ شيخُ المحدثين في بلاد الشام الشيخ بدر الدين الحسني وتلامذته ساروا حفاة في المنطقة المذكورة احتراماً وإجلالاً.

(*) عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو اللجنة العالمية للغة العربية.

أفلستُ على حق حين أصف هذه المدينة الطيبة بالمدينة المباركة؟

حضرات السيدات والسادة!

إذا كنا اليوم نُحْيي ذكرى سيف الدولة الحمداني الذي رفع شأنَ حلب، وخلَّد اسمَها، فواجبٌ كذلك أن نذكرَ أن سيف الدولة لم يكن إلا واحداً من السيوف والشموس التي سطعت على هذه الأرض الطيبة، بل لا تزال تسطع وتمشي على بطحائها، تنير للعالمِ الظلمات، وتقدم للبشرية أطيبَ الجنى.

سيف الدولة في بضع سنوات من عُمر الزمان فعل الأساطير، وسجَّل البطولات، وحقق ما يشبه المستحيل. وقد يسأل سائل: كيف استطاع هذا السيف أن يبني هذا المجد، ويكون كالأسطورة في هذا الزمن القصير؟ ما سر عبقريته وما مفتاح تلك الأسطورة؟

***

وتتحدث كتب التاريخ والأدب فتقول: كان عربياً خالصاً من نسل بني حمدانَ الذين يقول فيهم الشاعر:

للهِ دَرُّ بني حمْدانَ ما نسَلوا ... من الأكارم ما قد تَنسل العَربُ

وكان بنو حمدان ــ كما يقول الثعالبي ــ ملوكاً وأمراءَ، أوجهُهم للصباحة، وألسنتُهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولُهم للرجاحة. ويقول آخر عنهم: بنو حمدان هم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمعُ بين أدوات السيف والقلم، وما منهم إلا أديب جواد، يحب الشعر وينتقده، ويثيب على الجيد منه؛ لذلك انبعثت قرائحهم في الإجادة، فقادوا محاسن الكلام بألْيَنِ زمام، وأحسنوا، وأبدعوا ما شاؤوا.. وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم، وكان ــ رضي الله عنه وأرضاه ــ غرةَ الزمان، وعمادَ الإسلام، ومَن به سدادُ الثغور، وسَدادُ الأمور.

تقول الروايات: كان سيف الدولة جميلاً جداً، له مهابةُ العربي الأصيل، وسماتُ القائد الناجح: شجاعةٌ إلى حدِّ التهور، وكرمٌ إلى درجة الإسراف، ونفسٌ لا ترضى إلا بمعالي الأمور، وعاطفةٌ متأججةٌ تغضب إلى درجة الحريق، وترضى إلى حد الخنوع والشكعة بين يدي الحبيب.

سيف الدولة ــ كما يقول صديقنا الدكتور مصطفى الشكعة ــ رمزٌ للعربي الذي لا يعرف لليأس لوناً، ولا للهزيمة طعماً. وليس معنى ذلك أنه لم يُهزم في حياته، ولم يُصدَم خلال نضاله، بل لقد هُزم مرات، وانتصر مرات، ولكن ناحية العظمة في هذا الأمير العربي أنه كان في انتصاراته وانكساراته يتصرف تصرفَ العظماء، فلم تغرَّه الانتصارات حتى ينام على أمجادها، ولم يكن الانكسار ليَفُتَّ في عضده، أو يُدخلَ اليأسَ إلى قلبه، فيتهاوى شلواً دون حراك. لقد كانت الهزيمة تدفعه دفعاً ليجدد شباب جيشه الذي لا يلبث أن ينطلق به إلى أرض الأعداء من جديد، يغزوهم في عقر دراهم، ويؤدبهم، ويوقع بهم الهزيمة، على الرغم من الفرق الشاسع بين صغر مملكته وضخامة إمبراطورية عدوه، وقلةِ عَدد جيشه وكثافة جيش خصمه، ولكنه بإيمان الشرفاء، وشرف الأمناء..

يواجه أقوى قواد الدولة البيزنطية، ويوقع بهم الهزيمة تلو الهزيمة، مدخلاً في رَوْع جنوده ألا مفرَّ من أحد أمرين: النصرِ أو الشهادة.

وفي نطاق هذا المبدأ الحاسم استطاع سيف الدولة بجيشه الصغير ومملكته المتواضعة أن يحمي الدولة الإسلامية من الخطر الذي كان يتهددها من جانب البيزنطيين، ذلك الخطرُ الذي استفحل فيما بعد، وأصبح يُعرف باسم حروب الفرنجة، أو الحروب الصليبية.

حضرات السيدات والسادة:

لعل الفترة العصيبةَ التي نعيشها اليوم في صراعنا مع العدو الصهيوني تدعونا أن نقرأ سيفَ الدولة قائدَ العرب وأميرَ حلب وسيدَ الشجعان من بني حمدان قراءة جديدة، وعلى نحوٍ معيَّن، فقد تصنع هذه القراءة شيئاً ما في حياتنا المعاصرة، وتبعثُ في مجتمعنا الأملَ في النصر، والغلبةَ في الصراع، وتعلِّمنا أننا حين كنا قلةً غلبنا الكثرة، فما أحرانا ـ ونحن اليوم كثرةٌ، وأصحابُ حق ـ أن نقهر قلةً تعيش على باطل، وسيكون النصر ـ بإذن الله وعونه ـ محققاً، ما دمنا مؤمنين بحقنا، وما دام الدم العربي يجري في عروقنا.

أيها السادة!

ليس من شك في أن أسبابَ رقيِّ العلوم والآداب في عصر سيف الدولة، وفي بَلاطه بشكل خاص، تلك السماحةُ النادرة، والعطاءُ الكبير، والكرمُ الذي يخلعه سيف الدولة على علماء زمانه وأدباء بَلاطه وعصره، فكانوا كلما جوَّدوا ازدادت عطاياهم، وكلما أحسنوا نالوا المزيد من أميرهم.

وتاريخ الحضارات في جميع أرجاء العالم يُظهر لنا أن الأممَ لا ترقى ولا تنهض، ولا يرتفع لها ذكر إلا إذا كان العلماء فيها معزَّزين مكرَّمين، ميسَّراً لها سُبُلُ العيشِ الكريم والأمنُ والسلام، أما إذا كان همُّهم محصوراً في تأمين لقمة العيش لهم ولأسرهم، أو مضيَّقاً عليهم في رزقهم وحياتهم.. فلا علمَ، ولا تقدمَ، ولا حضارة، ولا خلود ذكر. وبشِّرْ تلك الدولةَ بالانهيار والموت السريع، والزوال المحتم، والنسيان الأبدي.

***

إن شاعراً من شعراء سيف الدولة هو ابن نباتة السعدي ضاق ذرعاً بكرم الأمير وكثرة عطاياه فقال:

قد جدت لي باللُّها حتى ضجرتُ بها ... وكدتُ من ضجَري أُثْني على البَخَل

إنْ كنت ترغبُ في بذل النوال لنا ... فاخلُقْ لنا رغبةً، أو لا، فلا تُنِل

لم يُبقِ جودُك لي شيئاً أؤمِّلُه ... تركتني أصحبُ الدنيا بلا أمل

كـان يحـب العلم والعلماء، ولقد جعل قصره ينافس قصور بغداد، حتى إن مكتبة قصره حوت مـن النفائس ما لم تحوه أي مكتبة في عصره وفي مكان آخر. وكان أمين مكتبته أبا بكر الصنوبري، ومـن بعـده تولاهـا الشاعران الأدبيان أبو بكر وعثمان الخالديّان اللذان قدما للمكتبة العربية بفضل وظيفتهما في المكتبة عدة كتب، منها: كتاب الديارات، وحماسة الخالديين، والمختار من شعر بشار.

وكثـيراً ما كان الأمير يستفسر من علماء اللغة المحيطين به عن مسائل بعينها، فينطلق الجميع في أرجاء المكتبة باحثين منقبين حتى يُمدّوه بما طلب من معلومات.

***

في الحق **كان سيف الدولة مثقفاً بثقافتين: ثقافة عسكرية وثقافة أدبية.**

أمـا **الـثقافة العسكرية** فلا جدالَ في أنها كانت عميقةً وشاملةً، وهي التي خلّدت بطولاته مع الزمـن. كان يعرف كيف ينظم جيشه، ويوزع أجزاءه، وكيف يكرّ أو يفرّ، وكيف ينتصرُ أو ينهزم.. وإنهـا لـثقافة جديرةٌ بالإعجاب والتقدير، دُهش لها أبناءُ عصره، وعبّروا عن دهشتهم بها وإعجابهم بقصائدَ ومؤلفاتٍ خالدات..

ويَخطـر فـي الـبال عند الحديث عن هذه الثقافة السيفُ الآخر الذي دعاه النبي ﷺ بسيف الله المسـلول خـالد بـن الولـيد.. لـم يتحدث التاريخ عن ثقافته الأخرى بمثل ما تحدث عن عبقريته العسـكرية، وبطولاتـه الخارقـة، حتى قد صارت مادة دراسية مقررة في معظم المعاهد العسكرية العالمية.

***

أما الحديث عن الجانب الثاني من **ثقافة سيف الدولة، ونعني بها: الثقافةَ الأدبيةَ** فقد اجتمع له فـيها أسباب قولُ الشعر، فجاء شعرهُ عذباً جميلاً، حتى إن بعض المستشرقين ذكر أنه لم يكن يماثلُ شـعرَ الأمـير الحمدانـي رقـةً وعذوبةً سوى شعراء Troubadours de la provence أو شعرَ اللانجدوك languedoc.

هـذا الأمـير كـان أديـباً بفطرته، وقد نمّى هذه الهوايةَ بتلمذته على ابن خالويه الذي كان يُعد مـؤدبَ أمراء بني حمدان، كما يذكرون أن معلمه الثاني أبو سهل بن محمد الكاتبُ النحويُّ الظريف، ومطـربَه الفيلسـوفُ والموسـيقى أبو نصر الفارابي، وطباخَه الشاعرُ كُشاجم، وخزانَ كتبه ــ كما ذكـرنا ــ الشـاعران الخالديـان، وشـعراءَه المتنبـي، وأبو فراس، والسُّلامي، والوأواء الدمشقي، والبَبْغاءُ، والناميُّ، وابنُ نُباتة السعدي.

إضـافة إلـى كـل هـذا الجو العابق بالفن والعلم والأدب كانت ندوته سبباً في صقل كثير من المواهب الشعرية، وكان في مقدمة خريجيها أبو بكر الخوارزمي شيخ نيسابور وأبو الحسن علي بن عـبد العزيـز الجرجانـي، صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وابنُ جني، وأبو الطيب

اللغوي، وأبو علي الفارسي. إذن ثقافةُ سيف الدولة الفنية تجمعت من أرومته العربية الأصيلة، ومن الفطرة الشاعرة لدى بني حمدان قاطبةً، ثم من مؤدبيه ومعلميه، ثم من هؤلاء العلماء والشعراء الكبارِ الذين ضمهم بَلاطه وندواته.

***

وتروي المصادر أن له عدداً من المقطوعات الشعرية، لا تشكل بمجموعها ديواناً، وإنما هي خطَراتُ نفس، ونفثاتُ وُجْدان.

من ذلك قولُه في جارية رائعة الحسن والجمال بنت أمير بيزنطي، كان أسرها في إحدى المعارك، وهام بها حباً، فحسدنها نسوة القصر، ودبَّرنَ لها أمراً بليل ليتخلصن منها بسمٍ أو سواه، فبلغه الخبر، فنقلها إلى أحد الحصون، وقال:

راقبتْني العيونُ فيكِ فأشفقـ ـتُ، ولم أخْلُ قطُّ من إشفاقِ
ورأيتُ العذولَ يحسدني فيـ ـكِ مجداً يا أنفسَ الأعلاقِ
فتمنيتُ أن تكوني بعيداً والذي بيننا من الودِّ باقِ
رُبَّ هجْرٍ يكون من خوفِ هجْرٍ وفراقٍ يكون خوفَ فِراقِ

وروى ابن خالويه من شعر أميره قوله:

تجنَّى عليَّ الذنبَ، والذنبُ ذنبُه وعاتبني ظلماً، وفي شقه العَتَبُ
وأعرضَ لما صار قلبي بكفه فهلّا جفاني حين كان لي قلبُ
إذا برم المولى بخدمةِ عبدِه تجنَّى له ذنباً وإنْ لم يكن ذنْبُ

وروى أبو الحسن العلوي الهمداني قال: أنشدني سيف الدولة لنفسه:

أقبِّلُه على جزعِ كشربِ الطائرِ الفزِعِ
رأى ماءً فأطمعه وخافَ عواقبَ الطمعِ
وصادفَ فرصةً فدنا ولم يلتذَّ بالجُرَعِ

وروى ابن فارس قال: أنشدني المتيم لسيف الدولة:

قد جرى في دمعه دمُه فإلى كم أنت تظلمُه
رُدَّ عنه الطَّرفَ منك فقد برحَتْه منك أسهمُه
كيف يسطيع التجلُّد مَن خطَراتُ الوهمِ تؤلمُه

ويروي غير واحد أبياته في أخيه ناصر الدولة عند وحشة جرت بينهما:

لست أجفو وإنْ جفوت ولا أتـ ـرك حقاً عليَّ في كل حال
إنما أنت والدٌ والأب الجا في يجازَى بالصبر والاحتمال

***

لم يقف الأمر بالأمير الشاعر عند قول الشعر فحسب، بل كان ذا ملَكة نقدية شديدة الحساسية، تُفرّق بين الغث والسمين، والجيّد والرديء، وكم كان يعترض على شاعر كلمة في غير موضعها، فيبين له وجه الحق في مكانها الصحيح كما فعل مع الخالديين يوم أهداهما وصيفة ووصيفاً وجملة ثياب مصرية رفيعة وبَدرة من المال، فنظم أحدهما أبياتاً في شكر الأمير.. وما قال فيها:

لم يغدُ شكرك في الخلائق مطلقاً إلا ومالُك في النوال حبيس
خوّلتنا بَدراً وشمساً أشرقت بهما لدينا الظلمة الحنديس
رشأ أتانا وهو حسناً يوسف وغزالةٌ هي بهجةً بلقيس
أتت الوصيفة وهي تحمل بَدْرةً وأتى على ظهر الوصيف الكيس
وبررتنا مما أجادت حوكَه مصرٌ وزادت حسنَه تنّيس
فغدا لنا من جُودك المَأ كولُ والمنكوحُ والملبوس

وصحيح أن الأبيات أعجبت الأمير لبساطتها ورقتها وخفة دمها، لكنه اعترض على كلمة (المنكوح) إذ ليست لائقة بما يخاطب به الملوك.

ومدحه رجل فقال في تشبيهه وتشبيه أعدائه:

وكانوا كفأرٍ وسوسوا خلفَ حائطٍ وكنتَ كسِنَّورٍ عليهم تسقَّفا

فغضب، وأمر بإخراجه من حضرته، فخرج الرجل، ووقف على الباب يبكي، فأُخبر سيف الدولة ببكائه، فأمر برده وسأله: ما يبكيك؟ قال: قصدت الأمير بكل ما أقدر عليه أطلب بعض ما يقدر عليه، فلما خاب أملي بكيت. قال سيف الدولة: ويلك! فمن يكون له هذا النثر يكون له مثل ذلك النظم، وكم كنت أملت؟ قال: خمسمائة درهم. فأمر له بألف.

ويروى أنه سمع السَّريَّ الرفّاءَ يعتب عليه كثرة حبه لأبي الطيب المتنبي، وشدة حماسته له، فقال: أشتهي من الأمير أن ينتخب لي قصيدة من غرر قصائد المتنبي لأعارضها، وآتي بأحسن منها، ليتحقق الأمير أنه أركب المتنبي في غير سرجه. فقال سيف الدولة على الفور: عارض لنا قصيدته التي مطلعها:

لعينيكِ ما يَلقى الفؤادُ وما لقي وللحبِّ ما لم يَبق مني وما بَقي

يقول السري الرفاء إنه كتب القصيدة، واستعادها تلك الليلة كثيراً، فلم يجدها من مختارات سيف الدولة، ولكنه لاحظ أن المتنبي قال فيها عن سيف الدولة:

إذا شاء أن يلهوَ بلحية أحمقٍ أراه غباري، ثم قال له: الحَقِ

فقال: والله ما أشار الأمير إلا إلى هذا البيت. وأحجم عن معارضة القصيدة، وتاب عن ذم الشاعر في غيبته.

***

وتروي معظم كتب تاريخ الأدب مناقشة سيف الدولة لأبي الطيب المتنبي لبيتيه اللذين خاطب فيهما سيف الدولة ووصفه في معركة الحدث وهما:

وقفتَ، وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهُك وضّاحٌ وثَغرُك باسِمُ

قال الأمير: قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على امرئ القيس بيتاه:

كأنيَ لم أركبْ جواداً للذةٍ ولم أتبطَّن كاعباً ذاتَ خلخال

ولم أسبأ الزّقّ الرويَّ، ولم أقل لخيليَ: كُري كَرّةً بعد إجفال

لنقف لحظة عند هذه المناقشة، ونتبين ماذا أراد سيف الدولة، وماذا قصد المتنبي؟

الموضوع يتصل بما يعرفه البلاغيون بـ (مراعاة النظير)، وهو موضوع أساسي في البلاغة، وعنصر بارز في أسلوب العرب الفصحاء، بل هو مطلوب في أساليب الدنيا على مختلف لغاتها، وقد عرفه العلماء العرب بقولهم: أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً وما يناسبه مع إلغاء التضاد لتخرج المطابقة.

إن الجمع بين الكلمات المتناسبة، أو المعاني المتقاربة، أو بين الكلمات والمعاني المتآلفة أمر أساسي في كل كلام، سواء أكان شعراً أم نثراً، وسواء أكان حديثاً في الأدب أم في العلم أم في الحديث العادي الذي يدور بين الناس.

ومن هذا المنطلق وقف كثير من الشعراء والنقاد ينتقدون من خرج على هذه القواعد، وكتب البلاغة والنقد فياضة بالشواهد.

سيف الدولة ذو حس مرهف، أراد مراعاة النظير في بيتي امرئ القيس والمتنبي، وكأنه كان يتمنى ــ مع النقاد ــ أن لو قال امرؤ القيس بيتيه على الصورة التالية:

كأنيَ لم أركبْ جواداً ولم أقُل لخيليَ: كُرّي كَرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزّقّ الرَّويَّ لِلَذَّةٍ ولم أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خَلخال

هذه الأمنية التي تبناها سيف الدولة تحقق مراعاة النظير بين معنى الشطر الأول والشطر الثاني في كل من البيتين؛ فركوب الجواد يناسبه الحديث عن الخيل، وشراء الخمرة للضيوف وشربُها

يناسبه ملاعبةَ الكاعب ذات الخلخال، بينما الشاعر الجاهلي قرن ركوب الخيل بملاعبة الكاعب، وشرب الخمرة بمخاطبة الخيل؛ وذلك ما اعترض عليه القدماء ووافقهم سيف الدولة.

كذلك الأمر في بيتي المتنبي، أراد سيف الدولة أن يقرن الشاعر بين وقوفه في ساحة المعركة بافترار ثغره، وبين هرب الأبطال بهزئه بالموت، وهذا لعمري منطق سليم، وملاءمة كل شطر لنظيره.

لكن أبا الطيب كان من رأي آخر، ومن مدرسة ثانية، أو من عالم آخر. قال المتنبي: أدام الله مولانا، إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلمُ منه بالشعر، فقد أخطأ امرؤ القيس، وأخطأت أنا. فكأنه بهذه العبارة يقول له: إن الذي انتقد امرأ القيس وانتقدني لا يعلم ما نعلم؛ وتابع المتنبي شرح وجهة نظره فقال: ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز كما يعرفه الحائك، لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاصيله، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية.

وراح المتنبي يشرح وجهة نظره في ترتيب أبياته وأبيات سلفه الجاهلي، فقال: إنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء. وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عابساً، وعينه دامعة، قلت: "ووجهك وضاح وثغرك باسم" لأجمع الأضداد في المعنى..

***

إذن الخلاف بين مدرستين في النقد؛ أولاهما تفضل السهولة والبساطة وعدم التعقيد، وملاءمة النظير لنظيره في الظاهر، والثانية تغوص في الأعماق، فتركب مركب التضاد، إيماناً بالمثل القائل: "والضد يظهر حسنه الضد".

وتنتهي المحاورة بقبول سيف الدولة وجهة نظر المتنبي، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات، وهي تساوي خمسمائة دينار.

***

من هذه الروايات نستنتج أن سيف الدولة عدا كونه بطلاً من أبطال العروبة والإسلام كما يتمتع بثقافة أدبية رائعة، كما كان ذا ملكة نقدية رفيعة المستوى، وأنه كان أميراً بحق، استحق بجدارة إمارة حلب. وحلب لا تقبل أن يتأمر فيها من هو دون سيف الدولة؛ لأنها مدينة مميزة ومباركة في هذا العالم.

الذوق الحلبي في التراث الشعبي

الرجل أنموذجاً

د. محمد حسن عبد المحسن(*)

تحت القناطر الحجرية، وبين الأكشاك الخشبية، ومع هديل يمامة وادعة في صحن الدار قرب خرير الماء، وثمار الكباد تتلألأ ذهباً براقاً تحت أشعة النهار، وتفوح أرجاً ومسكاً مع أنسام الليل، كانت الأسرة الحلبية تنطوي على أسرار الوفاء، وهمسات القربى، تتوارثها أصالة ولدت مع فجر التاريخ، واستمرت مع دورة الزمان، تنقش زخرف الآداب، وتنقل أزاهير المعارف، تنغرس في النفوس كما تنغرس الأشجار في تراب الخلود.

على أن الدفء أهم ما يميز العلاقات الأسرية في البيت الحلبي بين الجد والجدة والأب والأم والأولاد والحفدة، والصلات الحميمة من أبهج الأمور في الحياة الشعبية الحلبية؛ يسعد الأجداد بالآباء والحفدة، ويجل الأبناء والحفدة الكبار ويحتفون بهم.

ويعلم كبير العائلة الصغار ما توارثوه من عادات وتقاليد وأعراف ومأثورات شعبية ومخزون ثقافي وديني، شفاهة حيناً، وممارسةً أحايين أخرى، حتى حرفته يلقنهم إياها ويدربهم عليها. ويعتزّ الصغار بما يرثونه من الكبار أيما اعتزاز، ويفخرون بانتمائهم لأسرتهم، ويعتدون بحرفهم التي اكتسبوها من آبائهم، والتي اشتهرت بها العائلة، وكثيراً ما انتسبوا إليها وتكنوا بها.

وإذا ما أهملنا تلك العلاقات وهذه الصلات في عيشنا المشترك بمختلف طوائفنا وفئاتنا؛ في حوارينا العتيقة وفي أحيائنا المتلاصقة فهذا يعني أننا نهمل كل الأشياء الجميلة في حياتنا.

واسمحوا لي أن نلامس أحوال الرجال الحلبيين من خلال المأثورات الشعبية الحلبية التي أخشى ما أخشاه أن يعتورها النسيان وتبددها الأيام.

(*) أستاذ في جامعة حلب.

لماذا التراث الشعبي؟

أوّل ما يتبادر إلى الذهن عند التراث الشعبي أنه تراث لا علاقة له بالنخبة؛ فهو للعامة وحسب لا يتعداها إلى علية القوم. ولكنا إذا أنعمنا النظر، وأعملنا العقل، وجدنا أن هذا التراث الشعبي يتماهى في حضارة الأمة، وعليه يقوم الكثير من إبداعها الفكري، كما يعد خير مرآة تنعكس عليها مختلف نتاجات مبدعيها.

من هنا نستطيع القول: إن التراث الشعبي من أهم مصادر الفكر الجمعي؛ ذلك الفكر الذي تخلص من تعقيدات المنطق، وتحرر من تنظيرات الإيديولوجيات. وإذا كان التنظير يعتمد العقل المحلل والمعلل، فإن التراث الشعبي هو صورة تعكس الحياة الثقافية والاجتماعية والنفسية والروحية والذوقية للأمة، وبذلك يكون التراث الشعبي فكر المجتمع لا تنظيرات الأفراد، وبالتالي هو الفكر الأصيل لا المصطنع، الفكر الناتج عن طبيعة الإنسان الصافية، يتجلى فيه تسامي الأمة على أحسن وجه. التراث الشعبي هو المخزون الثقافي والمعرفي للأمة جمعاء، يتجلى فيه الوعي فناً بمختلف أنواعه المادية وغير المادية؛ فهو يتبدى في تلك المنازع الإنسانية المتغلغلة في شرائح الشعب جميعها، سواء انتمت هذه الشرائح إلى العامة أم إلى الخاصة.

من هذا المنطلق مثل التراث الشعبي ــ ولا يزال ــ صورة الشعب الصادقة، العاكسة لعقله وقلبه وروحه وحسه وذوقه معاً. وهو في ذلك يعبر عن ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها أصدق تعبير.

الرجل الحلبي في المأثورات الشعبية

الرجل، جدٌّ وأبٌ وعمٌّ وخال وأخٌ وصهر وعديل وقريب وصديق... هؤلاء جميعاً أعمدة أسرهم، يعول عليهم في مجتمعنا الشرقي في كل ما يتعلق بشؤون العائلة إلى حد كبير. ولا سيما البيت الحلبي الذي يقوم على كاهل الرجل الزوج، وأفراد الأسرة جميعهم يقرون له بذلك، فعندهم: (الكبير في البيت بركة)، و: (الرّجال رحمة ولو كنو فحمة)، و: (الرّجّال اللي بجيب للبيت فحمه بتنعد رحمه)[1]. وعندهم: (الرجال ما بينعاب ولو كان مسمار بالباب).

والرجل الحلبي نتيجة خبرة وثقافة شعبية تراكمية، يجد نفسه في العمل خارج البيت وليس في البيت، ومن هنا يقضي جل نهاره في متجره أو تجارته أو صنعته، وهذا كله على حساب حياته الخاصة، أو على حساب أسرته، زوجةً وأولاداً.

---

(1) *الأدب الشعبي في حلب*، د. محمد حسن عبد المحسن، ط1، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1994، ص 116.

ومن الصفات التي يرونها في الرجل؛ الوفاء بالعهد والذمم، والعفو عند المقدرة، والذبُّ عن المحارم، وحماية العرض والذمار، ونصرة الجار، ونجدة الملهوف في الملمات، والعفة، والكف عن عورات النساء، والإباء، ورفض الذل، والحياء، وغض الطرف، وغيرها من الصفات التي توارثها أباً عن جد، عبر التاريخ، واحتفظ بمعظمها جيلاً بعد جيل.

وللرجل المثالي صفات يحبونها فيه، كأن يكون عارفاً بدقائق الأمور حكيماً كريماً، من حكمهم: (الزلمه بكون عرّيف وكرّيف وصرّيف)[2]. وعندهم: (الرجّال جنّا، والمرا بنّا). ويقولون: (لا مطر إلا مطر السيل، ولا جلب إلا جلب الرجيل). ومن كلامهم: (تروك العواطف وكون رجّال، الرجّال اللي بيحسب لبعيد)، و: (فلان بيحسبها ع الطاير). وما أكثر امتداحهم للكرم في الرجل، (فلان بيعطي بسخا)، و: (فلان كسّاب وهّاب)، و: (بيت السبع ما بيخلا م العضام). وفي اعتقادهم أن (الأخ بيعطي بمنّيّه، والزوج بيعطي بحنيّه). و: (الرّجال الشاطر بيطالع اللقمه من تمّ السبع)، ويرغبون في الرجل أن يكون لائق المظهر، فعندهم (الآدمي نصّو خلقه، ونصّو خرقة)، ويتناصحون: (إذا أنعم الله عليك، حليق وروح ع الحمّام)، ويطلبون من الرجل أن يكون شجاعاً: (فلان زلمه بيشق الصخر). ويقولون: (فلان بيسلُت الشعرة مِ العجين)، و: (فلان من الرجال المعدودين)، و: (فلان بملط م الزرد).

وأن يكون ملماً بمختلف المعارف: (فلان مثل طاسة الجن، منين ما نقرتا بترن)[3]. وأن يحفظ الوعد ويحترم الكبير ويوقر الصغير: (الرجّال الشريف عند كلمتو)، ويتواصون: (لازم نستعبر الكبير). ويتواصون فيما بينهم: (إذا كنت محتار عليك بالختيار)، فالكبير في السن في رأيهم أهلٌ للمشورة وإبداء النصيحة، كما يتناصحون بمعاشرة الأصلاء: (عاشر أصيل إذا جار الزمان بيجود)، و: (إذا جن ربْعك عقلك ما يفيدك)، وعندهم: (لو محبة الرجال بتدوم كانت القيامة ما بتقوم). ويرتاحون للرجل الوديع المسالم فيقولون: (فلان عيونو مدبله)، و: (فلان في وجو ربي يسر). وينعتون الرجل النموذج بابن الحلال، ومن قناعاتهم أن: (ابن الحلال عند ذكرو ابّان)، وإذا ذكروا من لا تعجبهم تصرفاته وأخلاقه وحضر فجأة يقولون: (اذكرو الديب، وحضّرلو القضيب).

وهناك صفات يكرهونها في الرجل، كأن يكون كسولاً فيتهكمون عليه: (بعد ما أكل واتّكا قال لا: يا مرا أكلك ما لو زكا)، و: (من بعد ما سكر السوق وتطوبق نزل المعتّر يتسوّق)، و: (عم بيمشي وبيتطرجح متل السكران). ويسخرون من الكسول بحوارية لطيفة: (يا عبد الله! عبي الجرة،

---

[2] يريدون: الزلمة: (الرجل المستكمل صفات الرجولة)، يكون عارفاً بدقائق الأمور التي يعاينها، ثم يشم أخبار الوقائع قبل حدوثها بثاقب حدسه وتجاربه، ثم ينفق لتسيير الصالح ما يستدعي من جهد ومال.

[3] طاسة الجن هي الطاسة المصنوعة من النحاس الخاص النقي، من (حان) الفارسية بمعنى الخالي من الشوائب. لذلك يكون رنينها واحداً من جميع جوانبها.

المـيه بـره. قشّـر توم! ما بقوم، قشّر بصل، ما بصل، قوم تعشّى! يا الله...) وينسبون إلى الكسول قوله حين يطلب منه عمل: (شيلوني لأدربس الباب).

كمـا يكـرهون في الرجل أن يكون محكوماً من قبل زوجته، ومسيطرة عليه، ويرون في ذلك رجولـة ناقصـة. مـن أقوالهم: (ضرب النبال، ولا توبيخ النسا للرجال). وفي اعتقادهم: (كل مين بيخاف من مرتو بيموت قبل مرتو).

كمـا يكـرهون فيه أن يكون طائشاً مدعياً متكبراً، من أقوالهم: (شاف الجرن عشق الحمام)، و: (الـرجّال طـيّار، والمرا بتغار)، و: (ابنو بحضنو وعم يدور عليه)، ومن تهكماتهم: (مساوي حالو عنتر زمانو)، ويقولون: (دكه ما لو وشاله بأربعطعش).

من لوحاتهم: (هالشب ما حدا بيطيقوا، وليش؟ لأنو دايما بتفنطز: بيحط للي نضارات سود على عينـيه، وبيشـيل هالإيدوانات بإيديه، وبيميل لي برنيطتو، والبليب ما بيقيمو من تمو، وعاجب حالو وبس).

ومـن لوحـاتهم: (هاد بيقول لو للبيتفنطز: سلامه سيدي، هادا البيتفنكر: بياكل بأحسن المطاعم، وبيبرك بأحسن القهاوي، وبيشرب أرقى دخان، لكن الكلام بسرك لما بتقل معو بيشرب أبهدل الدخان بيـنو وبيـن حـالو، وقـدام النسا بيطالع الممتاز، إذن في جيبو اليمين الباكيت الغالي، وفي اليسار الواطـي، وبشوفو أواقيت عم بيشرب كازوزه بطول بشربا ساعه، وبيمص للو مصه وبيفرجي حالو للمارين كأنو عم بيقول: شوفوني شقد عم بجخ)[4].

ولا يـروق للحلبييـن أن يكـون الـرجل لا مبالياً، غشيماً ملحاحاً: (كل مين بياخد أمي بسميه عمي)، و: (طلطميس، ما بيعرف الجمعه م الخميس)، و: (بيخلط شعبان برمضان)، و(في كل عرس إلـو قـرص). أو أن يكـون ضعيفاً متردداً، يقولون: (كل الجميل بتعارك، إلا جملنا محني ضهرو وبارك). و: (فلان من زبيبه بيسكر)، و: (فلان بيعمل م الحبه قبّه، وم الزبيبه خماره)، و: (المغلوب بـياكل مع صاحب مرتو)، و: (الرجال محبوس والمرا عاروس). أو أن يكون قليل الأدب، فعندهم: (الضحك بلا سبب قلّة أدب)، ومن لوحاتهم: (واحد قالع راقع، ودايماً بيضحك، وضحكو عالي، سألو واحد: إيش مساوي ضحتك وِرْدك؟

ـ شلون بيعذبني الملك اللي عم بيضحك معي.

ـ العاده شي بتضحك ههه ها وشي هه هو، وشي هه ههي.

---

[4] موسوعة حلب المقارنة، محمد خير الدين الأسدي، مج2، ص 361.

ـ على حساب إعراب كيفي)[5].

ويعـدّون (مداح نفسو ما منو خير)، ويتناصحون (لا تقول للأعور أعور بعينو)، ويسخرون من المدعـي بقولهم: (شفت هالأسمر أبو الشوارب المعنكفة والخال المبروم، واللي عرض شالتو دراع، شـفتو ودايمـاً "أنـا أنا" بتحسبو عنتر... أهل الحارة شافو لما دق الكنا بالكنا كانت إجرو عم بتدق بضـهرو). ويقولـون: (طـبل وزمر، وبياخد من مرتو الأمر) ويتهكمون من المتكبر بقولهم: (فلان مصـمود ومتقـنزع عالكرويـته مـتل الخف بدكان الإسكاف). ومن المهمل لشؤون بيته: (الرجيل تـتطوق، والنسـوان تتسوق)، ومن غير المذوق يقولون: (لبس الأسمر أحمر واضحك عليه، ولبس الأبيض أسود وتفرج عليه).

وأكثر ما يكرهون في الرجل قلة الشرف والأدب، وعدم الوفاء، والمخادعة. من مسباتهم: (تفي عالمـا عـندو شرف)، ويقولون: (الناس بتفننو في العلم والأدب، وهادا بتفنن الشفترات، بالمسبات، وإذا وقـع بتفنـن بتمسيحات الجوخ وبوس الصرامي والقندرات)، و: (فلان ما عندو عزة نفس)، و: (فلان عينو لبرا)، و: (المسبحه بإيدو والشيطان بجيبو).

ومن لوحاتهم: (بعرف مبجق كبير في هالبلد، بينظم وبيخطب.

ـ وبلادنا ما بتعرف مقاييس الكلام وفن الخطابة.

ويـنالون من الرجل ناكر الجميل، ومن الطائش المتهور، ومن كناياتهم: (فلان حاطط دمو على كفـو). كمـا يكـرهون عدم الاتزان، فاقد الشخصية، كثير الكلام، يقولون: (هالزلمة إيمت ما شفتو معـبوط، والعبطة ملازمتو، وبتعرف إيش عم يعبطو؟ قلة عقلو وبس)، و: (فلان ما بيعرف ألله وين حـاطو)، و: (المونـون بـيقع عراسو نكس)، و: (فلان متل الخشخاشة، ما بترد لاشه)[6]، و: (هوه مبرمـبس ومـرتو مبربسه، وهالبرباس ما بيعدو عنو)، و: (هادا ما بيعرف يحكي، تش في السهره تشـات وخلـط خلطات حتى شبع)، و: (فلان ما بيدخل لسانو لحلقو)، ومن تهكماتهم: (ابنو بحضنو وعـم بيدور عليه)[7]، كما ينسبون إلى الشوام قولهم عن الحلبيين: (قل أعوذ برب الفلق، من الحلبي إذا انجلق).

ولا يكرهون شيئاً من الرجل مثل البخل، فيصفونه بقولهم: (زلمه معصمص)[8]، ويقولون: (من هـالدرخوش مـا في عصفور)، و: (طعمانا عصفور... زرزور)، ويقولون: (جاب الرجال عصير

---

(5) المصدر السابق، ج5، ص 206.

(6) يقولون هذا في من فقد شخصيته، فغدا يقبل كل ما يعرض عليه.

(7) موسوعة حلب المقارنة، الأسي، مج3، ص 216.

(8) أي رجل بخيل لا خير عنده.

فكـــر حالو أمير)، و: (زلمه استحس بلم المصاري)، و: (فلان إيدو بالكرم كتعا). ويعتقدون أن (مال الخســيس بــيروح فطيس)، وإن (البخل ما نزل م السما، لكن ناس تعلمت من ناس)، ويخيل إليهم أن البخيل لا يمكن كسبه بشيء، ويتهكمون:

ــ قال لو أش عم تتغدى؟

ــ قال لو: كتير متلك عدى[9].

ــ قالو لو: عم تتغدى خبز وزيت!!

ــ نعم، ومن هديك الدكان اشتريت[10]

ــ إن ردت وإن ما ردت بدي أخطف.

ــ وأنا بالمديار اللي جنبي بحدف[11]

ويســتغربون حياة البخيل الذي يعلل بخله بخوفه من الفقر: (بورّث كلب ولا يحتاج لابن كلب)، وعــندهم: (هدية البخيل ليمونه). ويرثون لحاله: (فلان من بخلو بأدم خبزتو بخبزه غيرا سخنه ــ يا ربــي! ومــا بيســخى بأدما بيعود بياكل كتير). ويتواصلون: (كول أكل الجْميل، وقوم قبل الرجيل)، ويطلقــون عليه أبشع الأسماء والصفات: (دوَّرت السند والهند ما لقيت أنشح من فلان)[12]. ويقولون: (فرفوطة الخبز بتقلع عينو، وكل عيلتو على هالطرباق)[13].

ويعــتد الرجل الحلبي بالقرابة: (هادا ابن عمي شق المنشار)، ويفضلون قرابة العصب على ما ســواها: (فــلان قرابتي عصب، مو قرابة كرش)[14]، حتى بنات عمومتهم يمتدحونهم في كل شيء، وغالباً ما يكون زواجهم بهن: (شايف هالبنت ما أكوسا! هي بنت عمي، هي فطوم المغربيه ما بتجي خدامه لأضفرا).

والــزواج ضــرورة لا مفر منها للرجل عندهم، لذلك يلحون عليها، وعندهم: (الرجال بلا مرا مــتل المطــبخ بــلا مكنسه)[15]، و: (الرجال بلا مرا متل الخاتم بلا جوهرا)، ويقول والد العروس لخاطــب ابنــته: (بــدي طــنجره تبقبق، ما بدي قندره تزقزق)، أي يريد صهراً كريماً يطبخ ويشبع

---

[9] أي و لم ينل أحد زادي.

[10] يريد: لا تطلب مني أن أطعمك.

[11] المديار: الكلنك، الدبوس.

[12] أطلقوا (المنشح) على البخيل كأنهم تصوروا فيه نتانة النفس.

[13] يريدون: على هذه السنة وهذا النهج.

[14] يريدون قرابة أب لا أم.

[15] الأدب الشعبي الحلبي، محمد حسن عبد المحسن، رسالة دبلوم دراسات عليا، جامعة حلب، 1976، ص 40.

عائلته، ولا يريد صهراً يلبس فاخر الثياب وهو بخيل. ويعدون الأعزب خارج الحياة (فلان لسع ما دخل الدنيا). وعند نفر منهم: (موتة المرا عند الردال متل طرقة العكْس).

والرجل مسؤول عن تزويج أولاده، يقولون: (فلان عم يرقدلو على شي سكرتون مليح ورخيص تيجوز ابنو). وللزواج عندهم شروط، فينصحون من يقدم على الزواج بقولهم: (تايصير عندك مصاري إبقي فكّر بالجازه)، لأنه في اعتقادهم: (البيتجوّز بالدّين بيجي أولادو بالفايظ)، لذلك كثر الطامعون بالثريات، من كلامهم: (بدو يتعربطلو بوحده كويسه وزنكينه، وما عم يصح للو)، ومن أهم مبادئ الزواج عندهم: (حط إيدك على قلبك، اللي بتحبو بيحبك). وقد لا تُرضي المرأة زوجها، مهما قدمت له، مما يدفعها إلى التذمر، فتقول له: (جوّا برّا فرشتلك، وحامض وحلو طبختلك، بس طريق التبانة ما حسبتلك)، وتأسى على نفسها، وتعاتب زوجها بقولها: (كنت لحمه أكلتني، وصرت عضمة رميتني). وعندهم: (الما بياخد من ملتو بيموت بعلتو)، و: (يللي بيطلق مرتو أكبر خطيه، ويللي بياخد مطلقه أكبر بليه)، وعندهم: (أبشع لحم لحم القاق، وأبشع الرجيل يللي بيحلف بالطلاق).

وبسبب الطلاق وتعدد الزوجات كثرت مآسي الرجل الحلبي وأحزانه على مصير أولاده، من تهكماتهم: (دشرّ أمو وأم أبو ولحق خالتو مرت أبو)، و: (الحاجة الما بتهمك وصي عليها جوز أمك). وفي اعتقاد الحلبي أن (أول مرا مرمره، والتانية سكره)، كل ذلك من أجل الترغيب في الزواج الثاني. ويقرون بفضل من يسعى بالزواج عموماً، أو من يصلح بين الأزواج المختلفين، يقولون: (ما في أشرف وأحلى م البيجمع راسين عفرد مخده)، ويسألون الرجل في أثناء خطبته: (بدك دح ولا نح؟ يجيب: م التنتين)[16].

ويعد الحلبي ــ بنزعته المادية وروحه التجارية ــ المال أساسياً ومهماً في التفاهم مع النساء، من شعرهم الشعبي:

(قال لو: محبوبتي بالسما كيف الوصول ليها

قال لو: خشخشلا بالدهب، بتركد بإجريها)

ومن أمثالهم: (اللي عندو مال بيحضى بأم العيون السود، واللي ما عندو مال ما بيحضى ولا بالكليب السود).

(16) دح: زنكينه، نح: كويسه.

وحين يتزوج الحلبي غالباً ما يميل هواه مع أهل زوجته (قالو لجحا: إنته منين؟ قال لن: من بلد أهل مرتي)، ويحسب ألف حساب لِهَم، من أقوالهم: (فلان ما لو حق يخسفو قدام بيت احماه)[17].

وإذا ما وقف الرجل إلى جانب زوجته ينالونه بسهام النقد والسخرية، بقولهم: (عند أمو داخ، وعند مرتو ساخ)، وقولهم: (على أهلو بطل، وقدام مرتو اسنطل).

ولئن ساعد بعضهم زوجته في أعمال البيت فإنه لا ينجو من سخريتهم: (كيمش ديالو باسنانو وعم بيحوس وبيخسل الحوش تيساعد مرتو)، ويرثون لحاله: (مسكين يا ناس اللي علتو مرتو). ومعظمهم يظلم زوجته أشد الظلم، ولذلك يقولون: (انصاب فلان بخطية ظلمو لمرتو)، ومن دعائهم: (الله يساعد مرتو عليه)، و لقناعتهم أن (اللي بيعاشر النسوان بيقل عقلو) غالباً ما يكون نتيجة الظلم هذا حرد المرأة إلى بيت أهلها.

ويرثون لحال من تموت زوجته: (أعزب دهر ولا أرمل شهر) ويلحون عليه أن يتقدم لمصالحتها هو رفقاً بضعفها، فينصحونه: (اخز الشيطان وصالح مرتك)، ولو كلفه ذلك ما لا يطيق: (حردت مرتو، قال: ما بترجع إلا بطبل وزمر). وإذا طال الحرد فقد ينتهي بالطلاق، لكنهم ينصحون الرجل بالتعقل في أبغض ما أحل الله: (اللي بيشور عليك بالطلاق ما بيعينك بالنفقه)، وإذا ما حل الطلاق فسيتزوج الرجل ثانية، وللزوجة الثانية شروط عليه: (شرطت عليه مرتو الجديدة يفردلا بيت).

ويوزع الرجل الحلبي قلبه بين زوجاته: (جوز الضراير حاير)، أو بين زوجته وأولاده، من أمثالهم: (بحب الولد وبحب شمو، وبحب الولد على محبة أمو). ولا شيء أعز على الوالد من أولاده، ولذا إذا أراد أن يظهر معزَّة إنسان يقول: (إنته متل ابني وأعز)، لأنه في رأيهم: (ما في أغلى م الولد)، و: (قال لو: منو أغلى م الولد؟ قال لو: ولد الولد)، ومن أقوالهم: (لو ما ابني إش جاب بنت الناس لعنا؟). ويدعون بكثرة الأولاد: (تبرك بالعتبة وتكش بالقصبه)[18]. ويقال لمن ليس عنده أولاد يساعدونه ويحمونه: (اللي ما لو ظهر بيوجعو بطنو).

وأول واجب على الحلبي تجاه أولاده أن يحسن تربيتهم، وللتربية عندهم أصول تعارفوا عليها، إما بالتنبيه من الأشرار: (وصى حلبي ابنه، إذا قال لك حدا: عطيني تنكتك لأعبي لك ياها زيت، قول لو: هات رعبون التنكة)، أو بضبطهم وأخذهم بالشدة: (الولد عطيه وج بينجلق وما بيرتد). ويرى بعضهم تربية الأولاد باللين: (ربيتو كل شبر بندر). وفي رأيهم أن خير الأمور الوسط، لذا يقولون: (لا تشد ع الولد ولا ترخي لو الحبل)، لذا يتناصحون بالاعتناء بالأولاد: (لا تحط ابنك ع

(17) يريد: يحقره.
(18) تدعو الجدة أو الأم، تريد أن يكثر نسله.

الحيطان، وتقول: أمر الله وكان)، وعندهم (الولد الزغير ما بيتدشر لحالو). ويقرون بفضل الآباء على الأبناء، لذلك يعتقدون أن: (أب ربى ألف ولد، وألف ولد ما ربو أب)، لكنهم يحملون الآباء ما قد يصيب الأبناء بسبب سوء تصرفهم: (الكبار بتاكل والزغار بتضرس)، وعندهم: (هالخط الأعوج م التور الكبير).

وينتج الرجل الحلبي مواقفه تجاه أولاده من معين التوجه الديني في الغالب الأعم، ومن العادات والتقاليد والأعراف الموروثة جيلاً بعد جيل. ولعل في توصيف الأحنف بني قيس للولد خير مثال على ذلك، حين غضب معاوية على يزيد، فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين: أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماءٌ ظليلة، وأرضٌ ذليلة، وبهم نصول على كل جليلة. عن غضبوا فأرضهم. وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شزراً، فيملوا حياتك، ويتمنوا وفاتك. فقال معاوية: يا غلام، إذا رأيتَ يزيد فأقرئه السلام، واحمل إليه مئتي ألف درهم، ومئتي ثوب[19]

وتنبه مأثورات شعبية الرجل إلى عظم مسؤوليته وحساسية دوره في الأسرة: (الرجال عمود البيت)، وينصحون الرجل: (تلاته إذا ما ظلمتن بيظلموك: ابنك ومرتك وأجيرك)، وعندهم: (المليح في غير أهلو ضايع).

وأكثر ما يحزن الرجال موت صغارهم، يقولون: (كربو موت ابنو وما بقى يشتهي شم الهوا). ويقولون عن الرجل: (ماتت مرتو جدد فراشو، ماتت أختو ستر عارو، مات أبوه كبر جيبو، مات أخوه انكسر ضهرو).

وتحدد مأثورات أخرى سلوكيات الرجل وتضبط تصرفاته، من مثل ما في قولهم: (أول هبال اللي يهوش وما وراه رجال، وتاني هبال اللي بياخد مرا وراها عيال، تالت هبال يقعد ع التل ويبال، ورابع هبال اللي يفلت وليدو بليل ما فيه هلال). ويعتقدون أن (أكل الرجيل على قد فعالا)، وعندهم: (الحر بعمرو ما طب على جيفه).

خاتمة:

على أية حال، لكل مجتمع مأثوراته الشعبية الشائعة بين أناسه، يتداولونها، فيما بينهم، وتعبر عن وجهات نظرهم من خلال تجاربهم، وكثيراً ما تتقاطع هذه المأثورات مع مثيلاتها المأثورات الشعبية العربية والعالمية، وهذا أمر لا يشينها ولا ينقص من قيمتها، وإنما على العكس تماماً، يعطيها بعداً إنسانياً وحضارياً يدل على التواصل بين الأمم والشعوب والحضارات عبر العصور.

---

(19) المستطرف، في كل فن مستظرف، شهاب الدين أحمد الأبشيهي، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1998م، ص 357.

ولا يضير هذه المأثورات الشعبية ما يلاحظ فيها من تعارض وتضاد في أحايين كثيرة، في بعضها يدعو إلى أمر، وغيرها من المأثورات يدعو إلى نقيضه وتترجح بين السلب والإيجاب، وهذا نابع من الضعف الإنساني أولاً، ومن كون هذه المأثورات خلاصةً لتجارب وأحداث متفاوتة البواعث والنتائج، وتقع في أوقات مختلفة ومتباعدة أيضاً.

وهكذا يدور الزمان وتدور حكايات الأجداد موشاة بميسم الخلود تعلم الأجيال آداب الحياة من دون أن تمسك بريشة أو تخط بقلم، إنما من خلال نبضة القلب ورهف الشعور ونبل الحكمة وسداد البصيرة، ولا ريب في أن فنون القول الشعبية الحلبية إنما ترسم للإنسان إذن سبيل الخلود الخلقي الاجتماعي بما تبعثه فيه من قيم حية، تتأبى على الفناء مع نسيج الأيام لأنها ليست محض أسمار وإنما هي فن التعليم الحي، فإذا تأملنا ما دار حول الأسرة الحلبية من أمثال وحكم وحكايات وفنون قول أخرى ألفينا من أسرار الحكمة وآداب الذوق ما يعين على تربية النشء وصلاح المجتمع.

****

***

المصادر والمراجع

1 ـ الأبشيهي، شهاب الدين أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، دار المعرفة، لبنان، ط1، 1998م.

2 ـ الأسدي، محمد خير الدين، موسوعة حلب المقارنة، مطبعة جامعة حلب، ط1 ، 1986.

3 ـ عبد المحسن، محمد حسن، الأدب الشعبي في حلب، مطبعة وزارة الثقافة السورية، دمشق، ط1، 1994م، وط2، 2006م.

4 ـ عبد المحسن، الأدب الشعبي الحلبي، رسالة دبلوم دراسات عليا، جامعة حلب، 1977م.

أخبار التراث:

حلب عاصمة الثقافة الإسلامية 2006م

فادية غيبور

ــ في دورتـه المـنعقدة بالجزائر عام 2004م صوّت المؤتمر الإسلامي على اختيار حلب عاصـمة للـثقافة الإسلامية بعد مكة لأنها تمتلك تاريخاً متميزاً، وتضم تراثاً عمرانياً يمثل المراحل الإسـلامية كافة (الراشدي، الأموي، الزنكي، الأيوبي، الفاطمي، المملوكي، العثماني..)، وعلى امتداد أشـهر كانت حلب الشهباء تستعد لهذه الاحتفالية المهمة رسمياً وشعبياً حتى بدت في أبهى حللها كما يليق بعاصمة حقيقية للثقافة الإسلامية..

وقامـت الحكومـة السورية بتقديم كل أشكال الدعم المادي والفني التي تتطلبها تغطية فعاليات هـذه الاحتفالـية، لما لها من أهمية في إبراز تاريخ مدينة حلب الحضاري والإنساني، ووصولاً إلى يـوم الافتتاح وبعده تم ترميم عدد من المباني الأثرية المهمة في المدينة.. ويُعد اختيار حلب عاصمة للـثقافة الإسـلامية حالـة إعلامـية مهمة لأن الاختيار كان له مبرراته، فحلب كانت ولاتزال مدينة عـريقة لهـا خصوصـيتها الحضارية الخالدة ودورها المميز في امتزاج الثقافات الإنسانية في نسيج روحي متماسك متآلف عبر التاريخ.

ومـنذ آذار حـتى اليوم شهدت حلب عدداً كبيراً من الندوات والمحاضرات الفكرية والأمسيات الشـعرية والحفـلات الغنائـية والمسابقات الأدبية والمعارض الفنية، بالإضافة إلى إصدار عدد من الكتب الفكرية والتاريخية الخاصة::

وفـي إطـار فعالـيات الاحتفالـية دُعيت شخصيات عربية وعالمية مهتمة بالحضارة العربية والإسلامية، كما دُعي بعض المستشرقين "المنصفين" و"أصدقاء العروبة والإسلام".. وتستمر فعاليات الاحتفالية إلى نهاية العام.

ولا بـدّ من الإشارة إلى أن هذه الاحتفالية اللافتة تنفذ بالتعاون مع هيئات ومؤسسات دولية عدة، مـنها: مـنظمة المؤتمر الإسلامي، منظمة المدن العربية، منظمة الثقافة الإسلامية، منظمة اليونسكو،

مؤسسة الملك فيصل الثقافية، دار الآثار الإسلامية، ونادي تراث الإمارات، منظمة الآغا خان ومؤسسة البابطين وغيرها.. ومن أهم الندوات التي تم تنفيذها في إطار الاحتفالية:

- ندوة المكتبات في العصرين الأموي والعباسي:

أجمع المشاركون في هذه الندوة المهمة على أن ميزة الحضارة الإسلامية أنها حضارة كتب ومكتبات، فعندما خرج العرب من الجزيرة العربية إلى البلدان التي فتحوها في الغرب والشرق اطلعوا على الكتب الكثيرة التي وجدوها، ودفعهم احترامهم وحبهم للكتب إلى الاهتمام بها، فحافظوا عليها وعملوا على تطويرها وتنميتها؛ وأعدوا الأماكن الكفيلة بحفظها، وأطلقوا على هذه الأماكن اسم خزائن الكتب؛ أو ما عرفه العالم الحديث تحت اسم المكتبات، وقد قرأ المسلمون الأوائل كتب الفرس واليونان ومكتباتهم وأعجبوا بها، وعندما بدؤوا بتأسيس المكتبات العربية الإسلامية جعلوها على نمط مكتبات الفرس واليونان، كما تأثروا بطريقتهم في جمع الكتب وتصنيفها وفي تأسيس المكتبات التي كان لها دور ريادي في تطوير هذه المجتمعات ودفعها في طريق الرقي والنجاح، كما كانت مرآة تنعكس فيها حياة المسلمين وتظهر ملامح الحياة الجديدة التي وجد المسلمون أنفسهم فيها بعد عصر الفتوحات والاستقرار..

وأشار الباحثون إلى أن المكتبات الإسلامية كانت وليدة الحاجات المحلية التي أحس بها المسلمون بعد أن استوطنوا في البلاد المفتوحة وبعد أن انتشر العلم والتعلم في البلاد الإسلامية، وهذه النهضة العلمية التي بدأها الإسلام وتبناها المسلمون كانت السبب باهتمام المسلمين بالكتب والمكتبات، وإن نسينا فلا ننسَ أن أول كلمة نزل بها الوحي على سيدنا محمد (ص) كانت كلمة: اقرأ، وأن كلمتي الكتاب والعلم وردتا في آيات قرآنية كثيرة منها: (وانزل الله عليك الكتب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً)، (وقل رب زدني علماً)، (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان).

وقد اهتمت الندوة بإظهار تطور المكتبات الإسلامية المنظمة الغنية بمحتوياتها التي صارت الدعائم الأساسية لصروح العلم والثقافة والحضارة، وتناولت أهمية حركة النقل من اللغات الأجنبية "اليونانية والفارسية والهندية والسريانية"؛ التي تسارعت وتيرتها ووجدت العناية الكبيرة من الخلفاء وخاصة في فترة حكم العباسين؛ وقد بلغ الأمر ذروته زمن الخليفة المأمون، كما نشطت حركة التدوين والتأليف وحفل العالم الإسلامي بالعلماء والبحاثة والمؤلفين الذين يكتبون ويؤلفون وينقلون وكثرت المكتبات بشكل هائل وتنوعت أغراضها ووظائفها وزخر العالم الإسلامي بهواة جمع الكتب ومحبيها .

ومما ساعد على تطور وازدهار هذه الحركة اختراع الورق وظهور الوراقين وفتح دكاكين بيع الكتب ونسخها وازدهرت تجارة الكتب وظهرت طبقة من الكتاب الذين أطلق عليهم النساخ وأصبحت مهنتهم نسخ المخطوطات وبيعها..

أحب العرب المسلمون الكتب وولهوا بها وأنفقوا عليها الكثير من المال.. ولعل اشهر من أحب الكتب ودافع عنها ومدحها ومات في أحضانها "الجاحظ" وهو القائل في الكتاب: (هو الجليس الذي لايطريك والصديق الذي لايغريك، والرفيق الذي لا يملك والمستميح الذي لا يشتريك والجار الذي لايستطيبك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر).

ومن منا ينسى قول المتنبي مادحا" الكتاب:

أعز مكان في الدنا سرج سابح   وخير جليس في الأنام كتاب

وبما أن عنوان الندوة يختص بالمكتبات في العصرين الأموي والعباسي فقد وضح المشاركون تفاصيل وضع المكتبات في كل من العصرين، ففي العصر الأموي تم تدوين القرآن الكريم في المصاحف واتسعت رقعة الدولة الإسلامية وأصبح الاعتماد على الكلمة المكتوبة، وبدأ تواصل المسلمين بالأمم الأخرى ومشاهدة ما عندهم من حضارات ،وبدأت عملية التمازج بين حضارة المسلمين وحضارات الأمم الأخرى، فبدأت مرحلة التدوين والنقل والتأليف، وكانت الكتابة تتم في العصر الأموي على القراطيس المصرية المصنوعة من لب البردي، وكان اختراع الورق عاملاً حاسماً في نشر المعرفة وغزارة المؤلفات؛ وبدء عهد ازدهار الكتب والمكتبات في الإسلام، وكانت فاتحة التأليف تسجيل الحوادث التي لها علاقة بالرسول الكريم وبالحديث الشريف وتمثل ذلك في الرغبة بضبط الحديث وروايته كونه المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام.

أما تدوين القصص والأخبار والتواريخ فقد أمر به معاوية بن أبي سفيان، وقد اعتمد على رجل حضرمي معمّر اسمه (آمد بن آبد) وعلى معمّر آخر يمني اسمه (عبيد بن شريه) وكان ملماً بمعرفة تواريخ اليمن وملوك العرب والعجم فأمر معاوية كتابه أن يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شريه في مجلسه ، فكان ذلك بداية تدوين التاريخ .

و كان أول نقل أو تعريب في الإسلام في دمشق زمن خالد بن يزيد بن أبي سفيان حكيم آل مروان وعالم قريش فقد زهد في الخلافة وعشق العلم حتى ليقال: إنه أنشأ بعلمه مملكة، فقد أحضر جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا بمصر وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلت في خزائن الإسلام وفي دمشق على الأرجح أنشئت أول دار للكتب في العالم العربي، كما كانت دمشق أول عاصمة أنشئت فيها دار ترجمة، ويقال: إن خالد بن يزيد أول من عني بعلوم الفلسفة وكان مقيماً" في حلب سنة (85) هـ، ومن الأشخاص الذين ورد اسمهم كناقلين ومترجمين جبله بن سالم.

وفــي زمــن الخليفة عبد الملك بن مروان تم نقل الدواوين من اليونانية إلى العربية في سورية ومن الفارسية إلى العربية في العراق وبلاد فارس وذلك على يد الحجاج والي عبد الملك بن مروان، ومن القبطية إلى العربية في مصر على يد عامل الخليفة على مصر عبد العزيز بن عبد الملك.

لقــد زها العصر الأموي بوجود أشخاص أمثال عبد الحميد الكاتب الذي كان كاتباً لمروان بن محمــد آخــر خلفاء بني أميه وعبد الله بن المقفع الفارسي الأصل الذي نشأ في هذا العصر وهو من تلاميذ الكاتب ونقل إلى العربية كتاب (كليلة ودمنة)..

ويمكــن تلخــيص ممــيزات العصر الأموي بأنه العصر الذي وضعت فيه جميع البذور الأولى للحضــارة الإســلامية والكتاب الإسلامي والمكتبات الإسلامية، غير أنها نمت وازدهرت **في العصر العباسي** الــذي يعــدّ عصــر الانفتاح الحضاري الحقيقي على الشعوب والأمم المجاورة وحصل الاخــتلاط بين العرب المسلمين وبين الفرس واليونان، مما دفعهم ذلك إلى الاطلاع على ما كان لدى هذيــن الشــعبين من آثار المتقدمين من العلماء والحكماء والفلاسفة، وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصــور أول مــن اعتنى بترجمة بعض كتب تلك الشعوب، فقد قام بالترجمة طبيبه (جورجيس بن جبرائــيل) الذي كان يشرف على علاجه، فترجم له كتباً كثيرة من اللغات الأخرى إلى العربية، كما تــرجم ابــن المقفــع كاتب المنصور كتاب "كليلة ودمنة" من اللغة الفهلوية إلى العربية وغيرها من الكتــب، كمــا أمــر المنصور بترجمة كتاب هندي في الحساب والفلك من قبل رجل هندي قدم إليه بكــتاب مخــتص بالحســاب وحركات النجوم، وأن يؤلف منه كتاباً تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب.

ويعتــبر الخلــيفة المهــدي أول الخلفاء العباسين الذين اعتنوا بجمع الكتب فقد ورث دفاتر علم أوصى له بها أبوه أبو جعفر المنصور عند وفاته وكان شديد الحرص عليها.

ويعتبر عصر الرشيد والمأمون العصر الذهبي لعملية النقل من سائر اللغات إلى العربية، حيث أصــبحت الترجمة في زمانهما "عملاً رسمياً" تتولاه الدولة وتنفق عليه من موازنتها وتحشد له أعظم المترجمين والعلماء والمفكرين وتراسل الملوك والحكام من أجل الحصول على الكتب والمخطوطات وترسل البعثات في طلب الكتب العلمية والطبية والفلسفية.

وكــان الرشــيد من المتواضعين للعلماء، فقد عهد إلى طبيبه الخاص "يوحنا بن ماسويه" شيخ الــنقلة برئاســة بيت الحكمة، وكلفه بترجمة الكتب التي غنمها الجيش من أنقرة وعمورية، كما عهد بشوؤن خزانة كتب الحكمة إلى شخص يتقن الفارسية هو "الفضل بن نوبخت" أبو سهل وهو من أئمة المتكلميــن وقد تولى أمور خزانة الحكمة وكان ينقل كتب الحكمة الفارسية إلى العربية... ومن النقلة الذين خدموا الرشيد والمأمون "الحجاج بن يوسف بن مطر" الذي نقل كتاب أقليدس "أصول الهندسة" مرتين الأولى زمن الرشيد والثانية زمن المأمون.

وأكمــل "المــأمون" مــا بدأه جده المنصور فكان يتصل بملوك الروم ويتحفهم بالهدايا ويسألهم إهــداءه مــا لديهــم مــن كتب الفلاسفة ومخطوطاتهم. ويروى أن المأمون كان يجد متعة في البحث والــدرس والمــناظرة والجـدل العلمــي والتألــيف والــنقل فكان يجمع العلماء ويطلب إليهم أجراء المــناظرات بين يديه ويشارك بها، وهو أول من اطلع على علوم الحكمة وحصلّ كتبها وأمر بنقلها إلــى العربــية، وقــد اجــتمع لديه في بيت الحكمة عدد من العلماء والبحاثة أمثال "سهل بن هارون" و"سعيد بن هارون" وسلم والحجاج بن مطر وابن البطريق ويوحنا بن ماسويه، كما عهد المأمون إلى حنين بن إسحاق بمراقبة النقل من اليونانية إلى العربية.

ولــم يؤثــر ضــعف الخلافة وفقرها فيما بعد على حب الخلفاء للكتب فالخليفة الناصر لدين الله اعتــنى بالمكتبات وأسس المكتبة النظامية وأعاد عمارتها ونقل لها ألوف الكتب النفيسة، وأنشأ الرباط المعــروف بالــرباط الظاهــري غربي بغداد ونقل إليه كتباً كثيرة، كما أنه أهتم بتغذية الخزائن التي كانــت موجــودة واشترى لها الكتب ونظمها أحسن تنظيم وقد أوكل مهمة اختيار الكتب إلى شخص يدعــى(مبشــر بــن أحمــد بــن علي الرازي) اعتمد عليه في اختيار الكتب التي وقفها على الرباط الخاتوني.

أما الخليفة المستنصر بالله الذي تولى الخلافة بعد الناصر فقد أسس المدرسة المستنصرية التي أصبحت في وقتنا الحاضر الجامعة المستنصرية، وانشأ الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسين خزانتيــن للكتــب فــي دار الخلافة الخاصة ونقل إليهما نفائس الكتب، وكان يقضي بعض وقته بين الخزانتين بالتناوب..

ــ أما في **بلاد الشام** فأشهر أمراء سورية الذين اهتموا بالعلم والأدب وشجعوا عليه كان "سيف الدولــة الحمدانــي" فــي القــرن الــرابع الهجري وكان مقره حلب حيث اجتمع حوله أعظم الأدباء والشــعراء والعلماء أمثال المتنبي وأبو فراس وابن خالويه والفارابي، كما اهتم سيف الدولة بالترجمة والــنقل وكان عنده طبيب يدعى عيسى الرقي ينقل من السريانية إلى العربية، وقد أوجد سيف الدولة مكتــبة كــبرى جعلها في عهدة شاعرين أخوين مشهورين هما محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم وقد اشتهرا باسم (الخالديان).

لقد حفل هذا العصر والعصور التي تلته بمئات العلماء والبحاثة الذين عشقوا الكتب وأحبوها حبا" ملك عليهم ألبابهم ومشاعرهم وأنساهم ملذات الدنيا حتى الأهل والولد، و كانت دكاكين الوراقين مكانــاً يلتقــي فــيه الأدباء والعلماء والفضلاء يتذاكرون فيه الحوادث ويتناشدون الأشعار ويتجادلون ويتســاجلون ويبحثون آخر الأنباء والأخبار الأدبية، ويمكن القول: إن عمل دكاكين الوراقين في ذلك الوقــت يشــابه دور النشــر والمراكــز الثقافية أو الصالونات الأدبية في وقتنا الحاضر.. ولا بد من الإشــارة إلــى أن إعــارة الكتب كانت موجودة سواء أكانت إعارة خارجية أم داخلية، ولكنها كانت

تختلف من جهة إلى جهة أخرى ومن وقف إلى أخر، حتى جرت العادة أن الأدباء كانوا يستعيرون من بعضهم.

وباختصار يمكن القول: إن المسلمين نقلوا إلى لغتهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد وأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها. ويروى أن البحاثة والدارسين الأجانب والعرب كانوا يرسلون إلى خازن "المكتبة الوقفية" في حلب رسائل تتضمن تصوير أو تلخيص أحد الكتب التي تفتقر إليها مكتبات العالم..

2ـ ندوة الكواكبي تمحورت المشاركات حول رؤية المفكّر الحلبي عبد الرحمن الكواكبي لعصره فكرياً وسياسياً وتربوياً واجتماعياً، هذا الرجل الذي استشرف مبكراً هول الأخطار التي تحدق بالعالم الإسلامي ومركزه الحضاري "الوطن العربي"؛ فبدأ كتاباته في "الفرات" ثم "الشهباء" ثم "الاعتدال" وفي صحف أخرى خارج بلاد الشام وجمع أفكاره في كتابيه الهامين "طبائع الاستبداد" و"أم القرى" إلى جانب الكتب الأخرى المفقودة التي لم تصل.

وقد رسم الكواكبي صورة مؤتمر "أم القرى" وهو يمتلك الأسس الفكرية لتشخيص الداء ووصف الحالة واقتراح الدواء، ورأى أن أعراض الداء لدى المسلمين تتمثل بالجهل المطلق والخلل النازل وسوء العاقبة وراح يوجه اللوم إلى الأمراء والعلماء والعامة ملخصاً أسباب التخلف الدينية والسياسية والأخلاقية فضلاً عن أسباب أخرى ذكرها بالتفصيل.

وفي مجال التربية رأى الكواكبي أنّ الله خلق الإنسان وفيه استعداد للصلاح والفساد، وأن التربية هي التي تدفع الإنسان في إحدى الطريقين، وتنشأ بالتعليم والمران والقدوة الحسنة، فأهمّ أصولها وجود المربيّن، وأهمّ فروعها وجود الدين، وأكد أن الاستبداد يفسد الأصول والفروع فيحرف التربية عن مرماها الصحيح، ويقوّي خصال الكذب والخداع والنفاق.

كما وضّح أنّ للاستبداد أثراً سيئاً بكل ما له علاقة به، فهو يحوّل الدين إلى وسيلة استلاب، ويمنع تداول العلم، ويفسد الأخلاق والعلاقات الإنسانيّة، ويعزّز التفاوت بين الناس ليبقيهم في صراع دائم حول الامتلاك، ويجعلهم يتدافعون لإحراز الثروات. وفي شموليته هذه لم ينس الكواكبي معالجة وضع المرأة وضرورة الاهتمام به من حيث العمل والتعليم..

وكانت مشاركة د. محمد علي آذرشب من الجمهورية الإسلامية الإيرانية مميزة حيث شارك في ندوة الكواكبي ببحث طريف عنوانه قصة الناي في فكر الكواكبي ومهد لها بقوله:

"وقصة الناي معروفة في ديوان مولانا جلال الدين الرومي، المعروف بالمثنوي، هذه القصة التي تتصدر الديوان تشكل عصارة فكر هذا العارف الكبير، وخلاصة مشروعه الاستنهاضي" ورأى ثمة مشتركات كثيرة بين هذا الفكر ومشروع الاستنهاض الذي تبناه الكواكبي.

ووقف الباحث وقفة تحليلية عند قصة الناي، فبعد الغزو المغولي للعالم الإسلامي أصيبت الأمة بحالة أشبه ما تكون بالوصف الذي أطلقه الكواكبي على الأمة بعد عصر الغزو الاستعماري الحديث وهو: الفتور العام الذي هو وراء كل تخلّف معنوي ومادّي بين البشر، ويصيب الأمة بعد أن تفقد أهم عنصر من عناصر حيويتها وهو العزّة.

ثم تحدث د. آذرشب عن علاقة الفتور بالاستبداد، وبين أن الكواكبي عالج الأمر من منظور حضاري، وهو أن التخلف الحضاري يفرز الاستبداد إفرازا ذاتياً.

فالإنسان حين يفقد عزّته الحقيقية يبحث عن عزّته السرابية، وهذا مغزى "قصة الناي" فحين لا يكون في الناي نارٌ، يعبث فيه الهواء، وبالتعبير القرآني حين لا يجد الظمآن ماء يتجه إلى السراب الذي "يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً"..

واستنتج الباحث أن مشروع الكواكبي في الإصلاح لا يتجه إلى معالجة الاستبداد السياسي كما هو الشائع، بل معالجة حالة الاستبداد الطبيعية التي يفرزها الفتور أو التخلف الحضاري، وهذا التخلف الحضاري لا يمكن معالجته إلا باستنهاض الروح الإنسانية في الموجود البشري واستثارة الأشواق التكاملية فيه مع استشعاره بعزّته، وهو مشروع جلال الدين الرومي ، كما هو مشروع الكواكبي الذي يتضح بصورة أدبية رائعة في قصة الناي.

وقدّم د. حسن حنفي الكاتب المصري المعروف مشاركته تحت عنوان: "جدل الاستبداد والفتور" وقارن بين "طبائع الاستبداد" و"أم القرى" عند الكواكبي ، ورأى أن "طبائع الاستبداد" هو ما يذكر غالباً، كونه الأشهر والأقرب إلى الحالة النفسية للعرب المعاصرين؛ وذلك على أهمية "أم القرى" الذي حلل فيه الكواكبي أسباب "الفتور" في العالم الإسلامي، واللامبالاة التي يقابل بها المسلمون العالم مهما اشتدت الظروف وتوالت المصائب.

وربط الباحث بين استبداد الحكام وفتور الشعوب، ورأى أن الكواكبي حاول فك الارتباط بين الاثنين فبحث في "طبائع الاستبداد" عن أسباب الاستبداد، وبحث في "أم القرى" عن أسباب الفتور الدينية والسياسية والاجتماعية لدى الحكومات والعلماء والقضاة والأمراء والطرق الصوفية والدولة العثمانية وتقليد الغرب.

•أما في مجال آراء الكواكبي والقومية فتحدث د. ستار جبار الجابري من العراق ورأى في ورقته أن عبد الرحمن الكواكبي عملاق من عمالقة التجديد في الفكر العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر، فهو مُصلح اجتماعي ومفكر سياسي ومجدد إسلامي، شارك في حركة اليقظة وتنبيه الأمة، ونصّب نفسه لمهمة النقد البصير، وكشف العلل والأخطاء ومقاومة الفساد، وجعل من قلمه صرخةً مدويةً هزّت الأرض هزّاً، فكشف مساوئ الاستبداد وفضح أساليب المستبدين، واستحثّ

العـزائم علـى المقاومـة والـتحدي، ودعا إلى إصلاح المجتمع والارتقاء به ، ودعم مبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية .

وأكـد د. سـتار علـى أن حركة الإصلاح التي قام بها عبد الرحمن الكواكبي في أواخر القرن التاسـع عشـر، ومطلع القرن العشرين لا تزال مستمرة بصورة تَتَناسَبُ وطبيعة العصر وتَتَلاءَمُ مع متغـيّراته ولم تتوقف هذه الحركة عن العطاء قط ، ولم تحدث قطيعةٌ بينها وبين الحركة الإصلاحية الـتجديدية العمـيقة التـي تَتَواصَل في العالم الإسلامي في هذه المرحلة بأساليب متطوّرة، وبمناهج حديـثة، وبفكـر جديـد يسـتمدّ أصوله من الفكر الإسلامي المستنير بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية وبعطاء الحضارة الإسلاميّة المتواصل .

وخـتم الباحـث كلامـه بالتأكـيد على أن عبد الرحمن الكواكبي يعد أحد أبرز أعلام النهضة العربـية، ومجـددا لا يجارى في هذا الميدان، حيث يمكن عدّه متقدما على زمنه، مقارنة بالأوضاع التي كانت تمر بها أمته من تخلف واستبداد .

***راهنـية فكـر الكواكبي قراءة في طبائع الاستبداد**: كان عنوان البحث الذي قدمه د. محمود الوهـب، الذي بدأ مدققاً في عنوان بحثه، مشيراً إلى أنه يعني بالراهنية الإطار العام لفكر الكواكبي، إذ ليسـت كل أفكار الرجل مستمرة فينا فبعضها، وهذا أمر طبيعي، تجاوزناه بفعل الزمن، وقد طالب الكواكبـي الناشـئة بالمحافظـة على آداب قومه وعاداتهم غاية المحافظة، مع إقراره بأن فيها بعض السـخف.. والكواكبي في نظر الباحث، عندما يحلل ظاهرة الاستبداد يحلق إلى أبعد مدى إذ يغوص فـي عمـق الفكرة وفي عمق النفس البشرية.. حتى لا تخاله باحثاً أو مفكراً بل فيلسوفاً على صعيد السياسـة والاقتصـاد والمجتمع، لكنه حين يتحدث حول بعض المسائل ذات الحساسية الخاصة، تراه يحـوم حولها ولا يدخل إلى الجوهر بل يحاول التوفيق بين هذا وذاك، وكأنه لا يريد النقد الشامل بما أتى به، على الرغم من موقفه التغييري وجوهره المسألة الاجتماعية.

وخـتم الأسـتاذ الوهـب كلامـه بـالقول: إن ما يميز الكواكبي من سواه من المفكرين الذين عاصـروه، هـو ارتـباطه الوثيق بالواقع وبضرورة العمل على تغييره، وهو على الرغم من ثقافته الواسـعة، ومن اتهام البعض له بأنه اقتبس مؤلفاته من المتنورين الأوروبيين والفرنسيين منهم بشكل خـاص، إلا أن القـارئ المتفحص لفكره يجد أن الكواكبي كان منشغلاً بواقع بلاده وفي البحث عن الأساليب الكفيلة برفع الظلم عن كاهل أبناء جلدته، وأشار الباحث إلى بعض الأفكار الأخرى التي لا تزال تكتسب راهنية ومعاصرة.

الكواكبـي والدولـة الحديـثة: محور ورقة عمل قدمها الأستاذ عبد الرحمن الحاج وهو باحث سـوري، ابـتدأ حديـثه عن إطار عصر الكواكبي حيث تشكل الحقبة التي أبدع فيها الكواكبي فِكرَه

وكـيف اسـتوعب قسطاً وافراً من مفهوم الدولة الحديثة، وولّد من داخل ثقافته الإسلامية ومفاهيمها الدينية تصورات فكرية وسياسية تواكب هذا التطور.

ويلفت الباحث النظر إلى أن مفهوم الاستبداد الذي اشتهر به الكواكبي يبرز لأول مرة في تاريخ الإسـلام في تلك الفترة، لتوضح عبر هذا المفهوم ومفاهيم أخرى الكيفية التي استوعب فيها الكواكبي الدولة الحديثة، وتحاول الورقة أيضاً المقارنة مع الأفكار الإصلاحية التي ذاع صيتها في نهاية القرن التاسـع عشـر، والتـي كان الكواكبي على مقربة منها، مثل أفكار الأفغاني ومحمد عبده، وغيرهم، لتبرز النقاط التي كان الكواكبي رائداً فيها.

تحـت عنوان "الكواكبي والدين" جاءت مداخلة د.أسعد السحمراني قادماً من لبنان الشقيق، وقد بدأ د. السحمراني ورقته بالقول:

لا يسـتطيع شـخص أن يـتحدث عن حلب الشهباء دون أن تكون محطة الكلام مع السيد عبد الرحمن الكواكبي المفكر الإصلاحي والعلم في الفقه السياسي، وصاحب المواقف التي تختزن الإبداع مـع الخـبرة مـع الـثقافة مع الجرأة والشجاعة. ولا يستطيع دارس أو باحث أن يتوقف مع السيد الكواكبـي ثائـراً ومفكراً ومناضلاً ضد الاستبداد والظلم والتخلف دون أن يتوقف مع مدينة حلب ــ وهي في هذا العام عاصمة الثقافة الإسلامية ــ هذه الحاضرة التي تختزن سيرتها دوراً عربياً ثقافياً، ويحتضن تاريخها كوكبة كبيرة من الأعلام الذين كانت لهم مساهماتهم في مسار الحضارة الإنسانية، وفـي حقـل الثقافة العربية، وفي الفكر والفقه الإسلامي والمسيحي، والكواكبي كان متميزاً لكنه ليس وحـيداً فمديـنته التـي أحـبها وأحبـته جعلت منه درة في عقد دررها التي تباهي به سائر المدن والحواضر.

يؤكـد الكواكبي على أن الإسلام دين التوحيد، ودعوة لتوحيد الكلمة بعيداً عن الفرقية والانقسام: "فبعضهم أحلّ المذهب والفرقة والطائفة مكان الدين، وهذا ليس من الدين، فكل أهل الإسلام يجب أن يجتمعوا صفاً واحداً امتثالاً لأمر الله تعالى: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا"..

ورأى الباحـث أن هذا النص يظهر الكواكبي عالماً دقيق الملاحظة، فهو يميّز بين منظومة القيم الأخلاقـية وهي واحدة في رسالات السماء جميعاً وهي محققة لكرامة الإنسان محاربة للظلم والفساد والطغـيان، وبيـن الإضافات البشرية التي تأتي حاملة لمفاهيم بشرية، ومقاصد يرمي إليها من كتب النصوص.

وحـول محـور "المـرأة فـي فكر الكواكبي" رأت د. وجدان عناد من العراق أن الكواكبي من الشخصـيات المهمـة في تاريخ الأمتين العربية والإسلامية، فقد كان فكره صرخة مدوية لإيقاظ أمة بأسـرها تعانـي مـن التخلف والاضطهاد تحت نير الاحتلال، إنه صاحب دعوة للإصلاح السياسي والاجتماعي، وعمل بإخلاص لتحقيق النهضة العربية والتخلص من الضعف والانحطاط والعجز.

أما المرأة فقد شغلت نصيباً مهماً من تفكير الكواكبي، لأنه كان يؤمن بمكانتها في المجتمع، وقد قسمت الباحثة ورقتها إلى مبحثين، اختص الأول بحياته وأسرته وتعليمه وأعماله وكتبه، بينما تناول الثاني آراءه في المرأة، وأهمها حسب رأي د. وجدان أنه كان يراها نصف المجتمع، لكنه وجّه نقداً لاذعاً لهذا النصف الذي تمثله المرأة، فهي عاجزة وعاطلة ومتكلة على الرجال، كما وجه إليها نقداً آخر لأن قدراتها وإمكاناتها كبيرة وكثيرة لا تقل عن قدرات الرجال، ورفض أن تختار الأعمال الهينة متذرعة بالضعف، ودعا بقوة إلى تعليمها وانتشالها من الجهل والظلام السائد، وخلصت الباحثة إلى القول: إن أهمية رأي الكواكبي بالمرأة مردها إلى أن صوته علا من أجلها في وقت كان فيه المجتمع يسلبها حقوقها، فانبرى ينتقد وضعها والانتهاكات المتكررة لحقوقها ووقف مستغرباً من الإصرار على تجهيلها وحجبها عن الساحة العملية في المجتمعات الإسلامية بحجة حمايتها وحماية شرفها، في حين رأى أن لانحلال الأخلاق سبباً مهماً آخر وهو ترك النساء جاهلات على خلاف ما كان عليه السلف الصالح.

• شارك د.عبد الرحمن حللي ببحثه الكواكبي ومالك بن نبي مصوراً العالم الإسلامي قبل سقوط الخلافة وبعدها مبيناً أن من أهم الرؤى التي ركز عليها رجال الإصلاح نقد نظام الخلافة العثمانية، وذلك ضمن إطار رؤيتهم للعالم عموماً والعالم الإسلامي خصوصاً، وكانت للكواكبي رؤية استشرافية لما يمكن أن يكون بديلاً عن نظام الخلافة في إطار العلاقة بين بلدان العالم الإسلامي، فقدم تصوراً افتراضياً من خلال ما أسماه مؤتمر النهضة الإسلامية "أم القرى" وكان بذلك مدركاً لتحولات العالم وموقع العالم الإسلامي فيه وكيف يمكن للمسلمين أن يحققوا وجودهم ومكانتهم في هذا العالم الذي لم تعد الخلافة -التي لا تزال قائمة شكلياً- قادرة على تجسيد مصالحه ووحدته، فقدم الكواكبي رؤيته قبل ربع قرن من سقوط الخلافة الذي جاء تأكيداً لاستشرافه؛ وأكد الباحث أن أهمية البحث في فكر الكواكبي تعود إلى أن رؤية العالم لدى رجال الإصلاح ترتبط بتحولات زمانهم، بينما يفتقر الخطاب الإسلامي المعاصر إلى رؤية عميقة تدرك تحولات العالم اليوم.

3. ندوة الحياة الفكرية والأدبية في بلاط سيف الدولة:

شارك في هذه الندوة نحو أربعين باحثاً من بلدان عربية عدة وحضر عدد كبير من أساتذة وأدباء لبنان الشقيق إضافة إلى أدباء من إيران.

• كان بحث د. سهيل زكار في الندوة بعنوان **"تاريخ الدولة الحمدانية"** مبيناً دخول سيف الدولة حلب وقيامه بالدفاع عن الثغور وعن حلب في وجه بيزنطة، والعطاء الحضاري في زمن سيف الدولة وهذا المشروع كبير جداً إذ شكل معلماً من أهم المعالم في تاريخ الحضارة العربية وتاريخ بلاد الشام.

وأوضـــح أنه مع دخول سيف الدولة إلى حلب بدأت بلاد الشام تسترد شخصيتها الثقافية العربية والعالمية وهذه الشخصية تمتد إلى ما قبل الإسلام وظهرت في ظل الدولة الأموية في أيام عبد الملك والولـــيد ابن عبد الملك ولما كانت حلب تستعد لفتح القسطنطينية ووصول الفتوحات إلى منابع الفولغا حدثـــت ثورة الدهاقيل أو الثورة العباسية وحصلت انتكاسة، فلما دخل سيف الدولة حلب رجعت حلب لتقوم بدورها المحلي والعالمي ومن هذا الباب تأتي أهمية هذه المرحلة.

• فـــي بدايـــة مشاركته تساءل د. محمد عبد الرحمن العريفي من السعودية: لماذا يذكر التاريخ ســـيف الدولـــة ويغفـــل غيره ممن عاشوا بحلب؟..وأجاب: إن الحديث يكون دائماً عمن تميزوا في الـــتاريخ وكان لهم دور بارز في مختلف مجالات الحياة الفكرية والدينية والثقافية والعلمية وغيرها.. فســـيف الدولـــة الحمداني كان متميزاً ومؤثراً في عصره وكان دائماً في المقدمة وها قد مضى على موتـــه أكثر من ألف سنة ولا يزال الناس يذكرونه وما كان سيف الدولة يعيش لنفسه وإنما كان يعيش لغيره وكان يريد أن يقدم لغيره.

• وتحـــدث د. بكـــري شـــيخ أمين عن ثقافة سيف الدولة الحمداني الأدبية والعسكرية وبيّن أنه لشرف كبير لمدينة حلب عاصمة الثقافة الإسلامية أن تتطرق لهذه الفترة حيث قدم سيف الدولة للعالم وللتاريخ آثاراً لا تزال خالدة.

وقـــال د. أميـــن: لم أصف مدينة حلب بالمدينة المباركة لكوني أحد أبنائها وإنما ارتكزت على حديث نبوي شريف يتناول أهمية قنسرين التي هي من أحياء حلب..

وبيـــن الباحـــث أن سيف الدولة لم يكن إلا واحداً من السيوف والشموس التي سطعت على هذه المديـــنة الطيـــبة، وأنه في بضع سنوات من عمر الزمان صنع الأساطير وسجل البطولات وحقق ما يشـــبه المستحيل من خلال عبقريته وكونه عربياً خالصاً من نسل بني حمدان وكان بنو حمدان ملوكاً وأمراء اتصفوا بكل الصفات العربية الأصيلة.

•أمـــا د. **حســـين جمعـــة** رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية فشارك ببحث غني مهم تحت عنوان: **"فلسفة القوة في شعر المتنبي"**

عـــرّف الدكتور الباحث الفلسفة بقوله: "إنها الوقوف على حقائق الأشياء كلها على قدر ما يمكن الانســـان أن يقـــف عليه" ... أما القوة فهي تؤسس للخصائص الذاتية والموضوعية للمبدع، والإبداع بما يمتاز به من الشمول والوحدة الجامعة لمختلف الصفات ..

وأضـــاف: لهذا نجد أنفسنا مبهورين بقوة الارادة التي كان المتنبي يتصف بها ورسم بها مواقفه وإنتاجه الأدبي الذي خلده.

ثـم تحدث المحاضر عن مكونات فلسفة القوة كاشفاً عن البعد الحقيقي لمكوناتها نفسياً واجتماعياً وثقافـياً وفنـياً علـى فـرض أن المتنبـي ينطلق منها إلى تشكيل صورة، لذلك نجد أن فلسفة القوة والـتفاخر لديـه ذات أشكال ومظاهر عديدة يرجع إلى بعد يتعانق فيه النفسي بالاجتماعي إلى درجة التعانق العضوي لذلك نجد أن رؤيته الذاتية المبدعة كانت تتفاعل مع بدهيته وفطرته الإبداعية والتي تمتزج برؤية موضوعية ملبية لها.

وأشار د. جمعة إلى أنماط القوة وفلسفتها في شعر المتنبي أسلوباً وتخييلاً وأفكاراً، على اعتبار أن الأسـلوب هو الإنسان وهو الذي يرسم خصال المرء وسجاياه وأن التخيل أو التخييل قوة مصورة تـري الإنسـان صـورة الأشياء الغائبة حتى يُخَيَّل إلينا أنها حاضرة وتسمى (القوة المصوّرة)، وأن الأفكـار تجـيء وفـق أحوال النفس والأحداث والثقافة التي تحيط بها سواء كانت وفق مبدأ تداعي الأفكـار، أم مـبدأ الاقتران والافتراض والخبرات؛ ما يؤدي إلى حصول معنى ما في الذهن يصاغ بلغة حقيقية أو رمزية أو مجازية أو إشارية لتدل على فكرة صاحبها ومشاعره.

وبيـن د. جمعة أن المتنبي مارس في إبداعه أنماط الإرادة التي أشار إليها في بداية حديثه، وقد انتقلـت هـذه الأنماط من إطار الذات إلى الموضوع، وهي ذات عارفة بقيمة ما يملك وبقيمة أشكال القـوة في تموضعها الخارجي، ومن ثمّ شغلته كينونة وجوده قبل أن تشغله كينونة الآخرين؛ ما جعل فنه ينمو ويتطور إضافة واستمراراً، ليصبح وجوده الإبداعي علامة للفن الأصيل الموسوم بالعلاقات الجمالية العديدة.

ويخلص الكاتب إلى أن فلسفة القوة والتفاخر لدى المتنبي ذات أشكال ومظاهر عديدة ترجع إلى الانطـباعات دون انعـدام وجود التراكم الفكري والفني الذي يعزز لديه استثارة من نوع آخر ليثبت استجابة مغايرة تتوافق مع رؤيته إلى الحياة والكون.

ولا شـيء أدل علـى ذلـك كله من مدح المتنبي لسيف الدولة وعتابه في آن معاً في قصيدته المشهورة ومطلعها:

واحـرَّ قلـباهُ ممـن قلـبُهُ شَـبِمُ ومـن بجسـمي وحالـي عـنده سَـقَمُ

وقد توقّف المحاضر ملياً عند تجليات صورة القوة والإرادة في شعر المتنبي" مؤكداً:

"أن المتنبـي لم يعش يوماً حالة من الانكسار سواء تمثل في الاغتراب النفسي أم الاجتماعي أم غـيرهما. فهو حاضر أبداً، يشدّه طموحه إلى أعماق نفسه ووجدانه ليطمس كل قلق أو اكتئاب مفتشاً عن آماله الكبرى بعد كل تجربة مخفقة يصاب بها كما ورد في مدح كافور الإخشيدي ولاسيما قوله:

وتعذلنـي فـيك القوافـي وهمّتـي كأنـي بمـدح قـبل مَدحِـك مُذْنِبُ

ولكـــــنه طـــال الطـــريق ولـــم أزل أُفــتّش عــن هــذا الكــلام ويُنْهَبُ

وهـذا الاختيار الحر لممارسة فلسفة القوة وفق مفهوم إرادة الاختيار ــ كما جاء في البحث ــ إنمـا يكشـف عــن الاستبطان الداخلي لحقيقة نفس المتنبي وما تملكه من تكوين يبرز تجليات القوة والإرادة باعتبار ما نشأت عليه من مفاهيم ومُثُل.

ومـا أوردتــه في هذه العجالة غير كاف للوقوف على غناها ومن ثمّ أنصح القارئ بالعودة إلى النص الأصلي للمشاركة فهو بحث قيم يستحق القراءة كاملاً

* أمـا د. حسن حنفي من مصر فكان بحثه تحت عنوان (من جدل اللغة إلى حوار الحضارات) وقـد بيّـن مـن خلالــه أن بلاط سيف الدولة كان يضم كمّاً كبيراً من شعراء وفلاسفة؛ ونوّه بدور الفيلسـوف الفارابــي آنــذاك؛ والــذي شكل مفترق طرق ثقافية ولغوية في بلاد الشام لما يمتلكه من معرفة في اللغات مشيراً إلى اعتماده على التحليل في نظرياته والاعتماد على العقل بمفرده للوصول إلى الحقائق..

وأضــاف د. حنفي أن الفارابي يتمتع بقدرة كبيرة على الفهم العقلاني الذي لم يترك له أبواباً أو فصــولاً، وقد أراد الفارابي دائماً أن يُري الناس كيف يفكر العقل وكيف يستطيع الفيلسوف أن يفكر. ثـمّ بيــن الباحــث أن الفارابي عرض ثلاث قضايا رئيسية عندما حسم قضية العلاقة بين بين اللغة والمــنطق وكــيف تتشكل الحروف ألفاظاً ومن ثمّ أسماء ومقولات وأن كل شيء يحدث انتقالا من الجزء إلى الكل.

وقــد أشــاد الباحث في نهاية مشاركته بعظمة اللغة العربية مقارنة بباقي اللغات؛ لأن اللغة هي مــنزل الوجود دون أن تمر بعالم المعاني مؤكداً أن الفلسفة ليست هي أم العلوم بل اللغة، وأن العلوم أولهــا علــم اللســان وعلم التعاليل والعلوم الرياضية وعلم المنطق الذي هو مدخل إلى كل العلوم ثم الحكمة المنطقية.

أمــا د. محمود الربداوي فكانت مشاركته في هذه الندوة تحت عنوان: حوار الثقافات وليد المناظرات مع اختلاف أدوات العصر..

"مــا علاقــة حــوار الــثقافات بالمــناظرات الأدبية؟!.." سؤال طرحه وأجاب عليه د. محمود الــربداوي مؤكداً أن ظاهرة حوار الحضارات أو الثقافات هي وليدة المناظرات مع اختلاف معطيات العصــر وأدواتــه، وأنهــا ســليلة هــذه المناظرات التي اختصرتها أفكار المعتزلة واختزلتها أذهان المتكلمين وبلغ ازدهارها في هذا البلد (حلب) مكاناً وفي عصر سيف الدولة ومفكريه وأدبائه زماناً.

عــرّف د. الــربداوي مصطلح "المناظرة" ومصطلحات أخرى قريبة منها كالمجادلة والمحاورة والمباحثة والمناقشة والمعارضة والمناقضة وغيرها، وكلها تقوم على قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختــلف فــيه المتــناظرون، ويســتعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات والتنصل والاعتذارات، ويدخل في الشعر والنثر والأدب.

وبيــن د. ربــداوي أن جذور المناظرة تعود إلى بزوغ فجر الإسلام، كما يرى بعض الدارسين الذيــن يــرجعون أوائــل نشوئها إلى ما ناظر به القرآن الكريم المشركين والكفار وأصحاب الديانات الأخــرى، وأنها ــ أعني المناظرة ــ تطورت وتعددت أغراضها فيما بعد فكانت دينية حيناً وفلسفية تارة أخرى أو أدبية وسياسية وحربية حيناً آخر.

وقــد صــنف د. الــربداوي الشاعر الفارس "أبو فراس الحمداني" على رأس قائمة المناظرين كأديــب ومحــاور أو كمــناور سياســي، فابو فراس ناظر الدمستق عظيم الروم في مقومات الهوية العربية، وفي خصائص الأمة العربية وموروثاتها، وفي آداب الحرب ونظام تبادل الأسرى، والتقاليد التــي يتــبعها العــرب فــي معاملــة الأســير كجزء من المبادئ والقيم الإسلامية التي أثلتها الدولة الحمدانــية.. وقــارن المحاضــر بين هذا المدى الرحب للمعاملة الإسلامية الإنسانية للأسرى وبين شريعة الغاب الكبرى المتبعة في (غوانتنامو) و(أبو غريب) ومعسكرات السجون في صحراء سيناء، وأشــار إلــى أن شــرعة الحرب ستظل من مكونات الأمم قديما وحديثاً،ولا سبيل لإلغائها ما دام في الدنيا قوي وضعيف.

وبين د. ربداوي أن مساحة المناخ الفكري لهامش الحرية التي كانت متاحة للمناظرين في بلاط ســيف الدولــة، كانــت أعمــق من هامش المساحة الفكرية في عصرنا هذا، عصر العولمة وادعاء الديمقراطــية، وكــان شاهده قصيدة أبي فراس الحمداني الشهيرة التي تعتبر نموذج مناظراته للروم ومطلعها:

أراك عصــي الدمــع شــيمتك الغدر　　　أمــا للهــوى نهــي علــيك ولا أمــر

إلى أن يرد على دمستق الروم الذي منّ عليه ترك ثيابه الحربية وسلاحه حين أسره يقول:

يمــنون أن خلّــوا ثيابــي وإنمــا　　　علــي ثــياب مــن دمــائهم حمــر

وقــائم ســيفي فــيهم دون نصله　　　وأعقــاب رمــح فــيهم حطــم الصدر

ويشــير د. ربداوي إلى أنه على الرغم من نجاح أبي فراس (كونه ابن عم سيف الدولة) في أن يعبــئ في صفه كثيراً من رجال الفكر والأدب الذين التفوا حوله تملقاً له وإضراراً بالمتنبي الذي غدا

منافساً شديد الخطورة عليهم، إلا أن مناظراتهما كانت خالية من الأذى، فأبو فراس كان قائداً عسكرياً فذاً.. لكنه في الشعر كان يضع عصا الطاعة للمتنبي ويعترف بتفوقه عليه.

ولم تقتصر المناظرات عليهما، بل كانت هناك مناظرات كثيرة تحصل بين علماء البلاط بحضور سيف الدولة الذي كان يلذ له أن يحفز المتناظرين ليستمتع بمناظرتهما، وكما يقول الثعالبي صاحب يتيمة الدهر: "لم يجتمع بباب أحد حتى الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر"، لمَ لا وهو الذي حاز ميزتي الحرب والأدب فكان إذا أنجز انتصاراً حربياً سرعان ما يحاول أن يؤثله بمجد أدبي، وعنده كل المؤهلات لذلك، فهو شاعر ذواقة يطرب للشعر، ويقرب الشعراء فقد استقطبت حلب الشعراء والأدب، الذين غادروا دار الخلافة في بغداد ويمموا شطر حلب منتجعين سيف الدولة.

• ألقى د. محمد بشير العامري بحثه عن "الشعراء في بلاط سيف الدولة"، وأشار فيه إلى أن البلاط ازدهر في حلب آنذاك بعمالقة الشعر والأدب العربي من مختلف الولايات الإسلامية من الكوفة والموصل وبغداد وغيرها لأسباب عديدة ساعدت على جذب الشعراء أهمها: المكانة السياسية والعسكرية التي يتمتع بها سيف الدولة؛ والمنافسة بين الشعراء وحسن الكرم والضيافة وازدهار صناعة الورق في ذلك العصر.

•وأعقبه الدكتور علي زيتون بورقة عمل عن مفهوم الشعر في كتاب "الأغاني" مستعرضاً هذا المفهوم الذي يتعلق بوظيفته وطبيعته وارتباطها بالحساسية الشعرية والتأثير على المتلقي مبينا أن كتاب الأغاني قدم لنا الشعر على هامش موضوع الغناء.

• أما د. متري نبهان من لبنان فتحدث عن تألق حضور المتنبي في بلاط سيف الدولة، مشيراً إلى أن المتنبي كان يتفاعل مع موضوعه وجداً ووجوداً؛ فيمد جسور العلاقة بين ذاته وذوات الآخرين ويفرض ثقافته على مفاصل القصيدة فتتكامل خلقاً وتشكيلاً مبيناً العوامل المكونة لشخصيته التي جعلت منها شاعراً يتألق عطاءً وحضوراً وقوة.

• وتناول الدكتور حسين الصديق موضوع "السياسي والثقافي في بلاط سيف الدولة" أشار فيه إلى عدة نقاط أهمها مفهوم السلطة السياسية ووظيفتها عند الفارابي والعلاقة بين الفارابي المثقف وسيف الدولة الأمير؛ مبيناً أن سيف الدولة كان قد جمع المزيد من المثقفين حوله لإضفاء صبغة شرعية ومجد لبلاطه يشع نورا وعلما ومعرفة.

• وكانت ورقة عمل د. وفيق سليطين من جامعة تشرين حول " ثقافة القصيدة وحكومة الأمير" ركز فيها على ثلاثة محاور هي العلاقة بين المجلس والقصيدة وقوة المعرفة بين النقض والكشف وسلطة النص وقواعد إنتاج المعنى مبيناً أن الغاية من ذلك الوصول إلى بحث يثير أسئلة بشأن الحياة الثقافية؛ ولا يكتفي بتزويد مصادرها فقط، إضافة إلى إقامة جسور الوصل بين الماضي

والحاضر والمستقبل انطلاقا من موقفنا الحالي ومشكلاته الرئيسية بخصوص الثقافة والهوية والمعنى.

* والقى د. محمد عبد الرزاق أسود بحثا بعنوان: "التعددية والمسامحة بالمذهبية الإسلامية في عهد سيف الدولة" أشار فيه إلى خمسة محاور أساسية ركزت على علماء وقضاة المذاهب الإسلامية قبل سيف الدولة وفي عهده إضافة إلى الحرية الذهبية الإسلامية في عهده وكذلك مدى التزام المسلمين بالتسامح المذهبي في حياتنا المعاصرة مبيناً أن الهدف من ذلك هو الاستفادة من تجارب الماضي بالتسامح الديني الذي كان يسود حلب في عهد سيف الدولة ومازال حتى يومنا الراهن للم شمل الأمة وتوحيد صفوفها في مواجهة التحديات .

* **وشارك د. رضا رجب ببحث مهمّ تحت عنوان**

ابن خالويه وجهوده اللغوية في بلاط سيف الدولة

وهو بحث يتضمن بالتفصيل حياة العالم اللغوي ابن خالويه الذي قدم إلى رحاب سيف الدولة وأقام في حلب وبلغ موقعاً متقدماً عند سيف الدولة حتى صار أستاذه وأستاذ أولاده.

ثم صار طرفاً في الخصومات الأدبية التي كانت قائمة في حلب وكان في الخندق الآخر المواجه للمتنبي ومجموعته التي كان أبرز أعلامها أبو علي الفارسي وابن جني، وتطرق البحث إلى خطورة هذه الخصومة التي ساهمت في رحيل أبي علي الفارسي وابن جني وفرار المتنبي أخيراً من حلب.

ثم تعرض البحث لآراء النقاد في ابن خالويه كما تعرض لموقعه الأدبي واللغوي، وثم رصد وتحليل لمؤلفاته المطبوعة والمخطوطة ومن أشهرها:

ـ شرحه لمقصورة ابن دريد وقد كان أستاذاً له وكتابه الشهير "ليس في كلام العرب" وأخيراً شرحه وجمعه لشعر أبي فراس الحمداني، و كان ابن خالويه معجباً بأبي فراس وكان حليفاً له في خصومة المتنبي، وقد أثار الباحث مسألة الاهتمام بتراث ابن خالويه وطبع مالم يطبع من كتبه وإعادة طباعة بعض ماطبع منها ولا سيما ديوان أبي فراس الحمداني باعتبار أن الشاعر حلبي وأن جامعه وشارحه حلبي وأن محققه هو أحد أعلام حلب الكبار المرحوم الدكتور سامي الدهان وخاصة أن حلب عاصمة الثقافة الإسلامية في هذا العام ومن الوفاء أن تحتفي بعمل تراثي اجتمع عليه ثلاثة من أبنائها الكبار

ومن المعروف أن الشاعر د. رضا رجب حقق "كتاب الفسر" لابن جني قبل عشر سنوات، ويعتبر تحقيقه من أهم ما كتب حول هذا الكتاب..

*كما تحدث الأستاذ مصطفى صمودي عن الفلسفة في بلاط سيف الدولة مبينا أن التاريخ نوعان تاريخ حياة وتاريخ فكر مشيرا إلى أن سيف الدولة يعامل الآخرين بما يريد لأي كان .. وكان إدراكه كبيراً لما كان يحدث في مجلسه من شعر وفلسفة مشيراً إلى دور الفارابي الموسيقي والفلسفي في حياة سيف الدولة.

أما د. سعد الدين كليب فتحدث عن مفهوم الكمال عند الفارابي مبيناً أن الفارابي هو أول من أقام فلسفة الفيض وجعل من الكمال أس الأسس الذي بني عليه الوجود، وبين أن نظرية الفيض لها مدرستان مدرسة الإسكندرية ومدرسة حران وأن أساس منهج الفارابي في الفيض هو: الكمال الوظيفي والكمال القيمي، وكأن للفارابي مدينة فاضلة واحدة لكن له العديد من المدن المناقضة للمدينة الفاضلة، لكن المدينة الكاملة قيمياً هي المدينة الفاضلة.

*وتحدث د. أحمد فوزي الهيب عن جدلية الموت والحياة عند أبي فراس مشيراً إلى أن الموت هو نهاية كل حي مهما طال به البقاء ولعله الحقيقة الوحيدة التي اتفق عليها الناس جميعا رغم اختلاف عقائدهم ومذاهبهم وأضاف: لقد عرف أبو فراس الموت قبل ولادته إذ ورثه في صبغياته من قبيلة ذات أمجاد خالدة تمتد جذورها إلى الجاهلية.

ورأى أنّ الحمدانيين يمثلون العنصر العربي وأن السبيل لبقائهم هو المجد والبأس والجود وغيرها من المثل العربية العليا، وتحدث الباحث عن نشأة "أبو فراس" على الفروسية في بلاط سيف الدولة بحلب بعدما انتقل من الموصل اثر مقتل أبيه وتعلم فنون القتال والعلم والأدب وغير ذلك من صفات الإمارة والفروسية فيه، واستطاع أن يقوم بما تفرضه عليه واجبات الإمارة خير قيام فكان دائماً على أهبة الاستعداد لتلبية ما يطلبه منه سيف الدولة من مهمات، وخلال فترة أسره لم يبتعد عن الموت وإنما كان يشعر به ويتغنى بذكره، ويركض إليه ركضاً لاهثاً سريعاً متكرراً لا يعرف راحة أو بطئاً حتى ظفر به وعانقه عناق الحبيب لحبيبته بعدما ظل يطلبه طوال عمره طلباً حثيثاً تدفعه إليه قوة كامنة عميقة كاسرة لا تقهر، ظفر بالموت شجاعاً كما يريد بضربة سيف.

*وتحدث الأب أغناطيوس ديك عن علاقة سيف الدولة مع المسيحيين مشيراً إلى الحضور المسيحي اللافت في زمن سيف الدولة الذي كان منفتحاً على الآخرين وعلى أديانهم، وخير مثال على ذلك البطريرك "خرستيفوروس الأنطاكي" الذي بقي موالياً لسيف لدولة واستشهد بسبب ولائه له.

*وتحدث الأستاذ محمد كمال عن المتنبي وسياسة الوفاق الداخلي مبيناً موقف الشاعر المتنبي من سيف الدولة إذ كان يراقب الأحداث ويحرص على استكمال المسيرة والوصول إلى استقلال الحكم العربي وتحقيق الآمال المنشودة، وأن المتنبي كان بمواقفه يقوم بدور الوسيط المخلص لكلا الطرفين (القبائل ــ والحكم) ويعيد التوازن إلى السياسة الداخلية بعد أن كانت تعصف بها رياح التمزق والخلاف..

هذا وقد أغنيت جلسات هذه الندوة بمداخلات وتساؤلات عديدة ومهمة أجاب عليها المحاضرون بشفافية ووضوح.

6ـ ندوة الإسلام وحقوق الإنسان:

بالتعاون بين وزارة الأوقاف والأمانة العامة للاحتفالية نفذت ندوة الإسلام وحقوق الإنسان على مدار ثلاثة أيام وذلك على مدرج الطب الكبير في جامعة حلب، وشارك فيها العديد من المفكرين والباحثين السوريين والعرب، د.محمود عكام ، د. فهمي هويدي "مصر" وعبد القادر كتاني، محمد أديب ياسرجي، د. رضوان الحاف "سورية". د. علي جمعة، ابراهيم سلقيني، محمد صالح خرنوب، محمد نهى شيط، د.أحمد سمير التقي، د. عادل عزيزة، د.محمد سعيد رمضان البوطي تحت عنوان: د.زياد الدين الأيوبي، د. محمد علي العقلا، محمود مرشحة، د. ناصر الصالح، د. محمود حسي، د. علاء الدين الزعتري وهداية الشاش..

وأهم محاور هذه الندوة:

ـ حقوق الإنسان في التاريخ: تم الحديث ضمن هذا المحور عن حقوق الإنسان بالمطلق والتي أكد عليها الإسلام من خلال تعاليمه ونصوصه والتي كرم فيها الإنسان ذكراً وأنثى.

وتحدث المشاركون عمّا آلت إليه المجتمعات من تخلف حضاري وعمّا تعانيه في ظل الظروف الحالية رغم توفر كل الإمكانات البشرية والمادية وما تمتلكه نظرياً من قيم دينية ورأوا أن ذلك لا يعود إلى النقص في أساسيات ديننا الحنيف وإنما التوقف شبه التام عن محاولة التجديد والمعاصرة مما جعل الكثيرين يبتعدون عن التيار الديني إلى تيارات أخرى، ودعا المشاركون إلى الاعتدال الديني والبعد عن التعّصب والتطرف الذي يرفضه الدين الحنيف.

كتب بمناسبة الاحتفالية

أـ بمناسبة الاحتفال بحلب عاصمة للثقافة الإسلامية لعام 2006م صدر عن الأمانة العامة لمؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين كتاباً مجلداً بشكل أنيق بعنوان " شعراء حلب في معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين" في مئة واثنتي عشرة صفحة من القطع الكبير..

جاءت مقدمة الكتاب بقلم عبد العزيز سعود البابطين تحت عنوان: **حلب قصدنا**، وهو مأخوذ من البيت: كلما رحبت بنا الروض قلنا: حلب قصدنا وأنت السبيل

والبيت مأخوذ من لامية المتنبي المشهورة التي يمدح من خلالها سيف الدولة:

مـا لـنا كلـنا جـوٍ يـا رسـولُ **أنـا أهـوى وقلـبك المتـبول**

ومما جـاء فـي المقدمة: لم تكن عبارة شاعر العرب الأكبر المتنبي التي أطلقها منذ أكثر من عشـرة قرون تحمل شوقه وحده إلى هذه المدينة التي سامرت التاريخ منذ طفولته، بل تحمل أشواق العـرب جمـيعاً إلـى حاضـرة تتربع على تخوم وطنهم الكبير وكأنها نذرت نفسها أن تكون درعاً وسـياجاً لهـذا الوطـن، يكفي أنها قارعت الروم تسعة قرون كاملة، لم تخفض هامها أمام جبروتهم وصلفهم وظلت تناوئهم حتى طواهم التاريخ..

وفـي موضـع آخـر يقول: مدينة وجدت في العلم جوادها الأصيل الذي يعدو بها إلى بساتين القـدرة والمعـرفة، فاحتضنت المبدعين من كل الأرجاء، حسبها أن ضمت في مجلس المجاهد سيف الدولة والمتنبي شاعراً والفارابي فيلسوفاً وابن جني لغوياً، وأن في محيطها نبغ شاعران أنجدا ديوان الشـعر العربـي بأعذب قصائده: المعري والبحتري، ويكفيها أن أحد أبنائها (الكواكبي) هو أول من عرّى الاستبداد عربياً ودفع حياته ثمناً لهذه الجرأة.

أمـا عدد الشعراء المذكورين في الكتاب فبلغ واحداً وأربعين شاعراً، وهم الشعراء الذين وردت أسماؤهم في معجم البابطين.. ولا يخفى على أيّ منا أن عدد شعراء حلب أكثر من هذا بكثير.. ومن الملاحـظ أن عدد شعراء التفعيلة الواردة أسماؤهم في الكتاب قليل بالنسبة إلى العدد الكلّي.. حتى أن بعضـهم قـدّم نماذجـه العمودية قبل الحديثة، واستغنى آخرون عن أيّ نموذج حديث.. وقد وردت أسـماء الشعراء في الكتاب مرتبة حسب الأحرف الأبجدية، وثمة صفحة خاصة أو أكثر لكل شاعر تـبدأ بنبذة قصيرة عن حياته ومؤلفاته، مع القصيدة أو القصائد التي نشرت له في المعجم.. أما من لم تنشـر أسـماؤهم فيـبدو أنهـم قصّروا أو قصّر بحقهم مندوبو المؤسسة في حلب فلم يرسلوا بعض إنتاجهم للمؤسسة..

ومـن الأسـماء الواردة في الكتاب أسماء عدد من أعضاء اتحاد الكتاب العرب، ومنهم: محمد جـلال قضـيماتي، عـبود كنجو، أحمد دوغان، سعيد رجو، زكريا مصاص، نهاد رضا، لؤي فؤاد الأسـعد الـذي يقول الكتاب إنه عضو مؤسس لاتحاد الكتاب العرب، وعبدالله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد في حلب والتي لا تزال مستمرة في الصدور حيث تولى أمرها ابنه رياض بعد وفاته..

ب ــ وبالمناسـبة عيـنها قـام اتحاد الكتاب العرب في سورية بإعادة طباعة كتاب " سعد الله الجابـري" وحوارمع التاريخ (أوراق مضيئة). والكتاب من تأليف "رياض الجابري" أحد أقرباء سعد الله، وقـد أهدى اتحاد الكتاب العرب الكتاب إلى أمانة احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية.. ويقع الكتاب في مئة وأربع وتسعين صفحة من القطع الكبير تقريباً.. أما مضمون الكتاب فيتناول بالإضافة إلـى حـياة الجابري حقبة مهمة من تاريخ سورية كتب الجابري أوراقها بنفسه وتركها لتكون أوراقاً مضيئة لكل عشاق الضوء والحقيقة.

ج ــ مـئة أوائل من حلب: موسوعة من منشورات دار القلم العربي ــ حلب، تتألف من ثلاثة أجزاء وتقع في 3000 صفحة من القطع الكبير، للكاتب الباحث عامر رشيد مبيض، الذي عمل على إعـداد موسـوعته بضـع سـنوات بجد ومثابرة وموضوعية وبروح من العمل الأكاديمي والتوثيق المنهجـي والاختـيار الموفـق للشخصيات التي تحدث عنها حيث استطاع أن يحيط بجوانب الحياة السياسـية والفكـرية والاجتماعـية والاقتصـادية والفنية في مدينة حلب من خلال رصده لحيوات الشخصـيات التـي اخـتارها، حيث ركز على الأعلام الذين لعبوا دوراً في المضمار الوطني، ومن لعـبوا دوراً فـي النشاط الفكري بكافة مجالاته، من خلال أعلام رجال الدين والأدب والتربية والعلم والقانون والفن، وكذلك من مارسوا نشاطاً اقتصادياً بارزاً ذا اثر في حركة المدينة، كما ركز الباحث عامـر مبـيض علـى أعـلام الحركة التربوية والحركة الفنية والنشاطات في المجال النسائي فكرياً واجتماعـياً وتـربوياً، وقد اتخذ المؤلف لنفسه معايير دقيقة في اختيار الشخصيات التي قدمها، وهذه المعايير تدل على دقة ومعرفة وحس توثيقي وحرص على المعرفة الدقيقة.

يضـم الكـتاب تراجم مسهبة لرجالات المدينة ولكل أثر قديم أو حديث فيها، على امتداد القرن الماضـي 1901-2001 ممـا جعـل الكتاب لا يقتصر على المئة الأوائل في حلب، بل تعدّاها إلى المئات ممن وافتهم المنية أو ممن لا يزالون أحياء.

وقـد أغـنى المؤلـف موسوعته هذه بالصور التوضيحية النادرة، أو بتلك التي التقطها بعدسته للمعـالم الأثرية الماثلة ولبعض الأحياء القديمة والحديثة، أو بصور للأعلام المترجم لهم وبنماذج من إنـتاجهم، وان يستعرض فيها أطرافاً من الوقائع التاريخية الهامة التي جرت في القرن الماضي، كلما مست الحاجة أو اقتضى السياق.

ومن الشخصيات المذكورة في الكتاب:

ــ عمـر بهـاء الدين الأميري ولد في دار كبيرة ذات صحن مملوءة بالأزهار والأشجار عام 1923 ووسط أسرة محافظة ترعرع أصغر الأولاد عمر بهاء الدين الأميري ونشأ في هذا الجو وفي حلـب نـال شـهادته الدراسية الأولى ثم درس الحقوق في دمشق، أما الآداب فقد درسها في جامعة السـوربون وعيـن مديـراً للمعهـد العربـي الإسلامي بدمشق إلى جانب تدريسه مواد علم النفس والاجـتماع ثـم عين وزيراً ثم سفيراً لسورية في الباكستان وبعدها في السعودية وفي المغرب شغل منصـب /أسـتاذ كرسـي/ لمـادة الإسلام والتيارات المعاصرة، ويمتاز هذا الأديب والمفكر بغزارة الإنـتاج فمـا طـبع مـن آثاره يبلغ العشرين فقط ولديه ثلاثون ديواناً وما يقرب التسعين من الآثار الفكـرية والأدبـية والحضارية والمذكرات وجميعها لم تطبع مع أنها معدة للنشر ولكن ما بين عامي 1987-1992 كانـت حصـيلة المخطوطات الشعرية زادت عن اثنين وثلاثين في الشعر.. والجدير

بالذكـر أن الشـاعر تـرك إرثاً حاضراً وتراثاً فكرياً ما يزال مرجعاً للدارسين وقد قدمت من شعره رسائل جامعية عدة، وتوفي عام 1992م بعد ما قدمه من آثار ونتاجات غزيرة .

ــ كميل بن ميخائيل شمبير:

ولـد المـرحوم الفنان كميل بن ميخائيل شمبير في مدينة حلب في 8 آذار 1892 ميلادي وقد أهلته مواهبه الفطرية للنبوغ فأصبح ذا ثقافة موسيقية عالية وملحناً موهوباً وأستاذاً بارعاً في تدريس البـيانو فـي المدرسة الشيبانية بحلب ويعتبر الفقيد من أبرز مؤسسي النهضة الموسيقية العربية ومن أقدر الموسيقيين براعة في علم النغمة ومعرفة الأوضاع الموسيقية وكتابتها .

وقـد كـان الفقيد ينتقل بين الأقطار العربية كالبلبل الغريد من دوح إلى دوح وكان رئيساً لفرقة المـرحوم نجيـب الريحاني التمثيلية ثم رئيساً أيضاً لفرقة المرحوم أمين عطا الله التمثيلية في أزمنة مـتفاوتة وقـد لحـن لهما أكثر مقاطع رواياتهما التي كان لها ابلغ الأثر في الحياة الاجتماعية وكان يعـزف القطع الغربية بدرجة الإبداع وله الفضل في رفع شأن الفن العربي أمام الموسيقيين الأجانب الذين يقدرون مواهبه حق قدرها ...

لقد كان شمبير نديما أنيساً خفيف الروح حلو المعشر سريع النكتة كريماً، أبي النفس، وقد سجل الفنان بعض الأسطوانات من تقاسيم وسماعيات وبشارف ضاع معظمها ولم يبق منها إلا القليل ..

وفـي 9 تشرين الثاني سنة 1934 هوى هذا النجم الساطع من برجه الفني ملبيا نداء ربه حيث توفـي بدمشـق ونقل جثمانه إلى حلب فدفن فيها وهو في عنفوان رجولته وقد رثاه الشاعر المرحوم عمـر أبـو ريشـه الذي كانت تشجيه فنون الفقيد وتؤثر فتنتها على مشاعره بقصيدة تعتبر من غرر الشعر نقتطف منها هذه الأبيات :

نـام عـن كأسـه وعن أحبابه ... قـبل أن ينقضـي نهـار شـبابه

يابـنات الغروب قد نفض الليل ... علـى الكـون حالكـات نقابـه

احملـي الراحل الغريب وسيري ... بالـزغاريد سـلوة لاغـترابه

ــ وقامـت مديـرية إحياء ونشر التراث العربي في وزارة الثقافة بالتعاون مع أمانة الاحتفالية بنشـر كـتاب "شرح الصدور لشرح زوائد الشذور" الذي حققه الباحث محمد عدنان قيطاز، وهو من تصـنيف الإمام العلامة "شمس الدين محمد بن عبد الدايم البرماوي "الذي عاش بين 762ــ 831هــ . يقع الكتاب في مئة وثماني وخمسين صفحة من القطع المتوسط.

يضـم الكـتاب ترجمة لحياة المؤلف البرماوي وأهميته العلمية في عصره، فهو إمام علامة في الفقـه وأصوله، والعربية وغيرها، مع حسن الخط والنظم، والتودد ولطف الأخلاق، وكثرة المحفوظ والتلاوة، والوقاروالتواضع وقلة الكلام.

عـرف عـنه تـرحله بين المدن العربية والإسلامية: القاهرة، مكة، دمشق، حماة والقدس التي توفي ودفن فيها.. أهم آثاره العلمية:

فـي الحديـث الشريف: اللامع الصبيح على الجامع الصحيح. ثلاثيات البخاري. شرح ثلاثيات البخاري.

فـي الفقـه: النبذة الزكية في القواعد الأصلية. ألفية في أصول الفقه. النبذة الألفية في الأصول الفقهية. وغير ذلك كثير...

فـي النحو: شرح اللمحة البدرية في علم العربية. شرح لامية الأفعال. شرح الصدور في فوائد الشذور. بالإضافة إلى كتب أخرى في التاريخ وعلم العروض، عدد مؤلفاته أربعة وعشرون مؤلفاً..

ثمة ندوات أخرى يمكن للمهتمين الاطلاع عليها، منها على سبيل المثال:

ــ الحياة الاقتصادية في حلب عبر التاريخ.

ــ النتاج العلمي والفكري لمدينة حلب في العصور الإسلامية.

ــ حلب وحوار الحضارات.

ــ التراث الثقافي غير المادي لمدينة حلب في العصور الإسلامية.

ــ دور حلب في حركة النهضة القرنين التاسع العشر والعشرين..

ولا بـد من الإشارة إلى تنوع فعاليات احتفالية حلب عاصمة للثقافة الإسلامية فثمة محاضرات مهمة وأمسيات شعرية وعروض مسرحية ومعارض فنية وتراثية .. إلى غير ذلك من الفعاليات..